



ا.ك أوليدوف

الوعي الأجتماعي

الوعي الأخلاقي. الوعي السياسي. الوعي
الحقوقي. الوعي الديني. الوعي الفلسفي



ترجمة ميشيل كيلو

أ. ك. أوليدوف

الوعي الاجتماعي

- الوعي الأخلاقي
- الوعي السياسي
- الوعي الحقوقي
- الوعي الديني
- الوعي الجمالي
- الوعي الفلسفي

ترجمة

ميشيل كيلو

دار ابن خلدون

الفصل الأول

منهج دراسة الوعي الاجتماعي وبنياته

« ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم ، بل
على العكس يتحدد وعيهم بوجودهم الاجتماعي » .
كلل ماركس

من وجوه كثيرة ، يرتبط فهم طبيعة الوعي الاجتماعي ببنيته
وقوانين تطوره العامة والخاصة وبدور الوعي في الفعالية الانسانية
وبالمنهج ، اي بطريقة تأمل ومعالجة وتفسير ظواهر الحياة الفكرية
للمجتمع وتمثل المنهجية الفلسفية دليلا خاصا في عملية المعرفة يمكن
الباحث من تعيين طريقه وايجاد وسائله ، للتغلب على المصاعب التي
قد تواجهه

وتبدو الاهمية الكبيرة للمنهج بالنسبة لمعرفة الظواهر الفكرية في
ان الفلسفة تحتاج لاغناء وتعليل دائمين للمبادئ القديمة والجديدة التي
تنبثق من المعرفة المكتسبة للواقع

١ - المبدأ الرئيسي في دراسة الوعي الاجتماعي

يرتبط المبدأ الرئيسي في دراسة الوعي الاجتماعي بالاجابة على
السؤال عن العلاقة بين الوعي والوجود ، وبين الفكر والطبيعة في مقدمته
لكتاب حول نقد الاقتصاد السياسي صاغ ماركس الجواب بالشكل
التالي « ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم ، بل على العكس
يتحدد وعيهم بوجودهم الاجتماعي » (١) هذه المقولة تتضمن أيضا المبدأ
المنهجي الرئيسي لمعرفة الحياة الفكرية ، لانها تعبر عن جوهر المفهوم
المادي للتاريخ .

وتعارض المفهوم المادي مع المفهوم المثالي للتاريخ ومع الطريقة
المثالية في تناول حياة البشر تعارضا تاما فالمثاليون يرون ان وعي
البشر هو أساس سائر الاحداث الاجتماعية ويفهمون تحت كلمة وعي
« الروح » مرة و « العقل » مرة أخرى ، وعي الانسان الفرد مرة ومرة

أخرى الوعي الاجتماعي اما مقولة « الوعي الاجتماعي » فقد استخدمت للمرة الأولى من قبل كلاسيكي الماركسية ، حين كان علم المجتمع البرجوازي يستخدم للتعبير عن « الوعي الاجتماعي » مقولات مثل « الراي العام » أو « الروح القومية أو الروح الشعبية وعلى سبيل المثال فقد استخدم ممثلو « المدرسة التاريخية » الألمانية في نظريتهم حول الدولة والحق مفاهيم الروح القومية « و الروح الشعبية » على نطاق واسع وفي ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر اعتبر علم المجتمع البرجوازي الروح القومية كمبدأ تاريخي كوني وكان أنصار هذا التصور يزعمون ان الحياة الاجتماعية لا تخضع لمبدأ السببية العام بل هي تملك سببية نفسية خاصة ولا يجدون في العلاقات الاجتماعية للبشر سوى علاقات نفسية ، ويؤكدون ، بالتالي ان علم النفس الاجتماعي هو العلم الوحيد القادر على تفسير التاريخ

ولم يقدم علم المجتمع البرجوازي حلا صحيحا للعلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي فانطلق من الافتراض الخاطئ بأن سائر العلاقات بين السر ليست سوى ظواهر ذات طبيعة فكرية وزعم ، بالتالي ان الوعي الاجتماعي يقوم فقط على مثل هذه الروابط والعلاقات بين أعضاء المجتمع ان الباحثين الذين ينطلقون من مثل هذا المفهوم للحياة الاجتماعية لا يملكون مقياسا موضوعيا لتحليل تطورية (Evolution) الوعي الاجتماعي ويعجزون حتى عن تعريفه وتحديده وقد اضاف عالم النفس والمجتمع الألماني فيلهلم فون دت في مؤلفه حول علم نفس الشعوب الى الوعي الاجتماعي الاديان والعادات واللغة ومنتجات أخرى للفكر قال انها تسأ فقط في سياق عملية التواصل الفكري (٢)

يمكن لمحاولات تعريف الوعي الاجتماعي بعد فصله عن الوجود الاجتماعي أن تؤدي الى نتيجة ايجابية فهي تسلب الوعي الاجتماعي قاعدته المادية ومحتواه الموضوعي

ويتبنى علم الاجتماع البرجوازي الحديث - شأنه في ذلك شأن علم الاجتماع في الماضي - وجهات نظر تمثل المفهوم المثالي للتاريخ وهو لم بطور بدوره مبادئ علمية لبحث الوعي الاجتماعي ، تؤكد ذلك آراء المدرسة النفسية التي تحتل في علم الاجتماع البرجوازي محلا رئيسيا اذ يدرس ممثلوها بوجاردوس آلبور آش (الخ) عند تحليل العمليات الاجتماعية البواعث المثالية فحسب للسلوك الانساني دون

التعرض للعلاقات المادية ، اي للوجود الاجتماعي للبشر وبالنسبة لهم لا يوجد الوجود الاجتماعي مستقلا عن الوعي الانساني ، بل يرتبط باحساس الذات وعلاقتها به

وتملك المدرسة النفسية في علم الاجتماع نفوذا كبيرا في المجال البرجوازي ولكنه من الصعب في العصر الراهن تبني المفهوم المثالي حول العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي بصورة معلنة بسبب التناقضات الظاهرة لهذه الآراء مع الوقائع التاريخية التي تظهر الارتباط الاجتماعي للوعي ، وبسبب تطور المعارف العلمية أيضا

وتجد مقولة المادية التاريخية حول الدور المحدد الذي يلعبه الوجود الاجتماعي بالقياس الى الوعي الاجتماعي انتشارا متزايدا ولقد نشأت سوسيولوجيا المعرفة التي غدت اتجاها قائدا في علم الاجتماع البرجوازي. كرد فعل خاص على النظرية الماركسية في الوعي الاجتماعي ونشؤته وتطوره كتابع للوجود الاجتماعي ولا يمتنع ممثلو هذا الاتجاه (دوركايم ، ماكس شيلر ، كارل مانهايم ، بيتريريم سوروكين ، فيرنر شتارك ، جاك جبروم مانكيه الخ) عن انكار تبعية الوعي الاجتماعي فحسب ، بل هم يعتبرون ان المهمة الرئيسية لسوسيولوجيا المعرفة تكمن في كشف تعين المعرفة بشروط الوجود الاجتماعي

كتب احد مؤسسي هذا الاتجاه عالم الاجتماع الالماني كارل مانهايم في احد مؤلفاته : تدرس سوسيولوجيا المعرفة ارتباط المعرفة بالوجود (٣) ، وتطمح لتفسير النظريات واشتقاقاتها بالارتباط الوثيق مع الفئات الاجتماعية والايوضاع الاجتماعية العامة النموذجية التي تنشأ فيها ، والتي هي من صنعها وبحسب كلمات عالم اجتماع الماني آخر هو ماكس شيلر يجب على سوسيولوجيا المعرفة دراسة « حقيقة رئيسية هي الطبيعة الاجتماعية لكل معرفة لكل حفظ وتوصيل للمعرفة لتعميمها وتطويرها المنهجيان (٤)

ويقدم عالم الاجتماع الاميركي البرجوازي روبرت ميرتون في كتابه النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية ملخصا قصيرا حول تصورات اهم ممثلي سوسيولوجيا المعرفة وهو يظهر ان سوسيولوجيا المعرفة تريد الاجابة على اسئلة من مثل ما هو الاساس الحقيقي (الاجتماعي والثقافي) لمنتجات الفعالية الفكرية ؟ اي من منتجات الفعالية الفكرية تصلح

كموضوع للتحليل السوسيولوجي ؟ كيف ترتبط منتجات الفعالية الفكرية مع الاساس الواقعي ؟ (٥) وليس لدى ممثلي سوسيولوجيا المعرفة وجهة نظر موحدة حيال هذه الاسئلة الهامة انهم متحدون فقط في ضرورة حل مشكلة التبعية الاجتماعية للمعرفة من منظور مثالي ويمكن جوهر اجاباتهم على الاسئلة السابقة فيما يلي

تحت الاساس الواقعي (الاجتماعي) لمنتجات الفعالية الفكرية للبشر يفهم ممثلو سوسيولوجيا المعرفة الظواهر المتنوعة للحياة الاجتماعية كالطبقة ، والجيل والفئة الوظيفية والوحدة الاتية ، وبنية السلطة الخ وهم يتحاشون دور الاناج المادي والعلاقات الاقتصادية للبشر كعامل رئيسي يحدده في السياق النهائي محتوى الفعالية الفكرية وحين يذكر ممثلو سوسيولوجيا المعرفة العلاقات الاقتصادية بين العوامل الحقيقية للتطور الاجتماعي فهم يفعلون ذلك من اجل اعتبار اهميتها مساوية لاهمية غيرها من العلاقات الاجتماعية المتعددة ويبدى مانهايم علنا تحفظه حيال اعادة الوجود الاجتماعي الى العلاقات الاقتصادية وحيال اعتبارها العلاقات المحددة لسواها

ويحلل سوسيولوجيو المعرفة منتجات الفعالية الفكرية مثل الايديولوجيات والنظريات السياسية والقيم والمثل الخ وتعتبر الروح الموضوعية لدى ماكس شيلر مثالا موضوعا للتحليل السوسيولوجي أي المحتوى الدلالي سواء اتخذ شكلا ماديا أم كان فعالية انسانية نفسية خاصة وحسب شيلر تأخذ الروح الموضوعية شكل العمل الفني واللغة والكتابة ، والتقاليد والعادات ، والطقوس وسواها من النماذج المطابقة لوعي الجماعات اما القيم والمثل والافكار الخ فهي نتاج فعالية تقوم بها نخبة مثقفة وتعبّر عن نفسها بأشكال مناسبة ولكنها شأنها شأن غيرها يجب أن تخضع فحواها للتحليل السوسيولوجي (٦)

كيف يفهم سوسيولوجيو المعرفة الترابط بين الروح الموضوعية والوجود الاجتماعي ؟ انهم يرون العلاقة بين الوجود الاجتماعي ومنتجات الفعالية الفكرية بطريقة بالغة المحدودية فيقول بعضهم ان الذات العارفة لا تخضع لأي تأثير اجتماعي (٧) وان تأثير المجتمع يقتصر فقط على عملية نشر المعرفة ، التي هي من وضع النخبة بين الجماهير ويعترف آخرون بأن للمجتمع تأثيرا على الايديولوجيا والدين ... الخ ولكنهم

يزعمون ان « المعرفة البحتة » و العلوم البحتة لا تخضع لأية تأثيرات اجتماعية ، وفي حال خضوعها ، فان من الصعب جدا تحديد هذه المؤثرات هذه هي أيضا وجهة نظر عالم الاجتماع البلجيكي ماكيه ، فهو يقسم أيضا الفعالية الفكرية الى مجالين : مجال المعرفة العلمية ، والمجال الآخر غير العلمي ، الذي يشمل الفلسفة والاخلاق والادب والمعتقدات الدينية الخ وفي حين يتعين المجال الثاني بالمصالح الطبقية ، فان من الصعب اثبات تعيين اجتماعي للعلوم الطبيعية والتجريبية (٩) والحال ، ليست الايديولوجيا هي المجال الذي يملك ، دون سواه ، تعيينا اجتماعيا ، بل ان العلم أيضا يتحدد بالمجتمع ويعبر ذلك عن نفسه في تعيين تطور العلوم ، وخاصة الطبيعية منها بحاجات ومصالح الانتاج المادي وليس تاريخ العلوم الطبيعية سوى برهان مقنع على ان نشوء وتطور فروعها المختلفة يعود الى الحاجات الملحة للانتاج ويؤكد تحول العلم الى قوة منتجة في عصرنا الراهن ، ان هذا الشكل من الفعالية الفكرية صار الآن يتعين ، أكثر من أي وقت مضى ، اجتماعيا

يمتاز مفهوم سوسيولوجيا المعرفة البرجوازية حول الترابط بين الوجود الاجتماعي والفعالية الفكرية بضيق الافق ويتجلى ذلك في فهمه الميكانيكي للترابط السببي بين الاساس الاجتماعي والوعي وفي اعتقاده بأن الاساس الواقعي للوعي هو اساس ثقافي يضم قيما فكرية ، ونمطا ثقافيا ، و « روحا شعبية » ، وأشكالا يتجلى الراي العام بها الخ

ولقد برهنت الادبيات الماركسية منذ وقت بعيد على تهافت مفاهيم سوسيولوجي المعرفة البرجوازيين ، ونحن لن نعالج هنا نقاط خلافتنا معهم بتفصيل ، بل سنقتصر على مناقشة مفهوم الترابط السببي بين الوجود الاجتماعي والوعي .

يزعم مانهايم ان العلاقة بين الشروط المعينة للوعي والوعي الذي « يتعين بها ، ليست علاقة سببية بالمعنى الاصلي للكلمة ، بل هي شكل من اشكال الترابط غير المحدد ويبدو هذا الاتحاد في ان الافكار قد تملك محتوى غير اجتماعي من الصعب ارجاعه الى مصالح اجتماعية ذات طبيعة طبقية ان الطبقات والمجموعات تحدد فقط اسلوب التفكير ولا تحدد محتوى الافكار والمفاهيم

يفهم مانهايم الترابط السببي بين الوجود الاجتماعي والوعي كتعبير

عن المصالح والاهداف التطبيقية في وعي كل فرد من طبقة ما ولان ذلك لا وجود له في الواقع فان مانهايم يعارض النظرة السببية الى العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي وفي نفس الوقت فهو يزعم ان انتماء الفرد الى مجموعة اجتماعية محددة يؤدي الى تحديد تفكيره بصورة قدرية مسبقة من خلال وضع هذه المجموعة ان الفرد كما يدعي مانهايم لا يمكن ان ينفصل عن المجموعة التي يفكر ويتصرف بدخلها (١٠) وتفكيره مرتبط ارتباطا وثيقا بوعياها والوعي الفردي هو بالنسبة لمانهايم وببساطة ، برهان على ان المجموعة تعي وضعها الاجتماعي وعيا مباشرا. هنا يبدو بوضوح كم هو متناقض مفهوم مانهايم حول الارتباط بين الوجود الاجتماعي والوعي ومن وجهة نظره لا يمكن عرض العلاقة بين ما هو اجتماعي وفكري كعلاقة سبب بنتيجة من جهة ، وهو ينتقد ماركس لانه علل الترابط بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي وفق هذا المبدأ السببي من جهة أخرى يعسر مانهايم نفسه الترابط بين تفكير الفرد ووعي المجموعات بروح سببية مفهومة بصورة ميكانيكية وهو ينزل تبعية الوعي للوجود الاجتماعي الى مستوى تبعية الوعي الفردي لحالة المجموعة التي ينتمي الفرد اليها ولوضعها الاجتماعي

يساوي نقاد الماركسية في حالات كثيرة بين مفاهيم مانهايم عن الرابط بين الوجود الاجتماعي والوعي وبين مفاهيم ماركس يقول ميرتون ان ماركس قد سار الى أي مدى كبير يحدد الوضع الاقتصادي والسياسي لمجموعة ما تفكيرها (١١) ثم يعرض مفهوم مانهايم حول تبعية الوعي الفردي لوضع المجموعة التي ينشط ضمنها وينسب الى الماركسية فهم سوسيولوجيا مانهايم المعرفية المتميز للايديولوجيا كوعي مباشر للوضع الاجتماعي المجموعة ويصل ميرتون الى تقديم التناقضات التي تميز وجهات نظر مانهايم وكأنها اثبات لتهافت المفاهيم الماركسية حول علاقة الوجود الاجتماعي بالوعي الاجتماعي ان عالم الاجتماع الاميركي يعترف على كل حال بانجازات الماركسية في معالجة مشاكل سوسيولوجيا المعرفة والعلم ولكنه يرفض ما تقدمه حول الوعي الاجتماعي بوصفه نظرية منفصلة على ذاتها وهذا شيء مفهوم لان المعالجة المثالية لمشاكل المعرفة لا تتوافق والمادية بوسع المرء ان يتحدث كما يشاء حول الارتباط الاجتماعي للوعي بيد ان مفهوم الوجود الاجتماعي لن يمتلك محتوى علميا الا بعد تضمينه العنصر الأكثر أهمية وتحديدا : **انتاج السلع المادية .**

تتمايز سوسيولوجيا المعرفة البرجوازية ، كما قلنا سابقا ، تمايزا كبيرا ويقول ممثلوها ان نظريتهم الاجتماعية ليست سوى علم تميّن المعرفة بظروف، وشروط الوجود الاجتماعي ، ولكنه ليس صحيحا ان سائر مدارس سوسيولوجيا المعرفة تتعامل حقا مع بحث هذه الدائرة من المسائل فالدرسة السوسيولوجية الاميركية مثلا لا تطرح على نفسها مثل هذه المهمة وقد اعد واحد من أهم وجوهها ، العالم سوروكين ، الاساس الواقعي للوعي بصورة رئيسية السى شروط ثقافية او عناصر ثقافية - اجتماعية وفي مؤلفه ذي الاجزاء الاربعة « الديناميكية الاجتماعية والثقافية يحلل سوروكين تبعية المعرفة للشروط الثقافية ويفهم هذه كمنظومات فكرية ومقولات فلسفية ونظريات اجتماعية - سياسية ، وسواها من التكوينات الفكرية ويؤكد وجود تطابق منطقي بين « منظومات الحقيقة و « منظومات المعرفة (١٢)

في الوقت الراهن تنصرف سوسيولوجيا المعرفة في الولايات المتحدة بالدرجة الاولى الى دراسة المسائل المرتبطة بانتشار الافكار والمفاهيم ومنظومات التفكير والراي ، أي بدراسة درجة الاشباع الاعلامي للجمهور ، وتنشغل اقل من ذلك بمشاكل التبعية الاجتماعية لهذه الظواهر غير انه سيكون من الخطأ القول ان علماء الاجتماع الاميركان لا يملكون أية وجهة نظر حول هذه المسألة ان علماء اجتماع كبار مثل تالكوت بارسون وروبرت ميرتون ، يولون أهمية كبيرة في اعمالهم للتحليل السوسيولوجي للمنظومات الفكرية في المجتمع وهم يدعون ان المنظومات الفكرية مرتبطة وظيفيا بالبنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع وبالنتيجة فانهم لم يستطيعوا تجاوز محدودية مفاهيم شيلر ومانهايم ودوركهايم وسواهم من سوسيولوجي المعرفة « الكلاسيكيين بواسطة الدفاع عن الارتباط الاجتماعي للمعرفة ، بل تجاوزوا تلك المحدودية عن طريق رفض هذا الارتباط وهذا يبرهن مرة أخرى انه ليس ممكنا حل مشكلة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي حلا علميا من مواقع مثالية وقد لاحظت مورتوشيلوفا بحق في نقدها لمفاهيم شيلر ومانهايم ان سوسيولوجيا المعرفة لدى شيلر ومانهايم قد اثبتت عجزها عن الوصول الى نتائج منهجية دقيقة يمكن على اساسها معرفة الروابط التي تشد ، على ارضية علمية ، الاشكال المختلفة والمعقدة للمعرفة الى الشروط الاجتماعية المشخصة المطابقة لها هذا الحكم يصلح بالنسبة لسوسيولوجيا المعرفة الاميركية المعاصرة ، ولسواها من المدارس البرجوازية الاخرى .

عندما يتبنى الماركسيون الحل المادي لمسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، فهم ينتقدون أيضا أولئك الذين يقرّون بالمادية ، ولكنهم يطبقونها بتردد ومن المعروف ان مثل هذا التردد قد برز لدى كارل كاوتسكي الذي كان يقرّ بتبعية الوعي للوجود ولكنه ينكر ، في نفس الوقت ، ان الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي (١٣) ثمة مفهوم مغلوط للأطروحة الماركسية حول الترابط بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي، يبرز بشكل خاص لدى اكسيلرود التي اكدت في التخطيطات الفلسفية ولدى عرض مفهوم ماركس وانجلز ارتباط محتوى الوعي بالوجود الواقعي وبتطور العالم الموضوعي الموجود خارجنا » واعتبرته نقيضا لانعكاس العالم الموضوعي في وعينا مما زيف حل ماركس لهذه المسألة (١٤)

ان معارضة أطروحة انعكاس الوجود من خلال الوعي بأطروحة « تبعية محتوى الوعي للوجود الواقعي هي أمر مغلوط فالأولى تكمل الثانية بدل أن تلفيها وتجعل فهمنا أكثر عمقا للعلاقة بين الوجود والوعي وإذا كان الوعي بطبيعته ليس انعكاسا فإنه سيكون من الصعب اثبات تبعية الوعي للوجود الواقعي ان جوهر ما هو فكري يكمن في انه انعكاس أو تعبير عما هو مادي وماركس وانجلز لم ينكرا طبيعة ما هو فكري طبيعة الوعي ، بل حدداها قبل غيرها وهما يقولان في الايديولوجيا الألمانية « ان الوعي لا يستطيع ان يكون شيئا آخر سوى الوجود الذي تم وعيه » (١٥) ويقولان في نفس الكتاب الافكار السائدة ليست سوى التعبير الفكري عن العلاقات المادية السائدة العلاقات المادية السائدة المعبر عنها بأفكار (١٦)

يقول كلاسيكيو الماركسية ان الواقع يُعكس من قبل الوعي البشري. هذا ما تراه أيضا اكسيلرود ، ولكنها تتحليل على الامر : « ماركس وانجلز لم يستخدموا كلمة « انعكاس » بالمعنى المباشر ، بل بالمعنى المجازي ان تبعية الافكار للاشياء هي أمر ، وانعكاسها التام في الدماغ كما في مرآة أمر آخر » (١٧) ان نظرية المعرفة المادية – الجدلية لا تعرف مفهوما سويا حول الانعكاس في الدماغ كما في مرآة ومن الصعب اشتقاق تعارض بين « تبعية » الافكار للوجود ، و « انعكاس » الوجود في الافكار. وكلاسيكيو الماركسية لم يسمحا بمثل هذا التعارض وتعتبر اليوم أطروحة لينين حول الوعي كانعكاس للوجود الاجتماعي مكونا أساسيا

للعلم أما في مسألة علاقة هذه الأطروحة بالمبدأ الذي يقول بتحدد الوعي بالوجود الاجتماعي ، فلا زالت هناك وجهات نظر مختلفة وهناك أيضا مناقشة حول مفهوم المبدأ النهاجي الأساسي لبحث الحياة الفكرية للمجتمع ، فيقترح توجارينوف التمييز بين « الوعي - اطلاقا - » و « الوعي الاجتماعي » يقول توجارينوف « تدخل في الوعي - اطلاقا - كل الأفكار حول العالم المحيط بنا ، وليس فقط حول المجتمع » (١٨) وهو يفكر في هذا المجال بمقولات حول الطبيعة « التي لا يمكن اعتبارها جزءا من الوعي الاجتماعي ، باعتباره انعكاسا للعلاقات الاجتماعية » (١٩) ويميز توجارينوف بين وعي الطبيعة ووعي المجتمع ، ويستثني وعي الطبيعة من « الوعي الاجتماعي » ، كي لا نتورط في تناقض مع تعريف هذه المقولة « كانعكاس للوجود الاجتماعي »

ليس صحيحا فهم أطروحة لينين حول انعكاس الوجود الاجتماعي بواسطة الوعي الاجتماعي بوصفها تعريفا لمقولة « الوعي الاجتماعي » ، وعلى هذا الأساس اخراج وعي الطبيعة من محتواه ان أطروحة لينين لا تسمح بتقليص الوعي الاجتماعي ، أي وعي المجتمع ، الى مستوى وعي حول المجتمع ، أي وعي المجتمع لذاته (وعي المجتمع حول نفسه) وهذا بالضبط هو ما يفعله توجارينوف ، وهو يطرح علينا السؤال التالي لماذا يقود تأمل الوعي الاجتماعي على صعيد انعكاس الوجود الاجتماعي بعض الفلاسفة الى تضيق محتوى الوعي ، واخراج الوعي حول الطبيعة منه ؟

في رأيي ان أحد الأسباب يكمن في التفسير الاحادي الجانب للمبدأ النهاجي الرئيسي في تحليل الوعي هذا التفسير يركز الانتباه على ان الوعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي ، ويهمل تعيين الوعي من قبل الوجود الاجتماعي ان اهتمام الباحث ينصب على الانعكاس فقط ، وهذا يؤدي الى تجاهل الشروط الاجتماعية المشخصة التي يتم فيها ، وموشور المصالح الاجتماعية العيانية التي يتحقق من خلالها أي انه يحط من قدر الدور المعين الذي يلعبه الوجود الاجتماعي بالقياس الى الوعي لقد أولى كلاسكيو الماركسية أهمية من الدرجة الاولى لتفسير هذه التسمية ، فأشار ماركس وانجلز في « الايدولوجيا الألمانية الى ان الوعي هو « بالاساس نتاج اجتماعي » (٢٠) ، وسيبقى كذلك « ما دام للبشر وجود (٢٠) . فالاساس الذي ينشأ الوعي فوقه ، ويتطور عليه ، هو

الممارسة المادية للبشر ولا يفصل كلاسيكيو الماركسية وعي الطبيعة عن وعي المجتمع ، نظرا لوحدة الاساس الذي ينشأ عليه ، الا وهو العمل البشري يقول ماركس وانجلز « ... حتى العلوم الطبيعية البحتة تكتسب هدفها ومادتها اصلا من خلال التجارة والصناعة ، من خلال النشاط الحسي للبشر » (٢٠)

ليست الطبيعة بما هي طبيعة ، بل نشاط البشر لتغيير الطبيعة هو من ينجب العلوم الطبيعية بهذه الطريقة تنعكس الطبيعة بقوانين تطورها وخواصها في وعي البشر غير اننا لا نستطيع الوصول الى اي فهم لوعي الطبيعة ، ان نحن تجاهلنا تبعيته الاجتماعية فقط عندما نراعي حاجات المجتمع بخصوص معرفة ظواهر الطبيعة ونراعي مستوى التطور الاجتماعي والنظام الاجتماعي السائد ، ونظرات الطبقات المختلفة الى العالم التي تؤثر على النشاط المعرفي اي عندما نراعي الاشتراكية الاجتماعية لمعرفة الطبيعة ، فاننا نستطيع الوصول الى حكم صحيح عليها. مثل هذه الطريقة لا تترك مجالا لاي فارق مبدئي بين وعي الطبيعة ووعي المجتمع على صعيد الانعكاس هذا الوعي وذاك هما نتاج للمجتمع ويتبعان له

الوعي هو نتاج للمجتمع ، وبهذا المعنى هو وعي اجتماعي بهذه الصفة النوعية يعتبر ثانويا بالقياس الى الوجود الاجتماعي كتكوين منبعث منه ، كوعي وانعكاس لوجود البشر ، و وجود البشر هو حياتهم الفعلية (٢٠)

في السنوات الاخيرة انتشر انتشارا واسعا المفهوم القائل بالوعي الاجتماعي كنتاج للمجتمع ، وكتكوين فكري تمثل العلوم الطبيعية جزءا من محتواه (٢١) ومع ذلك فان تفسير مصطلح « الوعي الاجتماعي لا يزال غير محدد بدقة حتى الآن ولا زلنا نصطدم حتى الآن بمفهوم الوعي الاجتماعي بمعناه الضيق اي كوعي للعلاقات الاجتماعية المادية

لدى بحث الوعي الاجتماعي يلعب فهم الوجود الاجتماعي دورا كبيرا. وهو يحدد ماذا يفهم المرء تحت مصطلح « محتوى الوعي الاجتماعي

يؤكد الفيلسوف البلغاري شيبسكي انه يوجد ستة تفسيرات مختلفة لمصطلح الوجود الاجتماعي « لدى الفلاسفة الماركسيين وفي كتاب بوبوف حول « السببية في المجتمع تبحث التعريفات الستة لمقولة

« الوجود الاجتماعي (٢٢) اننا لن نكرر ما قيل في هذا المؤلف بل نلاحظ انه يوجد في الادبيات الفلسفية الى جانب التحديد الصحيح لمقولة « الوجود الاجتماعي » وجهتا نظر متطرفتان الاولى تضيق مفهوم « الوجود الاجتماعي » وتعتبره فقط مجموع علاقات الانتاج والثانية توسعه دون مبرر وتدخل فيه ظواهر ليست جزءا منه

لقد رفض لينين في مؤلفاته تقليص الوجود الاجتماعي ليغدو جملة علاقات الانتاج ، وبشكل خاص في ثلاثة مصادر ومكونات للماركسية و « كارل ماركس » حيث نظر الى البنية الاقتصادية للمجتمع بصفتها الاساس الذي تقوم فوqe ظواهر الوعي الاجتماعي ولكنه سيكون من الخطأ القول ان لينين قد مائل ما بين مفهوم « الوجود الاجتماعي » ومفهوم « البنية الاقتصادية للمجتمع » وفي مؤلفاته توجد تصريحات عديدة محتواها ان البنية الاقتصادية تحدد وعي البشر في السياق النهائي ، دون ان يستنفذ محتوى الوجود الاجتماعي نفسه في هذا التحديد وكتب لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي عند معالجة محتوى الوجود الاجتماعي الذي ينشأ مستقلا عن الوعي الاجتماعي

« ومن واقع انكم تعيشون وتتدبرون شؤونكم ، تنجبون اطفالا وتنتجون سلعا وتبادلونها ، تنشأ سلسلة احداث ضرورية موضوعيا ، سلسلة تطور مستقلة عن وعيكم الاجتماعي ، وتستعصي على ان يحيط بها احاطة تامة . ان أعلى مهمات الانسانية هي الاسالك بالنطق الموضوعي لهذه التطورية الاقتصادية (تطورية الوجود الاجتماعي) فهي اسسه العامة ، لطاقتها مع وعيهم الاجتماعي ووعي الطبقات المتقدمة لسائر البلدان الرأسمالية باشد ما تكون المطابقة وضوحا ونقدية » (٢٣)

لسنا بحاجة للاشارة الى اعمال أخرى للينين ، فالاستشهاد السابق يدل على انه ، لدى تحليل الوجود الاجتماعي ، لم يحصر عمله في وصف البنية الاقتصادية فقط

ويؤدي تقليص الوجود الاجتماعي الى جملة علاقات الانتاج المادية لتضييق محتوى الوعي الاجتماعي أيضا فتسقط منه ليس فقط العلوم الطبيعية ، بل تكوينات فكرية عديدة لا تمثل انعكاسا في رؤوس البشر لعلاقات الانتاج القائمة وعندئذ يكون الوعي الاجتماعي متماثلا في جوهره مع الايديولوجيا الاجتماعية

يمكن التطرف الثاني في توسيع مفهوم الوجود الاجتماعي في نهاية

الخمسينات جرت في مجلة فوبروسي فيلسوفيه « مناقشة حول العلاقة المتبادلة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي وقد اتضح خلال النقاش ان بعض الفلاسفة كانوا يميلون الى ادخال مجمل نشاط وحياة الانسان الواقعية تحت مقولة الوجود الاجتماعي (٢٤) مثل هذا التفسير الموسع لمفهوم الوجود الاجتماعي لم يجد في مجريات النقاش دعماً يذكر ، لانه محا الفروق بين العلاقات المادية والايدولوجية ، وبين ظواهر البنية التحتية والفوقية في المجتمع ، مع ان المرء يجد حتى يومنا هذا تصريحات تدعم هذا الاتجاه مثل هذه الآراء مغلوطه في محتواها ، ولكنها ، كما يبدو لنا ، رد فعل خاص على تقليص الوجود الاجتماعي واعتباره مجرد علاقات انتاج وعلى الزعم بأن الوعي الاجتماعي لا يعكس سوى علاقات الانتاج

في مجرى المناقشة المذكورة كانت هناك مفاهيم صحيحة حول محتوى الوعي الاجتماعي ، تعتبر الوجود الاجتماعي جزءاً من مجال العلاقات الاجتماعية المادية التي لا تحتاج من أجل تكونها للمرور بالضرورة في وعي البشر هذه العلاقات يمكن ، بعكس البنية الفوقية ، أن تنشأ مستقلة عن ارادة وعي البشر وتعتبر العلاقات الاقتصادية ، اي العلاقات بين البشر التي تنشأ في عملية الانتاج والتبادل والتوزيع المشترك للمنتجات المادية في رأس هذه العلاقات وتعتبر جزءاً منها أيضاً علاقات البشر مع الطبيعة ، التي تصبح ممكنة بفضل علاقات البشر بعضهم مع بعض ان مفهوم الوجود الاجتماعي يضم سائر أنواع العلاقات الاجتماعية التي هي مادية بطبيعتها هذا يعني ان مفهوم الوجود الاجتماعي هو مفهوم شامل المحتوى وغني جداً ولتحديد هذا المحتوى ، يجب على المرء أن يحلل العناصر المادية للعلاقات الاسرية وظروف السكن وطريقة الحياة الخ ، التي تترابط مع ظروف الحياة اليومية للبشر

ونعتقد ان مفهوم الوجود الاجتماعي كمجال للعلاقات المادية للبشر يمكننا من أن نحدد بدقة محتوى الوعي الاجتماعي فلا نقصره على الايدولوجيا الاجتماعية اذا كان الوجود الاجتماعي لا يقتصر على علاقات الانتاج فحسب بل يضم أيضاً علاقات البشر مع الطبيعة فان هذه تنعكس بدورها في الوعي ، وليس من المقبول اخراج ما نعرفه حول الطبيعة من الوعي الاجتماعي ان الطبيعة وبدقة اكبر ذلك القسم منها الذي اندمج في الممارسة الاجتماعية يبدو كجانب من حياة المجتمع وتبدو

الطبيعة بالنسبة للانسان ، كما قال ماركس ، كطبيعة مؤنسنة بهذا المعنى يعتبر انعكاس الطبيعة المؤنسنة انعكاسا لوجود البشر ، اي لعلاقاتهم مع الطبيعة

ان فهم الوجود الاجتماعي كمجال للعلاقات المادية يمكننا من اعتبار المقولتين التاليتين الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي و « الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي كوجهين لا انفصام بينهما للمبدأ النهائي الرئيسي لتحليل الوعي الاجتماعي وهي معللة في كتاب « نظرية الوعي الاجتماعي في ضوء نظرية المعرفة » لكلا ، الذي بذل جهودا كبيرا لحماية المبدأ المنهجي الاكثر اهمية في الماركسية من التزييف ، فوقع في تصور غير دقيق يعتقد كاك ان كلمة يعين في الاطروحة القائلة « ان الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي لا تعبر فقط عن علاقة السبب بنتيجته ولكي يوضح فكرته ، فانه يقارن العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي مع العلاقة بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة . يكتب كاك في الحالة الاخيرة يصف مفهوم « يعين » السبب الذي تترتب عليه نتيجة . اما في الحالة الاولى فانه يصف ايضا الانعكاس » (٢٥) بهذا التحليل لكلمة « يعين يزيح كاك الفارق بين مقولتي الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي و الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي » ، بأن يجعلهما متماثلتين تماما ولكن مصطلح « يعين » يملك معنى آخر غير مصطلح « يعكس »

تتضمن العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي اتصالا بين الاول والثاني ، وبين الثاني والاول فبينما « يعين » الاول الثاني ، يعتبر الثاني بالنسبة للاول انعكاسا وكما هو معلوم فان انجلز قد تحدث لدى مناقشة المسألة المركزية في الفلسفة - مسألة العلاقة بين المادة والوعي - عن هذين الجانبين ، أي عن علاقة الوجود بالوعي والوعي بالوجود حين يطبق كلام انجلز على المجتمع ، فان حسم الجانب الاول من السؤال الرئيسي يعني ان الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي ، وان الوعي الاجتماعي يملك مرتبة ثانوية ، ويشتق من الوجود الاجتماعي ، فهو نتاجه وهو يتغير ويتطور مع الممارسة الاجتماعية للبشر

ويجعل حل الجانب الثاني من المسألة المركزية للفلسفة بالامكان كشف جوهر الوعي الاجتماعي « كوعي للوجود و تعبير عنه ، اي ادراكه كانعكاس للوجود الاجتماعي ومن الواضح ان المرء يستطيع ادراك

الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي فقط عندما ينطلق من الحل المادي للجانب الاونثولوجي للمسألة الاساسية في الفلسفة أي من تعين الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي ولا ينتج عن ذلك ان حل الجانب الاول من المسألة الفلسفية الاساسية يعني في نفس الوقت حل الجانب الثاني من المسألة لهذا يجب على المرء لدى دراسة الوعي الاجتماعي الانتباه الى الظروف التي يحدث الانعكاس فيها واية طبقة (او طبقات) تحمل الوعي الخ ان الوعي الاجتماعي مشروط بالوجود الاجتماعي للتشكيلة المعطاة والعصر المعطى ، وهو ، الى جانب ارتباطه بموضوع الانعكاس ، يرتبط أيضا بالذات العاكسة ، أي بحامل الوعي الشخص والعلاقات الاقتصادية نفسها (موضوع الانعكاس نفسه) يلتقطها ووعي الطبقات المختلفة بصورة مختلفة كل طبقة تقيّم الواقع بطريقة الخاصة

ان الشروط المادية والحالة الاجتماعية يحددان مصالح الطبقات ويمنحان وعيها التوجه نحو هدف ما ، أي يركزان اهتمامهما على جوانب معينة ، وذات أهمية ، من الوجود الاجتماعي وهما نتجان طريقة التفكير الخاصة بها ، ونظرتها الخاصة الى الواقع لذا يجب عند تحليل الظواهر الفكرية مراعاة ان الوعي هو انعكاس للوجود وانه يتعين به أيضا وبكلمات أخرى على المرء الانتباه للترابط المتبادل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي (٢٦) الذي هو علاقة سببية يعود فيها الدور المعين الى الوجود الاجتماعي والانعكاس هو جانب من هذه العلاقة ، شكلها الخاص ونتيجتها ويلعب الانعكاس ، الوعي ، دورا نشيطا وخلاقا في علاقته بالوجود الاجتماعي ويؤثر ، الى جانب عوامل أخرى على مختلف العلاقات الاجتماعية ، بما فيها العلاقات الاقتصادية

ان ترابط السبب - النتيجة الموضوعي القائم بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، يجعلنا نعترف بأطروحتي الماركسية القائلتين : ان الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي و الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي كجانبين لا ينفصلان المبدأ الرئيسي في تحليل الحياة الفكرية للمجتمع

٢ - المنظوران المعرفي والسوسيولوجي لبحث الوعي الاجتماعي

الوعي الاجتماعي هو ظاهرة معقدة ومركبة من ظواهر الحياة الاجتماعية وليس بوسع المرء دراستها على مستوى واحد وتحت صورة واحدة من أجل كشف بنيتها الفعلية ، كما لا يستطيع المرء دراسة المكان من خلال التركيز على بعد واحد من أبعاده وتعتبر معالجة هذه الظاهرة ودراستها من وجوه مختلفة مبدأ منهجيا هاما نظرا لتنوع روابطها وعلاقاتها مع غيرها من الظواهر كموضوع الانعكاس والظروف الاجتماعية التي يحدث الانعكاس في ظلها والشروط التاريخية للتعبير عن الوعي ونشاط الوعي نفسه الخ

وبحث الوعي الاجتماعي من وجوه مختلفة هو امر نسا تاريخيا فالوجوه المختلفة للوعي التي يعرفها العلم المعاصر لم تتميز بأي حال دفعة واحدة بل تكونت في سياق نمو تاريخي وقد وجد مبدأ البحث المتعدد الجوانب والمستويات للوعي الاجتماعي تعليله في الماركسية اول الامر اذ لم يكن بوسع الفلاسفة والسوسيولوجيين البرجوازيين تبريره حتى حين كانوا يحسون حاجة فعلية نحو التعاطي مع ظاهرة الوعي الاجتماعي ويقومون بمحاولات لتحقيقها فعليا ولقد بذل السوسيولوجي الفرنسي **دوركهايم** جهودا كبيرة لاستكمال التحليل المعرفي للوعي بتحليل سوسيولوجي لتجاوز خطأ نظريات المعرفة المثالية التي تنظر الى عملية اكتساب المعرفة خارج تبعيتها للمجتمع ويكمن جوهر تصورات دوركهايم في انه يعتبر المفاهيم العامة - بعكس التصورات والاحاسيس الفردية الخ - تصورات جماعية تنتجها الفئات الاجتماعية وترتبط بها ان بين التصورات الفردية والجماعية نفس المسافة التي تفصل ما هو فردي عما هو اجتماعي

يرى دوركهايم ان التعاطي السوسيولوجي مع تحليل الوعي يؤدي الى تجديد نظرية المعرفة من حيث المبدأ يجب على المرء ان يوافق على تقييم هذا التعاطي من الناحية السوسيولوجية غير ان الطريق الخاصة التي يطبق دوركهايم بها المنهج السوسيولوجي لا تؤدي ، برغم ذلك الى اي تجديد لنظرية المعرفة فهو لم يفهم كيف يفصل علم المعرفة عن علم الاجتماع ، وكيف يربط التحليل السوسيولوجي ربطا عضويا مع التحليل

المعرفي ، لانه حاول التصدي لهذه المهمة من مواقع مثالية . لقد تحدث في الواقع عن الاشتراكية الاجتماعية للوعي . وعن تبعية مقولة الوعي الجماعي « للتنظيم القوي للمجتمع ، للبنية الاجتماعية . ولكنه فهم هذه بطريقة ميكانيكية كبنية نابعة من علاقة الزمان - بالمكان . وحسب مفهومه تعتبر الافكار اساس تطور المجتمع ومؤسساته . وتوجد الظواهر الاجتماعية عبر الافكار ومن الافكار . ومن المفهوم ان مبدا الاشتراكية الاجتماعية للوعي يفقد اساسه الواقعي ، اذا كان الوجود الفعلي للظواهر الاجتماعية مرتبطا بالافكار حقا . في هذه الحالة لن يؤدي تطبيق الطريقة السوسيولوجية في بحث الوعي الى اغناء فعلي لنظرية المعرفة . ويمثل مفهوم دوركهايم مثالا على ان تحقيق الحاجات الناضجة موضوعا للمعرفة العلمية من مواقع خاطئة يعزز فقط انتشار النزعة النسبية في علم الاجتماع البرجوازي . ويصادر دوركهايم مسألة حقيقة التصورات الجماعية من خلال تأكيده على ان أية قناعة أو معتقد يكون مبررا بمجرد انبثاقه من حاجة اجتماعية ومحافظة على التواصل الاجتماعي . ان احتقار مسألة الحقيقة في التحليل السوسيولوجي هي صفة يشترك فيها سائر ممثلي سوسيولوجيا المعرفة

ان محاولة استكمال التحليل المعرفي للوعي بالتحليل السوسيولوجي هو من الصفات المميزة لكل اتجاه سوسيولوجيا المعرفة . ويميزها ايضا انها في العادة تعبر عن وجهة نظر متطرفة في نسبتها . وحين تعمل للخلاص من نزعتها النسبية المفرطة . فانها سرعان ما تستغني عن مقولتها حول اشتراكية الوعي الاجتماعي نفسه . أي عن الوجه السوسيولوجي لبحث الوعي . هكذا يزعم شيلر ان المعرفة الحققة ليست ممكنة الا بتجريدها عن مصالح الفئات الاجتماعية . وعبر مانهايم عن مفهوم قريب من ذلك حين قال . بما ان الفئات الاجتماعية المختلفة تملك طموحات واهداف مختلفة . فان بوسع كل منها اعتبار مفاهيمها الخاصة صحيحة . ومن العبث الجدال حول صحة آراء المجموعات . فالمسألة هي ايجاد الارتباط بين هذا التصريح . ذاك وبين التفكير الجموعي

بحول سوسولوجو المعرفة الرجوازيون مبدا الاشتراكية الاجتماعية لمنتجيات الفعالية المعرفية الى عقبة في وجه المعرفة الموضوعية للحقيقة . اذا كان الوعي مشروطا بالمجتمع ، فانهم يستنتجون انه لا يمكن

ان توجد معرفة موضوعية ، لان كل فئة اجتماعية تترك قيادها لاهدافها ومصالحها وتضع لنفسها بالتالي ، مفهوما متحزبا ومشوها عن الواقع . في الحقيقة لا تشكل كل فئة اجتماعية لنفسها بالضرورة تصورا مشوها عن العالم هذه مسألة تتحدد بطبيعة مصالحها الموضوعية المرتبطة بدورها بالمكان الذي تحتله الفئات الاجتماعية - وفي راسها الطبقات - داخل البنية الاجتماعية للمجتمع عندما تتطابق المصالح الاساسية للطبقات مع السيرة الموضوعية للتاريخ فان مصالحها تتضمن عندئذ المعرفة الصحيحة للواقع ان الاشتراكية الاجتماعية لوعي سائر الطبقات التقدمية لا تعيق معرفة الواقع الموضوعي بل هي تشترطها من هنا نستنتج عدم جواز الوصول الى نتائج سلبية من واقع الاشتراكية الاجتماعية للوعي فقط عندما يراعي المرء الاشتراكية الاجتماعية للوعي ويعتبر الممارسة الاجتماعية مقياسا للحقيقة فانه يصل الى التمييز بين المعرفة الموضوعية والتصورات والمفاهيم الذاتية

ان نكران الحقيقة الموضوعية وامكانه معرفتها هي لحظة سياسية لسوسيولوجيا المعرفة الرقارية . ويؤكد تاريخ هذا الاتحاد السوسولوجي ان استكمال التحليل المعرفي بتحليل سوسيولوجي يقوم على أسس مثالية لا يفيد لا نظرية المعرفة ولا السوسيولوجيا وليس من الممكن على هذا الاساس الخاطيء الدمج العضوي للوحه المعرفي بالوجه السوسيولوجي في بحث الوعي الاجتماعي وليس من فيل الصدق ان غالسه نظريات السوسيولوجيا البرجوازية الحديثة لا تحلل الوعي الاجتماعي على صعيد نظرية المعرفة ، بل تشتت نظريات المعرفة نفسها من الاشتراكية الاحتماعية للوعي انهم لا يدرسون المعرفة كظاهرة اجتماعية

الماركسية فقط تستطيع ان تربط عضويًا بين الوحه المعرفي والسوسيولوجي في تحليل الوعي الاجتماعي وحسب قول لينين فان كارل ماركس وفريدريك انجلز قد اعليا صرح المادية ، حين وضعوا المادية التاريخية ، أي حين وسعا المادية لتشمل معرفة الحياة الاجتماعية . فمن خلال المفهوم المادي التاريخ تلت نظرية المعرفة للمرة الاولى وجهها علميا لقد وضع ماركس وانجلز الممارسة ، أي الفعالية التاريخية للبشر ، في اساس نظرية المعرفة ، وتوصلا عبر ذلك الى حل علمي للمسائل الرئيسية لنظرية المعرفة ، مثل مسألة موضوع المعرفة ومسألة مناهج المعرفة ، ومسألة الحقيقة والمقاييس الموضوعية للحقيقة . ان المادية ،

كما طبقها كلاسيكيا الماركسية على المعرفة ، تبقى واقفة باستمرار على أرض التاريخ ، فهي لا تفسر الممارسة بالفكرة ، بل تفسر التشكيلات الفكرية بالممارسة المادية

لقد مكّن خلق المادية التاريخية من دراسة الوعي الاجتماعي ليس فقط على صعيد نظرية المعرفة بل وعلى الصعيد السوسيولوجي ويمكن انجاز ماركس وانجلز في انهما فسرا علميا الطبيعة الاجتماعية للوعي ، واطهرا ارتباط الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي وعلا الاستقلال النسبي لتطور الوعي ودوره الفعال في الحياة الاجتماعية كما تكمن في تأكيدهما على الوجه السوسيولوجي لهذه المسائل وقد حلل ماركس وانجلز الايديولوجية وأشكالها من منظور سوسيولوجي بصورة رئيسية

اشار لينين الى أهمية تحليل الايديولوجية وأشكالها من منظوري نظرية المعرفة والسوسيولوجيا وان ملاحظاته حول ضرورة كشف الجذور المعرفية والسوسيولوجية للدين وحول الجذور المعرفية والاجتماعية لعمليات المعرفة معروفة للجميع وكان لينين يعتقد ان تحليل الظواهر الفكرية فقط من منظور نظرية المعرفة او فقط من المنظور الاجتماعي لن يكون كافيا ولهذا قام بدمج هذين المنظورين ان مراعاة المنظورين المعرفي والاجتماعي لدى بحث الوعي الاجتماعي هو امر يحتمه جوهر الفلسفة الماركسية التي تمثل وحدة المادية التاريخية والجدلية ان بعض العلماء الذين يشتغلون بدراسة الوعي الاجتماعي ننكرون هذين الوجهين في تحليله وقد وصف ايجينيتشانيان الفصل بين الوجه المعرفي والسوسيولوجي بأنه مفتعل وقال ان وجهة النظر التي تدعّر في مجال الفلسفة الى دراسة الوعي من منظوري نظرية المعرفة والسوسيولوجيا، هي وجهة نظر خاطئة

ويرر ايجينيتشانيان وجهة نظره بأنه يوجد في واقع الحال سوى وجه واحد درس المادة التاريخية والجدلية الوعي الاجتماعي من خلاله ، ألا وهو الوجه المعرفي ان المادية التاريخية تتميز عن المادية الجدلية بوصفها علما متفردا يملك نظرية المعرفة الخاصة به او دياكتيك المعرفة السوسيولوجية ان ايجينيتشانيان يفصل اذن «المعرفة السوسيولوجية» عن المعرفة الفلسفية ، ونظرية معرفة المادة الجدلية عن نظرية معرفة المادة التاريخية (او دياكتيك المعرفة السوسيولوجية) التي يكلّفها بمهام نظرية معرفية خاصة

ان محاولات فصل نظرية معرفة للمادية التاريخية عن نظرية معرفة للمادية الجدلية قد وجدت في السابق ويبدو لنا ان بحث الوعي الاجتماعي ليس ممكنا عن طريق فرز نظرية معرفة خاصة داخل المادية التاريخية فالمادية التاريخية والجدلية تمثل نظرة متماسكة للعالم وليس لهما سوى نظرية معرفة واحدة وليس بحث الوعي الاجتماعي في المادية التاريخية عادة ، ودراسة نظرية المعرفة في المادية الجدلية بمبرر كاف لوضع نظرية معرفة خاصة بالمادية التاريخية لان النظرية التاريخية - المادية في المعرفة الاجتماعية هي جزء من نظرية المعرفة وبهذه الصفة فهي تبحث على الصعيدين المعرفي والسوسيولوجي وهذا الاخير يمثل استكمالا ضروريا للاول

اما مسألة الصعيد الذي يجب دراسة الوعي الاجتماعي عليه فهي ترتبط بالمهمات التي تكون معطاة في كل مرة ففي بعض المسائل يجب على المرء استخدام كليهما لانهما لا يستثنيان بل يكملان بعضهما ويشترط احدهما الآخر ولا مجال للخوف من ان تعني دراسة الوعي الاجتماعي على الصعيد المعرفي ادخلا لمشاكل الانعكاس والمعرفة في التحليل السوسيولوجي او ان تعني دراسته على الصعيد السوسيولوجي استغناء عن تأمل الوعي الاجتماعي كانعكاس للعلاقات والمصالح المادية في رؤوس البشر هذه المخاوف لا اساس في المفهوم الجدلي - المادي للمعرفة

ومع ذلك فان المفهوم الجدلي المادي للمعرفة لا يترك متممرا بذلك عن النزعة النسبية خصائص المنظور المعرفي والسوسيولوجي في بحث الوعي الاجتماعي والمنظور المعرفي يتضمن قبل كل شيء تحليلا لروابط وعلاقات الوعي الاجتماعي مع موضوع الانعكاس اي انه يتضمن شرحا لكيفية تحقق عملية التعرف الاجتماعي واين تكمن خصوصية اشكاله في تبعيتها لطريقه الانعكاس وكيف يمكن الوصول الى المعرفة الحقيقية الخ هذا المنظور المعرفي هو بحث المسائل الاساسية لنظرية المعرفة ، مطبقة على عملية التعرف الاجتماعي

ويمثل الوجه السوسيولوجي تحليلا للوعي الاجتماعي الذي يحتل مكانا معينا في النظام الاجتماعي ، ويحقق ادوارا خاصة في حياة المجتمع. وهو يقدم الامكانية لبحث الروابط والعلاقات الجديدة للوعي الاجتماعي ، ولكن لينين يقول « ان وعي البشر لا يعكس فقط العالم الموضوعي ، بل

هو يخلقه أيضا » ان الدور الفعال والخلق الوعي يبدو ايضا عبر التحليل السوسيولوجي الذي ينظر عبره الى الوعي في ارتباطه بالفعالية الاجتماعية للبشر

ان تحليل الوعي الاجتماعي في المنظور السوسيولوجي لا يمكننا فقط من اكتشاف الدور الفعال للوعي ، بل يمكننا ايضا من تحديد محتواه بصورة افضل بان يفسر ارتباطه بالطبقات والمجموعات البشرية الاخرى التي تنعكس الحقيقة من خلال مصالحها وحاجاتها بصورة جزئية ان التحليل السوسيولوجي يمكننا من تفسير ارتباط بنية الوعي الاجتماعي بتنظيم المجتمع نفسه وهو يعمق تصورنا حول الوعي الاجتماعي ، وحول خصوصيات تكوينه وعمله

وينتج المنظور المعرفي والسوسيولوجي في البحث من التأثير المتبادل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ومن ان الوعي يعكس الوجود بينما يحدد الوجود الوعي ومن خلال التأثير الفعال للوعي على حياة البشر

يمكننا المنظور المعرفي قبل كل شيء من كشف حركة الواقع حيال الوعي وأصل الافكار والتصورات وبمعكس ذلك يعرفنا المنظور السوسيولوجي على الانتقال من الوعي الى الواقع ، وعلى تحقق الافكار والتصورات في الحياة الاجتماعية

يؤكد تاريخ العلم ان المنظورين المعرفي والسوسيولوجي في بحث الحياة الفكرية للمجتمع مبرران تماما وقد درست الادبيات الماركسية منذ وقت طويل الوعي الاجتماعي في هذين المنظورين وعلى سبيل المثال فان ثمة علاقة بين خصوصية اشكال الوعي الاجتماعي حيال موضوع الانعكاس وطرائق الانعكاس (المنظور المعرفي) ، وحيال دورهما في حياة المجتمع ومحتوى تلك الحاجة الاجتماعية التي يدين كل واحد من هذه الاشكال بوجوده الفعلي لها (المنظور السوسيولوجي) بيد ان مسألة فصل وربط منظوري دراسة الوعي الاجتماعي ، لم تختف حتى الآن من البحث بل اكتسبت الآن حدة معينة لان الوعي الاجتماعي يبحث بالدرجة الاولى على صعيد معرفي وهذا يعيق عملية معرفة شاملة لهذه الظاهرة ان المنظور السوسيولوجي لا يستغل الا بصورة جزئية في الدراسة

ويعبر الاهتمام الجزئي بالمنظور السوسيولوجي عن نفسه في الاقلال

من قيمة التعاطي التاريخي - الشخص مع تحليل بنية الوعي الاجتماعي ان المنظورين ، المعرفي والسوسيولوجي ، يؤديان الى نتائج ايجابية ، فقط حين يستخدمان بصورة تاريخية - مشخصة لنعط مثالا على ذلك من اجل النضال ضد مخلفات الماضي في وعي وسلوك البشر ، لا يفيدنا كثيرا معرفة ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي بأشكال خاصة وعلى اصعدة مختلفة ، وانه يتطور بصورة مستقلة عنه او متصلة به نسبيا هنا يجب على المرء ان يعرف الاسباب المحددة بدقة لوجود هذه المخلفات في المجتمع المعني ، ويجب ان يملك تصورا مشخصا حول الوعي السائد اجتماعيا ، وحول اوضاعه واتجاهات تطوره الح للحصول على هذه المعرفة يجب القيام بخطوة من المحرد الى الشخص في معرفة الوعي الاجتماعي هذا ممكن فقط عن طريق بحث الوعي الاجتماعي بطريقة تاريخية - مشخصة

اولا يعني البحث التاريخي - الشخص لدى دراسة الوعي الاجتماعي من منظور سوسيولوجي ان وعي مجتمع معين لا يمكن ان يحلل الا بالارتباط مع الانتاج المادي والفكري الخاص به ومع السية الاجتماعية المطابقة له ويتحدد الانتاج الفكري بالانماح المادي الذي يحتمل باختلاف التشكيلات الاجتماعية كتب كارل ماركس ما يلي

« لكي نتأمل الرابط بين الانماح الفكري والمادي ، يجب قبل كل شيء ان لا ننظر الى الانماح المادي نفسه بصفته مقولة عاممة ، بل يجب ضبطه في صيغه تاريخيه متعددة هكذا يتطابق مثلا مع طريقه الانماح الراسمالية شكل من الانماح الفكري بخلاف عن الانماح الفكري لطريقه انماح العصور الوسطى فاذا لم نفهم الانماح المادي نفسه في صيغه التاريخية الخاصة فانه يصيح من غير الممكن فهم ما بعد الانماح الفكري المطابق له ، والتاثير المتبادل بينهما » (٢٧)

ثانيا لدى البحث يعني نحن نفهم الوعي الاجتماعي كنتاج لجملة الظروف المؤثرة في شؤنه وتطوره فالى جانب الوسط الاجتماعي بانتاجه المادي كعامل محدد يؤثر في الوعي الاجتماعي ايضا الوسطان الطبيعي والتاريخي كتب بليخانوف حول هذا الاخير ما يلي

« بما ان كل مجتمع يقع تحت تاثير جيرانه ، فانه من الممكن القول ان لكل مجتمع وسطا تاريخيا اجتماعيا ما يؤثر في تطوره ان نفوذ الوسط التاريخي ، المحيط بمجتمع ما ، يعبر عن نفسه بالطبع في تطور ايدولوجيته » (٢٨) .

ثالثا يتطلب البحث التاريخي - الشخص مراعاة القوانين العامة للتأثير المتبادل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، والاستقلالية النسبية للوعي الاجتماعي واستمرارية تطوره الخ وقد اشار بليخانوف بالكلمات التالية الى هذا الجانب من المعرفة التاريخية - الشخصية

« لفهم « حالة الامعة » في كل عصر صعب ، ومن أجل تفسير اسباب سيادة هذه التعاليم وليس غيرها في عصر ما ، يجب على المرء ان يتعرف على « حالة الامعة » في العصر السابق ، وان يعرف التعاليم والاتجاهات التي سادت آنذاك . بغير ذلك لن نفهم الحالة الفكرية لعصر ما ، حتى لو تعرفنا على خير وجه على اقتصاده » (٢٩) .

رابعا يؤدي البحث التاريخي - الشخص الى تفسير معتقدات وأوضاع وعي الجماهير الشعبية العريضة أي الى تفسير ذلك الوعي الواقعي الذي يحدد بواعث الفعل لديها ان التعاليم والاتجاهات السائدة في مجتمع ما تعكس وضع الوعي الاجتماعي النظري ، الذي لا يكفي الانطلاق منه لاعطائنا فكره واضحة عن الوعي الجماهيري الحقيقي لذا يجب على المرء ان يحلل الى جانب الوعي النظري (المنظومات الايدولوجية للعلم) تلك الظواهر الفكرية التي تؤثر حقا في الجماهير العريضة عندما تسيطر الافكار حقا على وعي الجماهير فانها تغدو حسب الكلمة الشهيرة لكارل ماركس قوة مادية . ويتطلب البحث التاريخي - المادي السير بالتحليل حتى الكشف عن تلك التكوينات الفكرية التي غدت قناعة للجماهير العريضة تهيمن على حسها وفكرها

ان البحث التاريخي الحازم يوسع امكانات معرفة الظواهر موضوع البحث ويسمح المنظور المعرفي بدراسة الوعي الاجتماعي كانعكاس مجرد عن الظروف الاجتماعية التي تحقق في ظلها بهذا المعنى يمكن القول ان الظاهرة موضوع البحث تدرس من هذا المنظور لذاتها « وفي المنظور السوسيولوجي يدرس الوعي الاجتماعي كظاهرة خاصة للحياة الاجتماعية التي تحدد بشروط الوجود الاجتماعي المتحقق ، وتلعب دورا فعالا في حياة البشر ويقود البحث التاريخي - الشخص الباحث الى دراسة وعي مجتمع معين يجد نفسه على مستوى محدد من تطوره ذلك يفترض تحليلا شاملا للوعي الاجتماعي في مستوييه المعرفي والسوسيولوجي هذان المنظوران المختلفان يجب ان ينظر اليهما في وحدتهما .

وسنعرض الآن أهمية استخدام منظوري الدراسة في وحدتهما من أجل تحديد الوعي الاجتماعي كظاهرة خاصة للحياة الفكرية للمجتمع ، ولتحليل بنية الوعي الاجتماعي

على الصعيد المعرفي يمكن تعريف الوعي الاجتماعي فقط عن طريق علاقته مع الوجود الاجتماعي سيبدو الوعي الاجتماعي عندئذ كانعكاس للوجود الاجتماعي هذا التحديد يبرز الطبيعة الاجتماعية للوعي وحقيقة انه ينمو من شروط الحياة المادية للبشر وبعكسها ان العمل والعلاقات الاجتماعية التي يقيمها البشر في ساق فعاليتهم واللفة كشكل تعبير وتثبيت لنتائج الفعالية المعرفية حدادان الطبيعة الاجتماعية للوعي

يتم تعريف الوعي الاجتماعي غالبا في المنظور المعرفي وبحل تحت منظورات مختلفة لا وجوها مختلفة تخلق عند تعريف الوعي الاجتماعي بعضيا ذو ان يمكن التمييز فيما بينها غير ان الحاجة الى تحليل شامل تطرح على الباحث دوما مسألة تعريف الوعي الاجتماعي والسبب في ذلك يعود الى ان المنظور المعرفي لا يستطيع الاحاطة الشاملة بحسوس ومحتوى الوعي الاجتماعي من هنا لا يكفي تحديد الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي فقط

يمر المكونات الفكرية بالوعة التنوع وقد وضعت لوصفها مفاهيم محلقة مثل حياة فكرية للمجتمع ثقافة روحية ووعي اجتماعي ووعي فردي وغيرها وتوجد فروق بين هذه المكونات ولكننا تبطل عند دراستها على الصعيد المعرفي لوحده لانها جميعا تمثل على هذا الصعيد انعكاسا للوجود الاجتماعي غير ان الفروق سرعان ما تظهر حين ينتقل التحليل الى المستوى الاجتماعي اي عندما نحسح ضروريا تفسير حوامل هذه الانواع من الوعي ومحتوياتها ودورها في الحياة الاجتماعية الخ

على صعيد العلاقة مع الوجود الاجتماعي لا توجد فروق بين مفاهيم الوعي الاجتماعي و الحياة الفكرية للمجتمع و الثقافة الروحية هذه المفاهيم الثلاثة تستخدم غالبا لاداء المعنى نفسه ان الفروق بين هذه المفاهيم تبدأ بالظهور حين يصل التحليل الى صعيده السوسيولوجي

في الادبيات السوسيولوجية للسنوات الاخيرة تقدم تعريفات لمفاهيم n الحياء الفكرية للمجتمع و الثقافة الروحية و الوعي الفردي .

ذلك يجعل من الممكن ، وبالأستناد الى هذه المفاهيم ، تعريف الوعي الاجتماعي من منظور سوسيولوجي

عند تحديد هذه الظاهرة أو تلك ، من المهم مقارنتها بغيرها من الظواهر المشابهة لها وتدل مقارنة الوعي الاجتماعي مع الحياة الفكرية للمجتمع على عدم تماثل هذين المفهومين فعندما نتحدث عن الحياة الفكرية فإنه لن يكون بوسعنا تجريد انتاجها ، فالى جانب الافكار والتصورات يضم مفهوم الحياة الفكرية للمجتمع « أيضا الانتاج الفكري والعلاقات الفكرية

يتميز المستوى السوسيولوجي للبحث عن المستوى المعرفي في انه يمكننا من كشف تلك الجوانب من الوعي التي نجردها عندما ندرسه كانعكاس للوجود الاجتماعي من المعروف ان كل مجال من العلاقات الفكرية بين البشر مرتبط بعضويا مع افكار ومفاهيم ومشاعر وتصورات وظواهر مماثلة على الصعيد المعرفي لا تلعب هذه المسألة أي دور ، في حين تلعب دورا اوليا على الصعيد السوسيولوجي ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة للانتاج الفكري على الصعيد المعرفي تعبر المسألة الاساسية عن نفسها في ان الوعي الاجتماعي ليس سوى جملة من التصورات والافكار والنظريات... الخ ، بينما تدور المسألة المركزية في الصعيد السوسيولوجي حول انتاج البشر الذين يقيمون بين بعضهم علاقات محددة ، وحول الاشكال (الصيغ) الفكرية لهذا الانتاج وفعالية استخدامها ومن الجلي ان هذا كله يعتبر جزءا من الحياة الفكرية للمجتمع

ان مفهوم « الحياة الفكرية للمجتمع هو المفهوم الاكثر اتساعا لدى تحليل التكوينات الفكرية من منظور سوسيولوجي وهو يتضمن أيضا مفهوم الثقافة الروحية الذي يعني انتاج وتوزيع واستهلاك القيم الفكرية. انه العملية الموحدة لخلق وامتلاك مجمل الفنى الروحي للمجتمع وبينما تدل الثقافة المادية على مستوى السيطرة الفعلية للبشر على الطبيعة ، فان الثقافة الروحية تدل على مدى السيطرة الفكرية على العالم

يملك الوعي الاجتماعي علاقة مباشرة بالثقافة الروحية ويتضح من هذه العلاقة ان الوعي الاجتماعي ليس سوى وجه للثقافة الروحية ولا يتطابق المفهوم لان الثقافة الروحية تتضمن انتاج الافكار والمفاهيم والنظريات الخ وتوزيعها واستهلاكها بل أيضا لان مفهوم الثقافة الروحية « يشمل مجمل القيم الفكرية التي خلقها الانسان في سياق

تاريخه بأكمله بعكس ذلك يحتوي مفهوم الوعي الاجتماعي قبل كل شيء على جملة الافكار والنظرات والتصورات وسواها من التكوينات الفكرية الخاصة بعصر ما ان وعي العصور الماضية ليس متضمنا في الوعي الاجتماعي الاشتراكي ولكنه يوجد في شكل هياكل للثقافة الروحية كالأعمال الادبية والفنية في العادات والتقاليد الخ ان ما هو تقدمي من هذا الارث الفكري يوضع في خدمة الشعب

تتجلى جدلية العلاقة بين الثقافة الروحية والوعي الاجتماعي في ان وعي كل عصر يستند الى المكتسبات الثقافية للماضي ويمتص كثيرا منها ومع تغير مجتمع ما ، فان وعيه لا يختفي دون ترك أي اثر ، بل هو ينتقل من جيل لآخر في شكل هياكل ثقافية مشيئة أفضلها القيم الخالدة للثقافة العالمية

من هذه المقارنة القصيرة للثقافة الروحية مع الوعي الاجتماعي يبرز بوضوح ان الوعي الاجتماعي هو اعادة انتاج البشر للواقع في شكل أفكار وتصورات ونظريات ونظرات في مرحلة معينة من التطور التاريخي وبالارتباط معها في هذا تعبر خصوصيته كظاهرة فكرية عن نفسها بيد ان هذه الخصوصية نسبية فالوعي الاجتماعي ليس سوى وجه من كل أي من الثقافة الروحية ومن المستحيل عرض الوعي الاجتماعي بصورة معزولة خارج الثقافة الروحية والحال ان الافكار والمفاهيم والتصورات وسواها من التكوينات الفكرية تضيء نفسها في اللغة والكتب وغيرها من التجسيديات المادية للثقافة وحين يمتلك البشر منتجات الانتاج الفكري وينهون تسيوها باعادة المحتوى الحبيس فيها الى مستواه الفكري مرة أخرى فانهم يمتلكون ايضا الوعي الاجتماعي

وتبرز خصوصية الوعي الاجتماعي محللة على الصعيد السوسيولوجي، بصورة اكثر وضوحا عند مقارنتها بالوعي الفردي بحسب مصدره يمثل الوعي الفردي ايضا منتجا اجتماعيا من هذه الناحية لا توجد فروق بين الوعي الاجتماعي والفردي غير انهما يمايزان بخصوص حامل كل منهما فالوعي الفردي هو وعي الانسان المتفرد بينما يمثل الوعي الاجتماعي ظاهرة ذات طابع جماهيري وهو حسب جوهره فوق فردي أي انه يشمل معارف وتصورات وآراء يشترك فيها بشر كثيرون لهذا نستطيع عند تحليل الوعي الاجتماعي تجاهل وعي الفرد وفهمه

(الوعي الاجتماعي) بصورة غير شخصية كنتاج لظروف اجتماعية محددة
مثبت في اللغة والاعمال الثقافية

من هو الآن الحامل أو الذات لهذا الوعي فوق الفردي ؟ يزعم أحيانا
انه ليس للوعي الاجتماعي حامل اجتماعي مشخص ويستند المرء في
هذا الزعم الى ماركس الذي كتب في « **بؤس الفلسفة** » ان المرء لا يستطيع
ان يتصور المجتمع بطريقة برودون، أي كشخص يملك موهبة العقل (٣٠)
ولكن هذا الاستشهاد بماركس ليس في محله فماركس يؤكد فقط ان
المجتمع ليس شيئا متميزا عن البشر الذين يكونونه انه نتاج التأثير
المتبادل للبشر ، ووعيه هو حصيلة الفعالية الفكرية لاعضائه على كل حال
فانه لا يمكن أن نستنتج من ذلك عدم وجود حامل للوعي الاجتماعي فهذا
الوعي يرتبط بالافراد ، وهو يتحقق ويتطور من خلالهم فقط ، ولكنه مع
ذلك واقع خاص بالنسبة للوعي الفردي وفي المجتمع الطبقي فان
حامل (الذات) الوعي الاجتماعي هو هذه الطبقات أو تلك أو هذه
المجموعات أو تلك أما في الاشتراكية فان الشعب بكامله هو حامل الوعي
الاجتماعي

و يتميز الوعيان الفردي والاجتماعي بمحتواهما أيضا فالفردي
الواحد محدود بالشروط المشخصة لحياته وفعاليتها وبوسطه الحياتي
المباشر ، ولهذا فهو ليس في وضع يمكنه من الاحاطة بوعيه بالوجود
الاجتماعي الكامل هذا ما تستطيعه فقط الطبقة أو المجتمع بأسره

بالقياس الى الوعي الفردي يعتبر الوعي الاجتماعي كنتاج للفعالية
الفكرية لطبقات كاملة ، ظاهرة فكرية أكثر تنوعا وغنى في محتواها ان
على كل انسان أن يكون من جديد وعيه الفردي ، في حين ينقل الوعي
الاجتماعي من جيل لآخر لهذا السبب يكون الوعي الفردي أضيق من
حيث حجمه ، وأقفر من حيث محتواه من الوعي الاجتماعي

الوعي الاجتماعي هو اذن الاحاطة بالواقع من قبل طبقة محددة
أو فئة اجتماعية أو المجتمع بأسره ، والعلاقة معه

عند تحليل الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي تبرز الذات
العاكسة ذلك لا يقلل بأي حال من ضرورة دراسة الوعي الاجتماعي على
الصعيد المعرفي ، كانهكاش للوجود الاجتماعي بالعكس ان تحديد
الوعي الاجتماعي بحسب ذاته يستكمل فقط تحديده وفق موضوع

الانعكاس هذا الاستكمال هام في نظرنا لانه يسمح بالانتقال من الوصف العام للوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي الى ادراك مكانه ودوره في المجتمع ومن المعروف ان قوة الافكار والآراء والتصورات لا تكمر فيها هي بقدر ما تكمن في حاملها اي أولئك الذين يعتنقونها لتقودهم ان من المهم جدا تحليل الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي مع مراعاة حامله (ذواته

في العصور التاريخية المختلفة يوجد حملة مختلفون للوعي الاجتماعي .
اي ان دور الوعي في حياة البشر لا يبقى هو نفسه ولمعرفة هذا الدور يجب تحليل الانواع او النماذج المختلفة من الوعي الاجتماعي

عند تحليل بنية الوعي الاجتماعي يجب على المرء الانطلاق من تنوع .
ذلك يكشف تنوع عناصره وترابط تأثيرها المتبادل ويمكننا من التوغل اعمق فاعمق في طبيعته

من منظور معرفي تظهر بنية الوعي الاجتماعي مستويين رئيسيين
الوعي اليومي والوعي النظري وينشأ الوعي اليومي من الشروط التطبيقية للحياة الاجتماعية وفيه تعبر حاجات ومطالب البشر اليومية عن نفسها وقد اكد لينين على خصوصيات الوعي اليومي فيما يلي

« ان كل منتج فرد في الاقتصاد العالمي يعي انه يدخل هذا التغير وذلك في تقنية الانتاج . وكل مالك سلع يعي انه يبادل السلع مقابل اخرى ، ولكن المنتجين ومالكي السلع هؤلاء لا يعصون انهم بذلك يغيرون الوجود الاجتماعي » (٢١)

ان وعيهم محدود بالشروط التطبيقية لوجودهم ان الوعي المحدد بالاطار الحياتي اليومي للبشر هو الوعي اليومي

بعكس الوعي اليومي يتجاوز الوعي الاجتماعي النظري اطار ظروف الوجود الفعلي التطبيقي للبشر انه يطمح الى التعبير عن جوهر الظواهر الاجتماعية وعلى سبيل المثال فان المفهوم المادي للتاريخ الذي وضعه ماركس وانجلز هو الوعي الاجتماعي النظري للطبقة العاملة

ويمكن الفارق النوعي بين الوعيين اليومي والنظري في ان الاول يبقى على سطح الظواهر دون ان تصل تعميماته الى عمقها في حين يحاول الثاني التوغل الى جوهر الظواهر ، وكشف قوانين وجودها الفعلي

وتطورها ان الوعي اليومي والوعي النظري يمثلان الى حد ما مستويان او طقتان من الوعي الاجتماعي

هذان المستويان يتمايزان أيضا في نقطة شكلية عن بعضهما ان الوعي اليومي والوعي النظري هما دوما تعميمان بيد ان الثاني هو تعميم من طبيعة أرقى وهو يبدو كمفهوم محدد وكمنظومة مفاهيم بينما لا يشكل الوعي اليومي أي نظام منطقي بل هو مثل جملة خبرات العمل والتصورات والمعارف التقليدية للبشر هذا الوعي يجمع ويصنف الحقائق حسب صفات ظاهرية وقيمية من وجهة نظر الحاجات اليومية للبشر

يوجد الوعي اليومي والوعي النظري في تأثير متبادل دائم وكل نمط من الوعي الاجتماعي يملك علاقة محددة بين مستويي الوعي هذين ويفترض تحليل بنية الوعي الاجتماعي على الصعيد المعرفي تفسير خصوصية هذين المستويين من الوعي كما يفترض تفسير روابطهما وقوانين تأثيرهما المتبادل

من منظور معرفي يبدو الوعي الاجتماعي فضلا عن ذلك كمحصلة لأشكال المعرفة التي تتمايز عن بعضها حسب موضوع وطريقة الانعكاس وتوجد الآن أدبيات كثيرة تصف الوعي السياسي ، والوعي القانوني والوعي الأخلاقي وسواها من أشكال المعرفة الاجتماعية ويمكن القول ان تصور بنية الوعي الاجتماعي قد تكون بالارتباط مع تحليل أشكاله المختلفة.

هل ينتج الآن عن تصور بنية الوعي الاجتماعي تقسيما (تفريعا) للوعي الى أشكاله الخاصة ؟ نعم فهذا التفريع هو امر ضروري بفضل الارتباط بموضوع الانعكاس أي الارتباط بجوانب محددة من الواقع ، والارتباط بطرق الانعكاس التابعة بدورها لطرق المعرفة البشرية تتمايز في المعرفة الاجتماعية أشكال معينة لها صفات خاصة ولعله من غير الضروري البرهنة على ضرورة تحليل بنية الوعي الاجتماعي كنابغ لموضوع وطرق الانعكاس أي على الصعيد المعرفي ان تفرع الوعي الاجتماعي في طبقات ، بحسب عمق (تمامية) الانعكاس ، وفي أشكال موافقة لها ، بحسب موضوع وطرز الانعكاس ، ليس سوى واحدة من بناء ، يمكن ان نسميها بنية ذات طبيعة أولى ، تعبر عن خصوصية الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي. غير ان خصوصية الوعي الاجتماعي لا تستنفذ

نفسها في كونها انعكاس للوجود الاجتماعي. ولهذا فان نيه الوعي لا تقتصر فقط على البنية ذات الطبيعة الاولى

ان الوعي هو وحده انعكاس الواقع والرابطة معه غير ان هاتين اللحظتين لا تعبران عن نفسيهما في كل التكوينات الفكرية بنفس القدر وحسب مياسيتشيف تبرز روابط الانسان الى المرتبة الاولى في الحاجات والعواطف هذه المفاهيم وما يشبهها لها محتوى مشيى بعكسه وعي البشر ويمكن القول فضلا عن ذلك ان محتوى مفاهيم الحاجة و « العاطفة و الاحساس و الاهتمام ليس شيئا خارجيا بل ان الحاجة والعاطفة والاحساس والاهتمام هي أشياء قائمة بذاتها وهي لا تعكس فقط الواقع الموضوعي بل توجد كحياة نفسية كرابطة منصبة على هذا او ذاك من الموضوعات ويوجد في الحاجات والاحاسيس انعكاس ورابطة مع التأكيد على ان العامل الاصيل والمحدد هنا هو الرابطة

وتبدو الامور في الوعي الاجتماعي على هذا المنوال أيضا وعلى سبيل المثال فان عنصر الانعكاس لا يملك الاهمية الاولى لدى تحليل خصوصية الرأي الاجتماعي كأحد مكونات الوعي والحال ان حقائق الحياة الاجتماعية تسبق دوما تكون الرأي الذي تشكل فوقها مثله في ذلك مثل التصورات البشرية عن هذه الحقائق ان الرأي يتكون على أساس آراء وتوجهات معينة للفئات الاجتماعية وتقاليدها وعاداتها الخ لذا فان خصوصية الرأي الاجتماعي لا تكمن في انه انعكاس للواقع هذا شيء مفروغ منه) بل في انها تعبر عن رابطة ، اي جعلها فعالة على أساس مفاهيم وتصورات يملكها البشر سلفا

لدى دراسة بنية الوعي الاجتماعي من منظور معرفي فاننا لا نجد مكانا للرأي الاجتماعي لانه يتكون على صعيدي الوعي اليومي والنظري وهو يبدو في السياسة والاخلاق والفن وسواها من اشكال الوعي الاجتماعي - انه ليس شكلا خاصا للوعي الى جانب هذه الاشكال في هذا المثال يتضح ان تحليل بنية الوعي من منظور معرفي فقط يجب أن تستكمل بتحليل يتم من منظور سوسيولوجي

ان تحليل دور الوعي الاجتماعي في حياة البشر ومعرفة وظائفه التي يحققها ، تمكنا من معرفة بنية أخرى من في هذه الحالة لا يفرع الوعي الاجتماعي حسب موضوع وطرق الانعكاس بل على ضوء الوظائف

الايديولوجية والمعرفية والجمالية وغيرها من الوظائف الاجتماعية التي يحققها هنا تتضح عناصر بنية الوعي الاجتماعي الأخرى والروابط المتبادلة بينها

من منظور معرفي تعتبر الاحاسيس والتصورات والمفاهيم وسواها من التكوينات العاطفية والارادية والعقلانية أكثر العناصر بساطة في بنية الوعي في المنظور السوسيولوجي تتكون هذه العناصر من المعارف والآراء والمعتقدات والضوابط والرموز والقيم كل واحد من هذه العناصر له معنى معين بالنسبة لنشاط البشر وهو يرتبط بالشحنة الاجتماعية التي يحملها فبمساعدة المعارف التي تثبت التصورات حول ظواهر وقوانين العالم الموضوعي، تتحقق الفعالية المتعددة الأشكال للبشر. وتحدث العلاقات المتبادلة للبشر بمساعدة ضوابط اجتماعية تعين حدود الفعالية البشرية بأن تقرر هذا السلوك أو ذاك أو تمنعه وتبدو القيم كأهداف ومثل عليا للبشر وبواسطة القيم يوحد البشر أنفسهم توحيدا عضويا مع حياة المجتمع انها ناظمة لفعالية الانسان الفرد ولنشاط الفئات والطبقات الاجتماعية وهي تحمي ضوابط السلوك ، وتحدد مدى استغلال المعارف في المجتمع ، الى جانب وظائف أخرى تؤديها

وتتفرع افكار وآراء البشر، بحسب تبعيتها للوظائف الاجتماعية التي لها، الى مجالات كبيرة للوعي الاجتماعي وكان المجال الاول الذي نشأ تاريخيا هو السيكولوجية الاجتماعية والايديولوجيا والعلم وهذه التكوينات توجد الى جانب أنواع الوعي الاجتماعي ان أنواع الوعي التي تحقق وظائف معينة ، تشكل هذا أو ذاك من المجالات الخاصة للوعي الاجتماعي.

ويسمح البحث التاريخي - المشخص لبنية الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي باكتشاف مصفوفة كاملة من التكوينات الجديدة التي تسقط في حال دراستها على الصعيد المعرفي ومنها مثلا أوضاع الوعي الاجتماعي وقد نتجت مسألة أوضاع الوعي بالارتباط مع تغير دور الافكار والمفاهيم المشخصة في حياة المجتمع ودلت ممارسة البحث العلمي على ان دور الافكار السياسية والاخلاقية والفنية وغيرها من الافكار لا يمكن ضبطها بدقة عندما تفصل عن مجمل وعي طبقة أو مجتمع ما ، لان هذه الافكار مترابطة بشدة مع بعضها وتؤثر بصورة مشتركة على حياة البشر ان تأثير الافكار الاخلاقية على سلوك البشر يحدث مثلا بالتلازم مع تأثير الافكار السياسية والقانونية والفلسفية وغيرها في حالة كهذه

يطرح نفسه السؤال حول الكيفية التي يحلل المرء بها دور الافكار الاخلاقية وسواها في حياة المجتمع

نحن نعتقد ان دور فكار ومفاهيم محدده يعبر عن نفسه من خلال الازواضع المسخنة للوعي الاجتماعي ان الوعي الاجتماعي اوضاعا محدده وبالتالي فهو يؤثر كمحصلة لسلوك وشايط البشر وهو يكتسب نفوذه من محمل محواده ومن حملة الافكار والتصورات والاحاسيس... الخ.

لنر وضع الوعي الاجتماعي بساطة مجموع الافكار والآراء والتصورات والمشاعر المحددة بل وهو حالة تحتل فيها افكار معينة مركزا مهيمنيا في الوعي وتطبع محواده بأسره بطابعها الخاص ان وعي مجتمع ما طمعه فئة احتماعية تسمى في كل وقت مسبعا بأفكار سياسية وفلسفية اخلاقيه الخ محدده وهو يكتسب بالتالي تماسقا وتوحيا تسوق منه نضا وصاعه المختلفه ان تناسق مكونات الوعي وانصابت على هدف معين تحت تأثير الافكار والتصورات والآراء والمشاعر المهيمنة فيه سكلان خصوصية المميزه لاوزاع الزعمى الاجتماعى

هذه الخصوصية تحصى المكسر بين محتوى الوعي الاجتماعى أى الآ والتصورات مكونات حرة الموحوده فيه وبين تعبيره المشخص وذلك بحسب الافكار والمشاعر التى تهيمن بداحله فى وقت محدد

ان بحث منظومه سبع المفوضرات سى بحث بحث الظاهر المبحوثة نفسها وتعدد روابطها وعلاقاتها مع ظواهر وابع حبرى وكما سبق قلنا فان بنية الوعي الاجتماعى قد درست حتى انما من منظور معرفى أما بخصوص المستوى السوسىولوجى للبحث من هناك امورا كثيرة لا تزال غامضة وهذا يحد ذاته كاف لجمع هذا التحليل السوسىولوجى قضية راهنة

٣ - تبعية بنية الوعي الاجتماعي لانواع فعالية وعلاقات البشر الاجتماعية

قلنا ان بنية الوعي الاجتماعي مشروطة اجتماعيا فكيف نفهم هذه الشرطية الاجتماعية ؟ يعتقد اميل دوركهايم ان هالك تطابقا مباشرا بين تنظيم المجتمع والوعي الجماعي فالبشر يخلقون مفاهيم جماعية بحسب الاشكال التي يأخذها التنظيم الاجتماعي (٣٢)

ويعبر الاقتصادي الالماني فيرنر سومبارت في دراساته عن آراء مماثلة وهو يتبع بصورة مباشرة تطور الفكر الرأسمالي بعناصره الاساسية - الفكر الرأسمالي والبرجوازي الصغير - لتطور الانتاج والاشكال الرئيسية للتنظيم الرأسمالي (٣٣) ويزعم وجود تبعية تامة بين هذه العناصر

بيد ان مفهوم الارتباط المباشر بين بنية الوعي وبنية المجتمع لم يجدا انتشارا واسعا في السوسيولوجيا لانه يسط ويشوه الروابط الفعلية. والحال ان أساس هذا المفهوم يكمن في تفسير الروابط القائمة بين الظواهر المادية والفكرية من وجهة نظر اشتراكية ميكانيكية

ويعمل السوسيولوجيون البرجوازيون المعاصرون لالصاق وجهة نظرهم حول التبعية الاجتماعية المباشرة للوعي بالماركسية ولهذه الغاية فهم يوجهون تقديمهم ضد المادسة التاريخية (٣٤) ويعارضون تفسيرها الجدلي حول تبعية بنية الوعي الاجتماعي للمجتمع بتحليلهم البنيوي - الوظيفي

يدعي التحليل البنيوي - الوظيفي في السوسيولوجيا البرجوازية انه يكشف عن بنية المجتمع احمالا وبالتالي فهو يكشف عن بنية الوعي او الثقافة وعن وظائف المؤسسات الاجتماعية ويبرز هذا التحليل كعناصر رئيسية للبنية الاجتماعية الفرد والنظام الثقافي والنظام الاجتماعي الذي لا يلبث ان يسم بدوره الى مصفوفة من الانظمة الادنى (٣٥) وتدرس هذه الانظمة على الصعيدين البنيوي والديناميكي وتمثل وظائفها صلة الوصل بينهما

لقد برهنت الادبيات الماركسية على التهافت العلمي للتحليل البنيوي - الوظيفي للسوسيولوجيا البرجوازية ويبدو التهافت في عجز

هذا التحليل عن اظهار الروابط والعلاقات الجوهرية في الظواهر الاجتماعية وفي تجاهله لعلاقات الانتاج بصفها الاكثر أهمية والمعينة لغيرها من العلاقات وتنطلق الماركسية من ان الانظمة الاجتماعية المختلفة وعناصرها تملك تأثيرا متادالا بعضها على بعضها وان الاقتصاد هو العامل المعين في هذا التأثير المتبادل هذه الحقيقة ينكرها ممثلو التحليل الوظيفي - السيوي ويظهر رفضهم لها باوضح صوره عند تحليلهم لمظومات الافكار في المجتمع

نعطى تحليل لبنية الافكار مكانا واسعا في سلسلة أعمال السوسيوولوجيين الاميركيين وخاصة بارسون وميرتون (٣٦) وهم يميزون على أساس الوظائف الملازمة لها منظومات أفكار معينة كالنظرة الى العالم والدين والعلم وغيرها ونزعمون ان هذه المظومات مستقلة عن الانظمة الاجتماعية المعاصرة كالنظام الاقتصادي والسياسي مل هذا التناول لبنة الوعي الاجتماعي يريد السوسيوولوجيون البرحوازيون بيعه لنا بوصفه انحازا علميا رفيعا

ان فكره الساول الوظيفي - السيوي من الوعي الاجتماعي ليست ملكيه خاصه فكرية للسوسيوولوجيا البرحوازية المعاصرة وعلى سبيل المثال فقد طرح **بوجدانوف** مسألة الدور الوظيفي للايديولوجيا (٣٧) فكتب.

« عند بحث شكل ايديولوجي ما يجب أن نطرح سؤالاً أساسياً حول العناصر الاجتماعية التي تنظمه وبأية صيغة فقط عندما يوضح المرء هذه المسألة ، يمكن له أن يفهم نشوء وتطور وتشكل الشكل الايديولوجي ويتنبأ علميا بمصيره » (٣٨)

ان فكره التناول الوظيفي - السيوي الوعي الاجتماعي بحد ذاتها لا يمكن ان تشير اي اعراض الذي سير الاعراض هو اعطاء هذا المنتج صفة مطلقة وحله معارضا مع التناول المعرفي للوعي ان الوعي الاجتماعي هو انعكاس للواقع وهو يتحدد في تطوره بالعلاقات الاجتماعية المادية فقط هذا المفهوم للوعي الاجتماعي يمكننا من فهم دور هذا النوع او ذاك في الحياة الاجتماعية ومن المعروف ان بوجدانوف قد مائل ما بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي ومسح في دراسته لانواع الايديولوجيا الفوارق القائمة فيما بينها الى مستوى فوارق في دورها الوظيفي فحسب وانكر المنظور المعرفي لتحليل الوعي الاجتماعي وبنيه.

وهذا ما يدفعنا الى القول ان دراسته البنيوية - الوظيفية متهافة علميا ،
لأنها مفصولة عن المنظور المعرفي

يذهب السوسيولوجيون البرجوازيون المعاصرون ، من أمثال
بارسون وميرتون ، عند اعطاء التناول البنيوي - الوظيفي للوعي الاجتماعي
صفة مطلقة ، الى ابعاد مما ذهب بوجدانوف فقد حاول هذا ، لدى
تقسيمه لتطور الايديولوجيا الاجتماعية الى عصور مختلفة (عصر الثقافات
البدائية ، عصر الثقافات السلطوية عصر الثقافات الفردية وعصر
الثقافات الجماعية) ان يربط تطور الاشكال الايديولوجية بدرجة معينة مع
تطور العلاقات الاجتماعية وأن يلاحق تبعية نشوء وتطور هذه الافكار
او تلك لعلاقات الانتاج أما **بارسون وميرتون** فهما ينكران مثل هذه
التبعية في مفهومهما تنمسخ النزعة الوظيفية الى مجرد تأثير متبادل تبدو
فيه اطراف هذا التأثير ذات قيمة واحدة وهكذا فهما لا ينكران من
حيث المبدأ التأثير المتبادل للنظام الاقتصادي والمنظومات الفكرية بل
يعترضان على حقيقة ان الدور المعين في هذه العلاقة المتبادلة هو
للاقتصاد اي انهما ينكران وجود تفاوت في قيمة طرفي التأثير المتبادل.
بكلمات أخرى ان السوسيولوجيين البرجوازيين يفهمون الارتباطية
الاجتماعية لبنية الوعي الاجتماعي بصورة احادية الجانب الى ابعد حد ،
وبالتالي فانهم يفهمونها بصورة مغلوطة وهم يمسخونها الى ارتباطية
تخص هذه او تلك من المنظومات الفكرية (بوصفها تكوينات فكرية للثقافة
الروحية بالوظيفة الاجتماعية التي تحققها

بعكس السوسيولوجيا البرجوازية فان المادية التاريخية لا تقصر
بحث الاشتراكية الاجتماعية للوعي الاجتماعي وبنيتها على صعيد واحد ،
بل تعالج هذه المسألة من وجوها مختلفة وهي ترى ارتباط الوعي
بالمجتمع في ان الوعي هو قبل كل شيء ، نتاج للانتاج الفكري ، يصنعه
وننتجه بشر لهم روابط معينة ببعضهم

لقد تجاوزت الماركسية الطابع التوفيقى للمادية القديمة ويعبر هذا
عن نفسه في ان الفلسفة الماركسية كشفت **النور الفعال للبشر في انتاج**
الوعي الاجتماعي فالبشر في سياق ممارستهم ينتجون قيما مادية
وفكرية ويتفرع الانتاج بدوره الى انتاج مادي وفكري ويخلق النوع
الثاني من الانتاج التصورات والمفاهيم والنظريات ... الخ ، ويرتبط
مباشرة بالروابط الايديولوجية بين البشر

ولا يفدو الانتاج الفكري ممكنا الا على أساس الانتاج المادي وارتباطه به وكما اكد ماركس و انجلز فان الشكل الرئيسي لنشاط البشر هو «الشكل المادي الذي ترتبط به كل الاشكال الاخرى ، فكرية كانت ام سياسية ام دينية» (٣٩) وتحدد علاقات الانتاج المادي ايضا العلاقات الايدولوجية التي يقيمها البشر خلال عملية الانتاج الفكري التي ليست سوى اشكال او انواع خاصة له (٤٠) في ارتباطه مع الانتاج المادي وعلاقاته

وتتجلى تبعية الانتاج الفكري للانتاج المادي قبل كل شيء في محتوى الوعي الاجتماعي الذي تحدده العلاقات المادية للبشر كتب ماركس وانجلز

« ان انتاج الافكار والتصورات والوعي تنمجم بادى ذي بدء انماجا مباشرا مع النشاط المادي والاتصال المادي للبشر ، وهما لقمة الحياة الواقعية ان التصور والتفكير والاتصال الفكري للبشر تبدو هنا كنتيجة مباشرة لسلوكهم المادي . ويصبح نفس الشيء بالنسبة للانتاج الفكري كما يتمثل في لغة السياسة ، والقوانين ، والاخلاق ، والدين ، والميتافيزيق لشعب من الشعوب » (٤١) .

تاريخيا كان انفصال العمل الفكري عن العمل الجسدي هو الشرط المباشر لنشوء الانتاج الفكري ومع الانفصال عن العمل الجسدي وجد العمل الفكري في الانتاج الفكري الشكل المشخص لوجوده الفعلي حدث هذا في ظروف المجتمع الطبقي في المجتمع البدائي كان الجانبان المادي والفكري لانتاج واعادة انتاج الحياة الاجتماعية وظائف لا تنفصل للمجتمع بأسره اما في المجتمع الطبقي فقد غدا الانتاج المادي والفكري وظائف لفئات اجتماعية ، تجندت في غالب الاحوال من الطبقات المستغلة وانصرفت كل واحدة منها الى ممارسة نشاط فكري ذي طبيعة خاصة بها (٤٢) على كاهل هذه الفئات وقعت مهمة وضع تصورات وآراء سياسية وحقوقية ودينية وفلسفية وغيرها من الافكار والنظريات اي وضع وعي للطبقة السائدة

في تحليل للانتاج غير المادي لاحظ ماركس ان هذا يتجسد من جهة في سلع وقيم استعمالية تملك شكلا مستقلا مختلفا عن المنتج والمستهلك « كالكتب واللوحات ، او باختصار ، كل المنتجات الفنية المختلفة عن الانجاز الفني للفنان المنفذ » (٤٣) . اما الشكل الآخر للانتاج الفكري فهو ذلك

الذي لا يكتسب ناتج الفعالية فيه حياة مستقلة يمكن فصلها عن المنتج نفسه ان الانتاج ليس قابلا للفصل عن فعل الانتاج ، كما هو الحال لدى سائر الفنانين التنفيذيين كالخطباء والممثلين والمعلمين والاطباء والكهنة الخ (٤٤)

ان الارتباط بين الانتاج المادي والفكري الموزع في المجتمع الطبقي على فئات اجتماعية مختلفة يتم من خلال الروابط بين الطبقات ان الطبقة التي تتصرف بوسائل الانتاج المادي تسيطر في نفس الوقت على وسائل الانتاج الفكري ، بحيث تخضع لها في نفس الوقت ، وسطيا ، افكار اولئك الذين نزعتم منهم وسائل الانتاج الفكري (٤٥) هكذا يدل الارتباط المتحقق بين الانتاج المادي والفكري - تبعية الثاني للاول - على الاشتراكية الاجتماعية للوعي الاجتماعي كتب هاركنس :

« من الشكل المحدد للانتاج المادي ينتج ترتيب محدد للمجتمع ، اولاً ، وعلاقة محددة للبشر مع الطبيعة ثانياً ان دولة البشر ونظرتهم الفكرية يتحددان بهذين العاملين ، وبالتالي تتحدد ايضا طريقة انتاجهم الفكري » (٤٦) .

بالاستناد الى هذه المقولة يمكننا بحث مسألة التناول الشخص لتحليل الاشتراكية الاجتماعية لبنية الوعي الاجتماعي

في اصل تمايز الوعي الاجتماعي كان انقسام العمل الى مادي وفكري ان تقسيم العمل هو ذلك العنصر الاجتماعي البالغ الاهمية الذي يمكننا تحليله من الوصول الى فهم صحيح لبنية الوعي الاجتماعي وتاريخيا برزت انواع ومجالات للوعي الاجتماعي بقدر ما نشأت حاجات اجتماعية محددة ، وبقدر ما ظهرت فروع خاصة للانتاج الفكري انشغلت مجموعات بشرية معينة بها قال انجلز :

« ان المجتمع ينتج وظائف مشتركة معينة لا يستطيع الاستغناء عنها والناس الذين يمينون لهذه الوظائف يشكلون فرعاً جديداً لتقسيم العمل داخل المجتمع » (٤٧)

وهو يجسد هذه الفكرة بمثال الحقوق

« فما أن يصبح تقسيم العمل الجديد ضرورياً ، ويخلق رجسالات القانون المحترفين ، حتى تفتتح منطقة مستقلة جديدة ... » (٤٨) .

ان النشاط في مجال الحقوق - شأنه في ذلك شأن المجالات الدينية والفنية والعلمية الخ - كَوْنُ الاساس لنشوء تكوينات بنوية مناسبة للوعي الاجتماعي لذا يجب على المرء ان يفتش عن اسباب بروز تكوينات فكرية محددة ، قبل كل شيء في الحاجات الاجتماعية للبشر وفي انواع النشاط المناسبة الموجية الى ارضاء هذه الحاجات هكذا نشأ الوعي الحقوقي كنوع خاص من الوعي الاجتماعي عبر حاجة اجتماعية للمجتمع الطبيعي وعبر ضروره تنظيم العلاقات الاجتماعية قانونيا دون هذه الحاجة لما نشأت الحقوق ولا الوعي الحقوقي الذي ارتبط بشوء الملكية الخاصة لوسائل الاناج وتقسيم المجتمع الى طبقات ويمكن جوهر الحقوق في ان الطبقة السائدة ارادت تثبيت سلطتها السياسية والاقتصادية الفعلية قانونيا وفرض ارادتها كشيء ملزم لسائر أعضاء المجتمع فأخذت هذه صورة معايير قانونية تضعها الدولة وتحافظ عليها بقوة سلطتها وتوضع المعايير القانونية بالتطابق مع الوعي الحقوقي للطبقة السائدة لذا فان الحاجة للمعايير هي في نفس الوقت حاحة الى وعي قانوني تتمثل فيه جملة النظرات والافكار والتصورات حول القانون وتقييمه والوعي القانوني يعبر عن نفسه في فكر المعيار القانوني وفي القانون نفسه وهو يؤثر على تطبيق القانون اي على تفسيره وعلى تحديد العقوبة

من المهم جدا اخذ تاثير تقسيم العمل على الوعي الاجتماعي بعين الاعتبار ولكن ذلك لوحده لا يكفي وعندما نقصر انفسنا على الانواع المختلفة للنشاط الفكري فاننا نكون تصورا عن بنية الوعي الاجتماعي من رحية نظر انتاجه فقط اي بالقياس الى نتائج انواع معينة من النشاط الفكري وذلك سينتج بنية ثابتة للوعي الاجتماعي بيد ان الوعي ينتج من اجل ان ينتشر بين الجماهير ويتحقق في الروابط الواقعية بين البشر. في سياق عملية امتلاكه من قبل الجماهير وتحققه في العلاقات الواقعية فان الوعي الاجتماعي يتبدل تبدا كبيرا في محتواه وبيته وليست كل الافكار المتطورة قادرة على التجسد في روابط واقعية فضلا عن ان الافكار تؤثر ببعضها وتتداخل في سياق اندماجها الفعال بالحياة الاجتماعية وتتجلى نتيجة ذلك في بنية بالغة الديناميكية للوعي تتميز عن البنى الثابتة في نواح كثيرة من هنا فان التصور الاكثر شمولا لبنية الوعي الاجتماعي لا يمكن انشاؤه الا عبر تحليل ضاف لبنية العلاقات الاجتماعية (٤٩) .

يتموضع الوعي الاجتماعي في علاقات اجتماعية والمثال الشخص على ذلك هي العلاقات الايدولوجية يمكن للمرء أن يستنتج من العلاقات السياسية والاخلاقية وسواها من العلاقات الايدولوجية الافكار والنظرات التي تتحقق بها بكلمات أخرى يمكن الى حد معين ، استنتاج بنية الوعي الاجتماعي من بنية العلاقات الاجتماعية

هذا المبدأ في تناول تحليل بنية الوعي الاجتماعي يمكننا من فهم مكان تكوينات مثل الوعي الطبقي والقومي والفئوي داخل بنية الوعي هذه التكوينات الفكرية هي أشكال تعبير وتحقق الروابط الطبقية والقومية والفئوية ويمكن للمرء أن يستنتج من طبيعة وغنى العلاقات الواقعية محتوى وبنية وعي فئات اجتماعية ومجموعات بشرية محددة

وتعتبر تبعية بنية الوعي الاجتماعي للعلاقات الاجتماعية عن نفسها في مصالح البشر ، اذ ان الروابط بين البشر تظهر كروابط بين مصالح (٥٠) وتتكون مصالح طبقة ما على أساس وضعها الموضوعي داخل المجتمع ومستوى حاجاتها المستقلة في وجودها عن وعي أعضاء وممثلي هذه الطبقة ، اي المتحققة موضوعيا . ان منطق تطور طبقة ما يحتم وعي اعضائها لمصالحهم عاجلا أم آجلا بصورة صحيحة او غير صحيحة وضرورة الوعي هذه تنشأ في سياق النشاط الفعلي للطبقة ، وفي سياق علاقاتها الواقعية مع غيرها من الطبقات وتغدو المصالح التي تم وعيها، وتجسدت في افكار ومفاهيم محددة قوى دفع فكري لنشاط أعضاء الطبقة وروابطهم الواقعية

ليس فقط الروابط الاقتصادية ، بل سائر الروابط الاجتماعية تبدو كعلاقات مصالح ان تحليل العلاقات الاجتماعية هو في نفس الوقت تحليل لعلاقات المصالح المتبادلة بين الطبقات وسواها من الفئات الاجتماعية، وبين المجتمع والفرد الخ ، وهي ايضا تحليل لمحتواها الموضوعي ولوعياها في رؤوس البشر

وبما ان نظام الفعالية الناشئ في المجتمع والعلاقات الاجتماعية هما الاساس الواقعي لوجود التكوينات الفكرية ، فان بوسع المرء أن يعتبر تفسير بنية الوعي ، بالارتباط مع تحليل انواع الفعالية البشرية وعلاقاتها الاجتماعية ، مبدأ منهجيا هاما للفلسفة الماركسية .

مراجع الفصل الاول

- ١ - كارل ماركس « حول نقد الاقتصاد السياسي » في الاعمال الكاملة لماركس وانجلز . الجزء ١٣ ، برلين ١٩٦١ ، صفحة ٩
- ٢ - ف. فوندت أسس علم النفس الفيزيولوجي الجزء الثالث ، لايبزيغ ١٨٧٤
- ٣ - كارل مانهايم الايديولوجيا واليوتوبيا الطبعة الرابعة ، فرانكفورت على الماين ١٩٦٥ ، صفحة ٢٢٧
- ٤ - ماكس شيلر الاعمال الكاملة ، الجزء الثامن ، الطبعة الثانية برن - ميونيخ ١٩٦٠ ، صفحة ١٧
- ٥ - ر. ميرتون النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية جليנקو ١٩٥٧ ، صفحة ٤٦ وما يليها
- ٦ - شيلر نفس المصدر
- ٧ - لدى شيلر ، ينمو الطموح نحو المعرفة من « دافع فطري » ليس حصرا بالانسان فقط ، بل تملكه أيضا سائر الفقاريات ، وخاصة القردة نفس المصدر
- ٨ - شيلتبيخ نظرية المعرفة لدى ماركس فيبر توينجن ١٩٢٤ ، صفحة ٨٦
- ٩ - ج. ماكيه سوسيولوجيا المعرفة بوسطن ١٩٥١
- ١٠ - مانهايم ، المصدر السابق ، صفحة ٢٧ وما يليها
- ١١ - ميرتون ، المصدر السابق ، صفحة ٤٦٢
- ١٢ - سوروكين الديناميكية الاجتماعية والثقافية أربعة أجزاء ، ١٩٣٧ - ١٩٤١
- ١٣ - ج. كاك المادة التاريخية موسكو ١٩٦٠ ، صفحة ٥٩ وما يليها
- ١٤ - ل. اكسلرود قضايا الفلسفة ، الجزء الرابع ، موسكو - لينينغراد ١٩٢٥ ، صفحة ١٦٤
- ١٥ - كارل ماركس - فريدريك انجلز الايديولوجيا الالمانية الاعمال الكاملة الجزء الثالث ، برلين ١٩٥٨ ، صفحة ٢٦
- ١٦ - نفس المرجع
- ١٧ - اكسلرود ، نفس المرجع
- ١٨ - توجارينوف مجلة الفلسفة ، ١٩٥٨ ، العدد الاول ، صفحة ٢٥
- ١٩ - توجارينوف : نفس المرجع
- ٢٠ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية صفحة ٢٦ و ٢١ و ٤٤
- ٢١ - كيله - كوخالسون : الفلسفة الماركسية موسكو ١٩٦٢ ، صفحة ٥٣
- ٢٢ - بوبوف القضايا الاجتماعية صوفيا ١٩٦٤ ، صفحة ١٠٩ وما يليها
- ٢٣ - لينين الماركسية والذهب النقدي التجريبي ملاحظات نقدية حول فلسفة رجعية . الاعمال ، الجزء ١٤ ، برلين ١٩٦٢ ، صفحة ٣٢٨ وما يليها .
- ٢٤ - قضايا الفلسفة . ١٩٥٨ ، العدد ١ ، صفحة ٢١

- ٢٥ - ج. كاله علم الإدراك الاجتماعي . موسكو ١٩٦٠ ، صفحة ٥٩
- ٢٦ - يقدم بوبوف شرحاً هامة حول مسألة الترابط بين الوجود والوعي . يكتب انه يوجد في العلاقة بين الوجود والوعي الاجتماعيين « نوعان من الروابط السببية »
« للاولى منهما طبيعة معرفية اذ تملك اشكال الوعي الاجتماعي دلالة معرفية
بقدر ما هي انعكاس ذاتي للوجود الاجتماعي الموضوعي . بهذا المعنى يمكن القول ان محتواها ، الذي هو انعكاس للجوانب المختلفة للوجود الاجتماعي ، يتعين بهذه الجوانب الرابطة السببية الثانية تصف الاشتراطية الاجتماعية للوعي الاجتماعي من خلال الوعي الاجتماعي هذا يفسر لماذا تفسر الطبقات المختلفة الاحداث نفسها تفسيراً مختلفاً هنا تنشأ علاقة سببية ، لان الجوانب المعينة للوجود الاجتماعي تقرر طريقة مطابقة لها في الفهم . وهنا أيضاً يوجد انعكاس ، ولكنه لا يملك طبيعة معرفية » (بوبوف صفحة ١٤٠ - المرجع السابق)
- ٢٧ - كارل ماركس نظريات حول القيمة الزائدة في ماركس وانجلز - المؤلفات - الجزء ٢٦ ، برلين ١٩٦٥ ، صفحة ٢٥٦
- ٢٨ - بليخانوف حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ ، برلين ١٩٥٦ ، صفحة ٢٠٦
- ٢٩ - نفس المصدر ، ص ٢١٥
- ٣٠ - كارل ماركس : « يؤس الفلسفة » فريدريك انجلز : « الاعمال » - الجزء الرابع - برلين ١٩٥٩ ، صفحة ١١٥
- ٣١ - لينين : المادة ونقد المذهب التجريبي . صفحة ٣٢٨
- ٣٢ - المقولات تعبر قبل كل شيء عن هذه او تلك من اوضاع التنظيم الجماعي . وهي ترتبط بتركيب الجماعات ونمط تنظيمهم ، باشكال وجودها ومؤسساتها « تتكون الافكار حول الزمان ، المكان ، النوع ، والسبب من عناصر اجتماعية »
اميل دوركايم : السوسيولوجيا ونظرية المعرفة ، صفحة ٣٧ - ٤٢ وما يليها
- ٣٩ - فيرنر سومبارت : البرجوازي ، حول التاريخ الفكري للانسان الاقتصادي المعاصر ميونيخ - لايبزيغ ١٩٢٠
- ٣٤ - يزعم السوسيولوجيون الاميريكيون ان دراسة ماركس « للروابط بين منظومات الافكار في المجتمع وعلاقات الانتاج الاجتماعي » ليست واضحة . تابع السوسيولوجيا ، مشاكل وآفاق ، صفحة ٢٣٧
- ٣٥ - ت. بارسون : مسائل نظرية عامة للسوسيولوجيا نيويورك ١٩٦٥
- ٣٦ - يركز بارسون وميرتون اهتمامهما على « التحليل السوسيولوجي » لنظم الافكار في المجتمع ، وهما يحاولان التذليل ، نظرياً وتجريبياً ، على ان نظم الافكار ، بما فيها العلم ، هي مكونات مستقلة وظيفياً للمجتمع ، ومستقلة عن سواها من العناصر الوظيفية كالبنى الاقتصادية والسياسية
- ٣٧ - الايديولوجيا هي « اداة تنظيمية » للمجتمع ، للانتاج ، للطبقات ، ولسائر القوى والعناصر الاجتماعية . انها اداة يستحيل تنظيم المجتمع بدونها (بوجدانوف)
- ٣٨ - نفس المصدر .
- ٣٩ - كارل ماركس - فريدريك انجلز الايديولوجيا الالمانية . صفحة ٧١ .

٤. - الحقوق ، الاخلاق ، الدين والفن ليست بالنسبة لماركس سوى « طرز خاصة فقط للاحتياج ، وهي تخضع لقانونه العام » ماركس ، المسودات الاقتصادية الفلسفية ماركس - انجلز ، الاعمال ، جزء مكمل ، القسم الاول ، برلين ١٩٦٨ ، صفحة ٥٣٧
- ٥١ - ماركس - انجلز : الايديولوجيا الالمانية صفحة ٢٦
- ٥٢ - أول هذه الفئات هي حسب ماركس الكهنة نفس المصدر ، الهامش ، صفحة ١
- ٥٣ - ماركس نظريات حول فائض القيمة ص ٢٨٥
- ٥٤ - نفس المرجع ، صفحة ٢٨٦
- ٥٥ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية صفحة ٤٦
- ٥٦ - ماركس : نظريات حول فائض القيمة صفحة ٢٥٧
- ٥٧ - انجلز رسالة الى كونراد شميدت ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠ في الاعمال ، الجزء ٣٧ ، برلين ١٩٦٧ ، صفحة ٤٩٠
- ٥٨ - نفس المرجع ، صفحة ٤٩١
- ٥٩ - أشار كل من لابرولا وبلخانوف الى تبعية بنية الوعي الاجتماعي لبنية المجتمع وللحلاقات الاجتماعية كتب بلخانوف « عند تفسير سيكولوجية مجتمع أو طبقة ما تتوجه المادة الى البنية الاجتماعية التي خلقها التطور الاقتصادي »
- ٥٠ - كتب انجلز « تتجلى العلاقات الاقتصادية لمجتمع ما في البداية كمصالح » انجلز حول مسألة المساكن في ماركس - انجلز الاعمال ، الجزء ١٨ ، برلين ١٩٦٢ صفحة ٢٧٤

الفصل الثاني

انواع الوعي الاجتماعي

١ - مفاهيم « شكل » و « نوع » الوعي الاجتماعي

يرتبط تصور بنية الوعي الاجتماعي عادة بأشكاله وينطلق معظم المؤلفين الذين يدرسون الحياة الفكرية للمجتمع من ان الوعي الاجتماعي يتحقق ، ويعبر عن نفسه ، في أشكال مختلفة وهم يعتبرون ذلك بدهية لا مجال للنقاش حولها ولا يسألون عما يعنيه مفهوم أشكال الوعي الاجتماعي أصلا. وقد اعتاد قراء الأدبيات الفلسفية على استخدام مصطلح شكل الوعي ، الى درجة بدا معها السؤال حول معنى هذا المصطلح تره لا معنى لها ومع ذلك فان الاجابة على مثل هذا السؤال هي في الحقيقة صعبة جدا بسبب انفلاش المفهوم نفسه

في الاصل عبرت مقولة شكل الوعي الاجتماعي فقط عن حقيقة ان للوعي الاجتماعي بنية خاصة به. ومثل هذا الاستخدام في « الايديولوجيا الالمانية » من قبل ماركس وانلز كان محقا تماما. فيما بعد استخدمت هذه المقولة ، وبالدرجة التي بلغها اكتشاف بنية الوعي الاجتماعي ، لوصف محتوى التكوينات الفكرية المشخصة من جهة ، وطرق انعكاس الواقع الخاصة وتموضع ما هو فكري في أعمال ثقافية من جهة اخرى ففقدت تحددها وبدأ بتجنب مسألة أين يكمن محتواها

غير أن تمة حاجة لتحديد معنى المفاهيم التي تعبر عن بنية الوعي الاجتماعي هذا أمر يتطلبه تطور العلم نفسه ، وواقع البحث الاجتماعي المشخص حول الحياة الفكرية للمجتمع وفي السنوات الاخيرة تمت محاولات لتحديد مفهوم شكل الوعي الاجتماعي وبالتالي للتغلب على الانفلاش القائم

وحدث تحديد المفهوم قبل كل شيء من خلال تضيق حجمه فانقد التفسير المطاط لمقولة شكل الوعي التي تضم الى جانب التكوينات الفكرية علاقات البشر أيضا ان مثل هذا التفسير كان منتشرا في عشرينات وثلاثينات هذا القرن (١) وفي العقود اللاحقة بدأ المرء

يبتعد عن مثل هذا التفسير المطاط للمفهوم ، وإن كان لا يزال يستخدم بهذه الصيغة حتى اليوم ، وخاصة عند تحليل الاخلاق والفن (٢) أن تشيسنوكوف على حق حين يستخدم مثل هذا المفهوم الواسع لاشكال الوعي وقد اشار في معرض تحليله للسياسة والحق والاخلاق وغيرها من الظواهر الاجتماعية الى انها تحتوي على علاقات ايدولوجية الى جانب التطلعات والافكار والنظريات التي تصنع شكل الوعي بالمعنى الاصلي للكلمة وهو يكتب عند تحليله للاخلاق :

« ان الاخلاق كنظام اجتماعي للفصايط السلوكية التي يتقيد البشر بها في افعالهم ، هي علاقة اجتماعية محددة لا يمكن اعادتها الى آراء ونظريات تؤكد هذه الفصايط أو ترفضها » .

وعلى أساس تحليله يستنتج تشيسنوكوف

« ... على المرء ان يميز بين الاشكال الايدولوجية ذات العلاقة مع آراء ونظريات البشر ، وبين تنوع الظواهر والروابط والقيم الايدولوجية التي تتجسد بها الآراء والنظريات » (٣) .

الى جانب التفسير المطاط لمفهوم شكل الوعي الاجتماعي هناك في الادبيات السوسيولوجية النقيض فظواهر علم النفس الاجتماعي التي ترتبط مثلاً بالاخلاق أو الفن لا تدخل في هذا المفهوم ، مما ينقصر محتواها وتفهم اشكال الوعي الاجتماعي ، حسب جوهرها ، كشيء مماثل لاشكال الايدولوجيا ، ويتم وصفها ايضا كاشكال ايدولوجية فقط .

ان ممثلي وجهة النظر التي تخرج التكوينات النفسية - الاجتماعية من اشكال الوعي يتناقضون باستمرار والابحاث التي اجريت في السنوات الاخيرة حول التكوينات الفكرية تدل بصورة حاسمة ان محتوى اشكال الوعي يتكون من عناصر ايدولوجية ونفسية - اجتماعية ، اي ليس فقط من افكار ، وعواطف ، وتعبيرات ارادية وتؤدي مماثلة اشكال الوعي الاجتماعي مع اشكال الايدولوجيا ليس فقط الى اخراج التكوينات النفسية الاجتماعية ، بل الى تضيق تنوع اشكال الوعي فلا ينظر غالبا الى ظاهرة فكرية كالعلم بصفاتها شكلا خاصا للوعي الاجتماعي هذا التضيق لتنوع اشكال الوعي يثير الاعتراض ، وي طرح مسألة العلاقة المتبادلة بين اشكال الوعي الاجتماعي واشكال الايدولوجيا والاعتراض في محله تماما ، لان الوعي الاجتماعي لا يمكن مسخه الى ايدولوجيا فقط . فاشكال الوعي

الاجتماعي هي اكثر تنوعا من أشكال الايديولوجيا وهي ليست متماثلة معها

تشرح الاعمال التي تدرس مسألة الوعي الاجتماعي ما يعنيه مفهوم « شكل الوعي الاجتماعي » يقول كتاب أصدرته كلية الآداب التابعة لجامعة موسكو

« يصف مفهوم « شكل الوعي الاجتماعي » محتوى فكريا معينا يتحدد بموضوع الانعكاس (الفارق بين الفكرة السياسية والحقوقية مثلا) وبطريقة انعكاس معينة (الفارق بين الفلسفة كانعكاس بالمفاهيم والفن كانعكاس بالصور) » (٤)

هنا يصاغ جواب على ما يقصد بـ أشكال الوعي الاجتماعي وكما هو واضح فان الحديث يدور حول محتوى هذه أو تلك من الأفكار والآراء وحول الفارق في طريقة الانعكاس هذا التحديد للمفاهيم يمكننا من الاجابة على السؤال حول تطابق المفهوم مع ما يصفه وهو لا يتطابق معه ، لان المرء لا يصف بالمفهوم فوارق في الشكل فقط بل فوارق في المحتوى الفكري قبل كل شيء ومن غير المنطقي تسمية أفكار ومفاهيم تميز في محتواها (في نوعيتها) أشكالا للوعي بحسب ان تشير التسمية الى فروق المحتوى القائمة بين الأفكار والنظرات والتصورات وعندما نتحدث المرء عن تطابق مفهوم شكل الوعي مع ما يوصف به ، فان ذلك لا ينطبق الا على طريقة الانعكاس فقط في هذه الحالة فحسب يكون استخدام المفهوم محقا ان محتوى الظواهر الفكرية ، شأنه في ذلك شأن محتوى الظواهر المادية يملك شكلا وهذان يتمايزان فعلا في طريقة الانعكاس غير ان مفهوم الشكل يصف ، في استخدامه العام ، محتوى الوعي وهذا يثير الاعتراض

لا يوافق كاك على المفهوم الشائع لأشكال الوعي الاجتماعي ويحاول ان يحدده بدقة اكبر في العادة ، يسمح تحليل الصفة النوعية لأشكال الوعي الاجتماعي المختلفة الى تفسير لخصوصية هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات المجال الايديولوجي كالنظرية السياسية والحقوقية والفلسفية » (٥) بينما « يجب على الدراسة المادية - التاريخية لأشكال الوعي ان تدل على ان الاشكال المختلفة للوعي الاجتماعي تعكس البنية الاقتصادية وجوانبها المختلفة » (٨) اذا كنا نريد مثلا كشف الصفة

النوعية للاخلاق كشكل للوعي ، فان علينا عندئذ أن ننظر اليها كانعكاس للبنية الاقتصادية ، وأن نظهر كيف تمكسها

يرى كاك ان الصفة النوعية لاشكال الوعي الاجتماعي ، تكمن في طريقة الانعكاس وموضوعه وهو يؤكد اننا لا نستطيع ، عند تحديد نوعية الاشكال المختلفة للوعي ان « نقصر الامر على الصفة النوعية لموضوع (سياسي ، او فلسفي الخ) لنظرية ما » ، بل يجب « قبل كل شيء الانطلاق من اخذ الجانب الخاص للتطور الاقتصادي بعين الاعتبار ، لانه هو الذي ينتج الشكل المعني للوعي الاجتماعي ويحافظ عليه » (٦)

تدل الآراء التي استشهدنا بها على ان كاك يحاول ان يضع لمفهوم « شكل الوعي الاجتماعي » معنى متطابقا معه ولكن هل نستطيع اعتبار الوعي السياسي ، والوعي الحقوقي ، والاخلاق ، والدين ، والفن والفلسفة كما يصفها كاك في كتابه ، اشكالا للوعي الاجتماعي ؟ اعتقد ان المرء لا يستطيع ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، ان يقبلها كاشكال للوعي الاجتماعي ، للسبب التالي : وضع كاك عند دراسته لاشكال الوعي موضوع الانعكاس في الذروة ، وأشار مثلا الى ان الوعي السياسي هو انعكاس العلاقات الاقتصادية الاكثر مباشرة ، بينما يعكس الوعي الاخلاقي البنية الاقتصادية في المحصلة النهائية فقط ويملك الوعي السياسي والحقوقي وجودا فعليا ، ما دامت للعلاقات الاقتصادية بنية طبقية ، في حين لا يرتبط الوعي الخلقي بالضرورة ببنية طبقية محددة هذه الافكار جوهرية لفهم الحياة الفكرية ، غير ان الذي يهمنا هنا هو اشكال « الوعي ، اي بنية نتاجات الوجود الذي تم وعيه ، وكاك يدرس الامر من زاوية موضوع وصفات الانعكاس ان الاشكال التي يحللها كتاب كاك ليست اشكال الوعي ، بل هي اشكال المعرفة

ولا يدرس كاك ايضا الفروق بين الوعي والمعرفة ، بل انه يعارض هذا التمييز أصلا ان اشكال المعرفة هي بالنسبة له اشكال الوعي ايضا (٧) ونحن وان كنا لا نريد دراسة العلاقة بين الوعي والمعرفة ، نؤكد ضرورة النظر الى الوعي كعملية لصيرورة الوعي (للمعرفة) ونتائجها. واستخدام مفهوم « المعرفة لوصف هذه العملية ، هو في رايانا ، امر مشروع ، حتى وان كان لم يحدد بعد بصورة كافية (٨)

ان ما هو نفسي ، وشكله الاعلى ، اي الوعي ، هو نتاج لعملية الانعكاس ولنشاط الذات . وهو في رابطته مع موضوع الانعكاس شيء

ذهني يقول روبنشتاين ان وصف ما هو نفسي كشيء ذهني ينسحب قبل كل شيء على نتاج او نتيجة النشاط النفسي على الصورة او الفكرة في علاقتها مع الموضوع او الشيء ولا يوضع النشاط النفسي بوصفه نشاطا فكريا في مواجهة ما هو مادي الا بقدر ما يكون مشبعاً بمحتوى ذهني تم اكتسابه خلال عملية معرفة منظمة اجتماعيا (٩) عندما تكون عملية الوصول الى الحقيقة هي المعرفة فان نتيجة المعرفة او ما يسميه روبنشتاين المحتوى الذهني للمعرفة المكتسبة تكون هي الوعي وهذا استنتاج يتطابق مع مفهوم الكلاسيكيين الماركسيين حول الوعي بوصفه وجودا تم وعيه (١٠)

لقد قادت محاولة تحديد مفهوم شكل الوعي الاجتماعي كاك الى وصف الاشكال الاجتماعية للمعرفة حتى وان استمر في تسميتها واعتبارها اشكالا للوعي

ثمة محاولة اخرى لتحديد مفهوم شكل الوعي الاجتماعي قام بها سيلينوف وسيليفانوف فقد درس هذان العلاقة بين شكل ومحتوى الوعي الاجتماعي وتوصلا الى ان الرابطة بين الوعي الاجتماعي وأنواعه المختلفة (السياسي الاخلاقي الفلسفي الخ ليست رابطة شكل بمحتوى ، لان الشكل هو التعبير عن المحتوى وطرز وجوده في حين لا يمثل أي من الانواع المذكورة طراز وجود الوعي الاجتماعي يقول العالمان

« على المرء ان يعتبر الافكار السياسية والنظرات الجمالية والمعتقدات الاخلاقية الخ جزءا من الوعي الاجتماعي ، حين يعتبرها عناصر للوعي الاجتماعي ، او وعيا سياسيا وجماليا واخلاقيا وعلى هذا الاساس فليس من البرر تعريفها كاشكال للوعي الاجتماعي » (١١)

ماذا يجدر بنا ان نفهم تحت اشكال الوعي الاجتماعي حسب رأي الكاتبين تعتبر اشكال الوعي الاجتماعي منتجات للتجسد المادي لتموضع تعبير المكونات المختلفة للوعي في وسائط مادية انه وعي اجتماعي مموضع (متجسد في موضوعات) (١٢)

وهما يملآن هذه النتيجة بأطروحة تقول اننا لا يجوز ان نعتبر من الوعي الاجتماعي ما ليس ماديا والافكار والنظرات والمعتقدات والايمان وسواها من التكوينات الفكرية لا تملك وجودا فعليا موضوعيا الا عندما تكتسب شكلا ماديا ، مع ان الشكل المادي ليس جزءا من الوعي الاجتماعي.

ويؤكد الكاتبان خطأ اعتبار الاعمال الفنية وسلوك البشر جزءا من الوعي الاجتماعي بالعلاقة مع الوعي الجمالي تبدو الاعمال الفنية كاشكال وجود متحقق للوعي الجمالي وبخصوص الوعي الاخلاقي يعتبر السلوك والعادات... الخ اشكال الوجود المتحقق للوعي الاخلاقي... الخ » (١٣)

عندما نركز انظارنا على عملية المعرفة ونتائجها ، اي على الوعي كوجود تم وعيه ، فانه من الطبيعي ان التكوينات المادية فقط تستطيع ان تبرز كتجسيد لما هو فكري ولكن هل يستطيع المرء تسمية هذه التكوينات المادية « اشكالا للوجود الاجتماعي ؟ هذا السؤال يطرح نفسه بالحاج على قارئ كتاب سيلينوف وسيليفانوف

تمثل الاعمال الفنية وسلوك البشر والطقوس الخ في الواقع وحدة من الموضوعي والذاتي ، يرتبط فيها المحتوى الفكري بالشكل المادي . اذا كنا لن نعتبر من الوعي الاجتماعي الا ما هو مادي فقط - كما يكتب المؤلفان - فلماذا يعتبران الاعمال الفنية وسلوك البشر والطقوس الخ ، اشكال للوعي ، مع ان بها محتوى فكريا ؟ ان اقوالهما متناقضة بصورة واضحة وهما يميزان النظرات الجمالية والاعمال الفنية ، المعتقدات الاخلاقية والسلوك ، الايمان الديني والطقوس حسب طريقة وجودها ، ويستنتجان ان بوسع المرء وصف « اشكال الوعي الاجتماعي » معزولة عن الوعي الاجتماعي نحن لا نستطيع ان نوافق على هذه الآراء ، لانها تفقد الاشكال « محتواها

ويغدو المفهوم المقترح لاشكال الوعي الاجتماعي اصعب قبولا ، حين يعود المؤلفان الى وجهة النظر التي تم تجاوزها في نقاط كثيرة ، والتي تفهم اشكال الوعي الاجتماعي بمعنى جد مضاف ، بان تدخل فيها التنظيمات والمؤسسات والانظمة المادية التي تسمح بموضعة الافكار والنظرات وعلى كل حال فان السؤال حول التكوينات التي تشتمل على الافكار والنظرات وتجسدها في منتجات محددة له معنى واقعي تماما ويبدو لنا انه لا يجوز طرحه والاجابة عليه على صعيد وصف « اشكال الوعي الاجتماعي » ، بل على صعيد الثقافة ومجالاتها . ويتحدث سيلينوف وسيليفانوف عمليا عن مجالات الثقافة (الفن ، الاخلاق... الخ) ، ولكنهما يسميانهما اشكالا للوعي

ان ظاهرة وتجسد الوعي الاجتماعي لن يفهما الا عبر تحليل للثقافة والثقافة هي ذلك المجال من الحياة الاجتماعية الذي يحدث فيه تأثير

متبادل بين الوجود والوعي وعلى أساس التأثير المتبادل لما هو موضوعي وذاتي يحدث الاكتمال النوعي للوجود والوعي ، الذي يعتبر نموا للثقافة ويتموضع في المنتجات الثقافية النشاط المادي والفكري للبشر ووعيهم كما يجد الوعي الاجتماعي تعبيره في المجالات المختلفة للثقافة (١٤)

ينتج مما قلناه ان محاولات تحديد مفهوم « شكل الوعي الاجتماعي قد ادت في الحالة الاولى الى وصف اشكال المعرفة ، وفي الثانية الى وصف اشكال الثقافة وبوسعنا الاعتقاد بأن صعوبة تعريف مفهوم شكل الوعي الاجتماعي لا يمكن تفاديها فهو يعكس فقط حقيقة ان للوعي الاجتماعي بنيته الخاصة وحين يبدأ المرء باستخدامه لوصف تكوينات فكرية مختلفة ، باختلاف المنظور الذي تحلل على اساسه بنية الوعي الاجتماعي فان انفلاشه يبدو واضحا للعيان

ان دراسة بنية الوعي الاجتماعي على الصعيد المعرفي فحسب تؤدي حتما الى الزعم بأن اشكال الوعي ليست سوى طرق مختلفة لمعرفة الواقع، تتميز عن بعضها حسب موضوع وطريقة الانعكاس أما في المؤلفات حول الماديات التاريخية التي تحلل بنية الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي ، فانه يفهم تحت اشكال الوعي التصورات والنظرات السياسية والحقوقية والاخلاقية الخ المحددة التي تتميز عن بعضها اساسا بحسب محتواها هنا لا يبرز الجانب الشكلي (طريقة وموضوع الانعكاس) ، بل المحتوى ولقد ادت المحاولات التي بذلت لدراسة بنية الوعي الاجتماعي على صعيد تاريخي - مشخص الى ضم التنظيمات والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية الى مفهوم شكل الوعي « ، لان الظهور المشخص للوعي في الحياة الاجتماعية يرتبط بها وباختصار فان الدراسات المختلفة لبنية الوعي لم تسمح باعطاء معنى محدد لمفهوم شكل الوعي الاجتماعي وهذا ما زاد من انفلاش المصطلح

يجب علينا ان نحدد بدقة اكبر منظورات التحليل ، اذا كنا نريد حقا اجراء تحليل موضوعي لبنية الوعي الاجتماعي وقد قادنا طموحنا لاعطاء احد هذه المنظورات صفة مطلقة ، الى تركيب صيغ جامدة تصعب فهم بنية ظاهرة معقدة كظاهرة الوعي الاجتماعي وعلى المرء ان يحدد بدقة ايضا استخدام مفهوم شكل الوعي الاجتماعي ، اذا اراد بحق اجراء

تحليل موضوعي له لقد فقد هذا المفهوم المعنى الذي كان له بالاصل ، وليس بين المعاني التي تلتصق الآن به سوى معنى واحد صحيح ، يتجلى في الإشارة الى الفارق بين طرق انعكاس الواقع وقد اكدنا سابقا ان هذه الفروق لا تكتشف الا عند تحليل بنية الوعي الاجتماعي من منظور معرفي والواقع ان مفهوم « شكل الوعي يمكن ان يستبدل هنا بمفهوم شكل المعرفة » الاكثر دقة وصحة. ولكن ، بما ان « الوعي و المعرفة » يستخدمان عادة لتأدية نفس المعنى ، وبما ان قضية التمييز بينهما لا تزال موضع خلاف ، فان بالامكان استعمال مفهوم شكل الوعي « كترديد ل شكل المعرفة اما بخصوص تحليل بنية الوعي على الصعيد السوسيولوجي فان بالامكان استعمال مفهومي نوع الوعي « و المجال الثقافي » في دراستها

ان اشكال المعرفة هي اشكال لنشاط الانعكاس يصف عملية الانعكاس من جانبها الذي يظهر كيف ، وبأية طريقة ، واي سبيل تم التعرف على الواقع. اما في المجالات الثقافية فيتموضع الوعي الاجتماعي.. وهذه تمثل وحدة بين ما هو فكري ومادي ، ذاتي وموضوعي وهي تسمح ليس فقط بوصف الوعي بل ايضا بوصف مجالات كاملة للحياة الاجتماعية (السياسة والاخلاق والفن الخ) هذا في حين نصف بمفهوم نوع الوعي تكوينات الوعي الاجتماعي بالمعنى الاصلي للكلمة وفي العادة تدرس انواع الوعي بالارتباط مع اشكال المعرفة لانها نتاج لها ، كما تدرس بالارتباط مع المجالات الثقافية لانها تتموضع فيها

ان الوعي الاجتماعي هو مفهوم جنس ، يضم اكثر الافكار والنظرات والتصورات والآراء الخ تمايزا في محتواها هذه العناصر المتفرقة ، المتميزة بمحتوياتها ، ليست ، بالنظر الى جنسها ، سوى مفاهيم نوعية ويمثل الوعي السياسي ، والحقوقى ، والخلقي الخ ، انواعا مختلفة من الوعي الاجتماعي ، تميز بصورة رئيسية ، وبالدرجة الاولى حسب محتوى الافكار والنظرات والتصورات المكونة لها ، وبالدور الذي تلعبه في حياة المجتمع

٢ - العلاقات الاجتماعية وأنواع الوعي

ترتبط أنواع الوعي الاجتماعي ، في الحياة الواقعية ، بالعلاقات الاجتماعية ارتباطا مباشرا وتسمح بنية هذه العلاقات وخاصة على صعيد البنية الفوقية ، بالوصول الى نتائج ايجابية حول الانواع المختلفة للوعي الاجتماعي

حتى الآن ، لم تعالج الادبيات السوسولوجية مسألة بنية العلاقات الاجتماعية بصورة تتناسب مع اهميتها ، وان كان الاهتمام بها يزداد باضطراد ولقد حددت المؤلفات التي وضعها كلاسيكيو الماركسية - اللينينية الاسس الرئيسية التي تبرر تناول المادي - التاريخي لتحليل نظام العلاقات الاجتماعية وتقسّم العلاقات الاجتماعية في هذه المؤلفات الى نمطين علاقات البشر بالطبيعة ، وعلاقاتهم ببعضهم وتكمن فكرتها الرئيسية ، بخصوص بنية العلاقات الاجتماعية ، فيما يلي تنقسم العلاقات الاجتماعية الى علاقات مادية وايدولوجية وتشكل الثانية بنية فوقية فقط للاولى ، التي تتكون مستقلة عن ارادة ووعي البشر بوصفها شكلا (نتيجة) لنشاط الانسان المنصب على تدبير حياته « (١٦) وتتم العلاقات الايدولوجية بعكس العلاقات المادية التي تتكون مستقلة عن ارادة ووعي البشر ، قبل تكونها في هذا الوعي (١٧) هنا تكمن الصفة المميزة لعلاقات البنية الفوقية حين يدرسها المرء من منظور نشوئها

ثمة آراء متناقضة حول مفهوم العلاقات الايدولوجية فهي تعتبر من جهة ، جزءا من مجال الوعي (ما دامت علاقات ايدولوجية) ، وينكر من جهة اخرى ، وجودها الواقعي خارج الوعي ذلك يبدو مثالا عند عند تحديد احدى مقولات المادية التاريخية كمقولة البنية الفوقية للمجتمع ، فلا تذكر العلاقات الايدولوجية بين عناصر البنية الفوقية (١٨) ويعاد ايضا محتوى البنية الفوقية الى الافكار السياسية والاخلاقية وسواها والى المؤسسات الموافقة لها كما تحتسب من جانب آخر ، انواع معينة للعلاقات الايدولوجية من مقولة الوجود الاجتماعي وينطبق ذلك بشكل رئيسي على السياسة ، فيقال انها من مجالات الحياة العملية التي تملك تأثيرا مباشرا في الاخلاق والفلسفة واشكال الوعي الاخرى ، ثم تحتسب ، لهذا السبب ، كجزء من الوجود الاجتماعي (١٩) .

لم ينتشر المفهوم الذي يفول بالسياسة كأحد مجالات الوجود الاجتماعي ولا تزال منتشرة نسبيا وجهة النظر التي تدعو الى تدوير العلاقات الايديولوجية في الوعي الاجتماعي وهذا يدل على الصعوبات التي تعترض فهم علاقات من هذا النوع

تتطلب مسألة العلاقات الايديولوجية طبيعتها وظاهرتها الواقعية في الحياة مناقشة خاصة تسمح بالاحاطة بها بصورة شاملة ولا تدعي الملاحظات التالية انها تقدم اي حل كامل لها

تمثل العلاقات الايديولوجية تعيرا عن العلاقات المادية (٢٠) وهي علاقات واقعية تملك وجودا فعليا خارج الوعي ويبرهن عمل وسلوك البشر على واقعيتهما فالعمل الفعلي في مجالات السياسة والاخلاق وسواها من مجالات الحياة هو جانب موضوعي من العلاقات الايديولوجية. وكما ذكرنا فان العلاقات الايديولوجية تمر عند تكونها عبر الوعي البشري وتتحكم الافكار والنظرات بتشكل علاقات مطابقة لها بهذا المعنى يستطيع المرء التحدث عن الطبيعة الذهنية لهذه العلاقات على الصعيد المعرفي تواجه العلاقات الايديولوجية العلاقات المادية بل هي مثلها علاقات موضوعية لها وجود فعلي خارج وعي البشر وعلى سبيل المثال فان الافكار والنظرات السياسية هي اسباب دافعة لتكون العلاقات بين الطبقات ، التي تنصب على مسألة الدولة ولكن العلاقات السياسية المتكونة لا تستنفذ نفسها في الدوافع الباعثة لها ، بل هي تمثل صراعا طبقيا فعليا . وفي المجتمعات ذات الطبقات المتناحرة يعتبر صراع الطبقات حول السلطة ظاهرة موضوعية تماما بهذا المنظور لا تتميز العلاقات الايديولوجية - السياسية عن العلاقات المادية - الاقتصادية (٢١) .

ان تحليل العلاقات الاجتماعية على صعيد الانعكاس فقط يؤدي حتما الى اعتبار العلاقات الايديولوجية (حتى عندما لا تدوب في الوعي ، بل يعترف بها كعلاقات واقعية كالحظة ، كجانب أو كشكل لعلاقات أخرى ولكن حين تكون العلاقات الايديولوجية جانبا أو شكلا فقط لعلاقات أخرى، وتكون هذه العلاقات الاخرى بدورها علاقات مادية فحسب ، فان كل تنوع الحياة الاجتماعية يتقلص الى علاقات مادية فقط ومن الصعب ان يكون مفهوما كهذا صحيح

ينظر غالبا الى العلاقات الايديولوجية على انها تابعة تماما للافكار

والنظرات فيكتب دروسدوف وباتنين حول تبعية العلاقات الايديولوجية للوعى

« وتعتبر تبعية العلاقات الايديولوجية للوعى عن نفسها اولا في انها لا تستطيع ان تكون بصورة عفوية . انها تنشأ فقط عندما يعي البشر ، وتحت نفوذ الحاجات المادية ، ضرورة خلقها . وثانيا يقيم البشر هذه العلاقات بالتطبيق مع افكار محددة ، ويحدث ذلك بقدر ما هي نتيجة للتحقق الفعلي لهذه الافكار » (٢٧) .

ان الزعم بأن تكون العلاقات الايديولوجية يحدث عن وعي ، هو زعم تعسفي ، يستند الى الاطروحة القائلة ان العلاقات الايديولوجية تمر بوعي البشر عند تكونها ، مع ان ذلك ليس حتما بالضرورة ، لان تكون العلاقات الايديولوجية يرتبط فعلا بالوعي ، ولكن هذه لا تنشأ من الوعي بل من العلاقات المادية **والعلاقات الايديولوجية ليست سوى نتاج وتعبير عن علاقات مادية** ، شأنها في ذلك شأن الوعي بمجمله وتكون علاقات البنية الفوقية في كل عصر جديد بصورة عفوية غالبا ولكن اعادة انتاجها تحدث (بعد ان تكون قد سبق وتكونت) بصورة واعية عند هذه النقطة تنشأ الحاجة الاجتماعية الى الافكار والآراء والنظريات نظرا لحاجة المجتمع الى تنظيم وتنسيق وضبط علاقاته وعلى سبيل المثال فقد نشأ صراع الطبقة العاملة ضد البرجوازية مع صعود الرأسمالية ، وشمل مجال السياسة أيضا ، وان كان قد حمل ، عند نشوئه ، طابعا عفويا ولا يستطيع المرء ان يقول ان العمال لم يهتدوا بالوعي عندما دخلوا حلبة الصراع السياسي ، فقد استندوا الى الوعي ، ولكنه كان وعيا تريدينونيا ، اي برجوازيا ، لم يعبر عن المصالح الاساسية لطبقته ، ولم يتوجه الصراع بفضل الى هدف محدد بصورة واضحة ، كاستيلاء على السلطة السياسية وتم تجاوز عفوية الصراع السياسي (العلاقات الايديولوجية) من خلال نقل الافكار الاشتراكية الى وعي الطبقة العاملة وكان توحيد الاشتراكية مع حركة العمال بداية للنضال السياسي الواعي للطبقة العاملة وبالنتيجة لا يشترط التشكل الواعي لعلاقات ايدىولوجية ببساطة وجود وعي يدخل البشر به علاقاتهم مع بعضهم ، بل يشترط وعيا يبرز من حالتهم الموضوعية في نظام العلاقات المادية ، ويعبر عن مصالحهم الاساسية

ان الحياة الاجتماعية هي الفعالية المتعددة الجوانب للبشر ، وهي قبل كل شيء فعالية لانتاج السلع المادية (٢٢) . وفي سياق فعاليتهم

يدخل البشر في علاقات متنوعة مع بعضهم ومع الطبيعة ، تبرز بدورها - وبخاصة منها علاقات البنية الفوقية - الحاجة الى افكار وآراء ، لا تتحدد العلاقات بواسطتها ، بل تبعثها فعالية البشر وعلاقاتهم الى الحياة ، لتصبح قادرة على العمل بصورة طبيعية. وتحقق الافكار والآراء التي تخدم الفعالية والعلاقات البشرية وظائف جد مختلفه : كالمعرفة ، وتمثيل المصالح ، ووظائف تربوية وسواها وتحدد الصفة النوعية للافكار والآراء وبنيتها من خلال العلاقات الاجتماعية وبنيتها

ما هي البنية التي تملكها العلاقات الايدولوجية الاجتماعية وماذا ينجم عنها بالنسبة لانواع الوعي الاجتماعي ؟ ان علاقات البنية الفوقية (الايدولوجية) تنقسم الى مجموعتين

(١) علاقات بين البشر

(٢) علاقات البشر بظواهر الطبيعة والمجتمع .

في المجموعة الاولى توجد العلاقات المشتقة من العلاقات الاقتصادية العلاقات الاخلاقية والسياسية والحقوقية ويقابلها في الوعي الاجتماعي التصورات والنظرات الاخلاقية والسياسية والحقوقية وتكون المجموعة الثانية العلاقات الدينية والجمالية المنبثقة عن العلاقات المادية (بين البشر ومع الطبيعة) وتتطابق معها تصورات ونظرات دينية وجمالية (فنية)

ان تصور بنية الوعي التي تتضمن ترتيب الافكار والنظرات في علاقات بنية فوقية اجتماعية ، ليس كاملا بعد اذ تخرج منه التكوينات الفكرية التي ترتبط ارتباطا مباشرا مع العلاقات الاجتماعية المادية ومع ان تنوع الوعي الاجتماعي يبرز في المحصلة النهائية من العلاقات المادية التي يرتبط بها ، فان الروابط القائمة هنا ذات طبيعة مركبة ان تصريحات انجلز معروفة حوت البعد المتفاوت للسياسة والحقوق والفن الخ عن الاساس الاقتصادي المادي وقد اعتبر انجلز الفلسفة والدين من الايدولوجيات الاكثر بعدا عن هذا الاساس الاقتصادي المادي (٢٣) وعاد مرارا الى تأكيد ان روابط التكوينات الفكرية مع الوجود الاجتماعي مختلفة في طبيعتها وبعدها عنه وشرح في رسالة الى كونراد شميدت في ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠ بخصوص تأثير الاقتصاد على الفلسفة

« ان الاقتصاد لا يخلق هنا جديدا ، بل يعدد نوع تغير واستمرار تشكل مادة الافكار التي يجدها ، وهذا يحدث غالبا بصورة غير مباشرة ،

عبر التاملات السياسية والحقوقية والاخلاقية التي تمارس اكبر قدر ممكن
من التأثير على الفلسفة » (٢٤) .

ان سائر التكوينات الفكرية ، البعيدة بهذا القدر أو ذاك عن الاساس
الاقتصادي المادي ، ترتبط مع علاقات بنية فوية محددة ، وتمثل جانبها
الدائي ، بيد انه توجد أيضا تكوينات فكرية لا تعكس فقط العلاقات المادية،
بل ترتبط أيضا معها بصورة مباشرة . والمثال على ذلك هي النظرات
الاقتصادية التي تؤثر على علاقات الانتاج

ويسمح مفهوم بنية الوعي الاجتماعي ، كنتيجة لدراسة نظام العلاقات
الاجتماعية ، بتحديد مكان مفاهيم الطبيعة في بنية الوعي أيضا ان
علاقات البشر مع الطبيعة متعددة الوجود ولم تعط أنواعها حتى الآن
طابعا منظما ، وان كانت هناك محاولات لذلك

يأتي العمل في المرتبة الاولى بين علاقات البشر مع الطبيعة وهو
الذي يعيد تشكيل أشياءها وظواهرها لارضاء الحاجات المادية للبشر
وتتكون الى جانب العلاقة النفعية العملية مع الطبيعة ، وعلى أساسها
علاقات من نوع آخر تنصب على ارضاء الحاجات الفكرية للبشر . وكمثال
على ذلك تصلح العلاقات الجمالية

ان كل نوع من العلاقات مع الطبيعة يستدعي تكوينات فكرية محددة.
هكذا أنتجت العلاقة العملية للبشر مع الطبيعة علوم الطبيعة
التي كانت تتألف في العصور القديمة من ملاحظات متفرقة حول ظواهر
العالم ومعطيات أولية حول تجارب تطبيقية ، وغدت في عصرنا الحاضر
نظاما متشعبا من العلوم الطبيعية النظرية والتطبيقية

اننا سنلقي نظرة على الانواع المختلفة للوعي الاجتماعي بحسب بنية
العلاقات الاجتماعية ونحن لا ننوي تقديم دراسة مفصلة للوعي الاخلاقي
والجمالي والفلسفي والديني وسواها من انواع الوعي نظرا لوجود
دراسات مستفيضة حولها فضلا عن ان الوصف التفصيلي لانواع الوعي
ليس مهمتنا ، فنحن نهتم فقط بتعليل الاهمية التي يملكها المبدأ المنهجي
القاتل ان دراسة بنية الوعي الاجتماعي ليست ممكنة الا بتبعيته لموضوع
الانعكاس ، ولبنية العمل البشري وعلاقاته الاجتماعية .

الوعي الاخلاقي

« أن البشر يستمدون نظراتهم الخلقية في السياق
الاخير من العلاقات اللغوية التي تكمن فيها حالتهم
الطبقية - من العلاقات الاقتصادية التي فيها ينتجون
ويتبادلون »

انجلز

منذ نشوء المجتمع البشري تعبر العلاقات الاقتصادية عن نفسها قبل
كل شيء في روابط اخلاقية تعين بدورها الصفة النوعية للوعي الاخلاقي.
ماذا نفهم تحت مصطلح علاقات اخلاقية ، كيف تطورت ، وما هو شكل
وجودها الفعلي ؟

تتجلى لدى تحليل العلاقات الاجتماعية صعوبة الاحاطة بعلاقات
البنية الفوقية بوصفها نمطا خاصا للعلاقات الاجتماعية وغالبا ما تخلو
الادبيات التي تدرس الخلق كشكل للوعي الاجتماعي من اية مقولة حول
العلاقات الاخلاقية وفي بعض الحالات تحبس هذه في مفهوم «السلوكية»
وتحسب على مجال الوعي ، بدل ان تحسب من الروابط الواقعية بين
البشر وعلى كل حال فان قضية العلاقات الاخلاقية تطرح نفسها في
الآونة الاخيرة بالحاح متزايد وهي وان كانت لا تطرح دوما بصورة
مباشرة ، الا انه من الواضح ان الباحثين يجهدون لكي يميزوا ، في مجال
السلوك ، بين العلاقات والنظرات هكذا يميز ايفانوف وريباكوف بين
مفهوم السلوك و الاخلاق ويكمن الفارق بينهما في ان المفهوم
الاول يندرج على الروابط الاخلاقية ، بينما يندرج الثاني على الوعي
الخلقي (٢٥) اننا لن نقف عند مسألة الاستخدام الصحيح للمفهومين في
معانيهما المختلفة ، فهذه مسألة خاصة لعلم نظرية الاخلاق التي يجب على
اخصائيها ان يدلووا برايمهم حولها يهمننا هنا فقط التمييز الواضح
للروابط الاخلاقية الواقعية عن الوعي الخلقي

يكتب ايفانوف وريباكوف ان السلوكية هي ممارسة السلوك،
ممارسة الروابط بين البشر اما الاخلاق فهي المتطلبات الاخلاقية المصاغة

في مبادئ ومعايير لهذا السلوك ، في حين ان نظرية الاخلاق هي معرفة وشرح وتعليل المعايير والمبادئ الاخلاقية (٢٦)

لا يقدم الكاتبان اي وصف كامل للروابط الاخلاقية غير ان تأكيدهم على ان « السلوك المعين تاريخيا يسبق وعيه كشيء اخلاقي (٢٧) هو من الاهمية بمكان ، لانه يفسر الترابط بين الروابط الاخلاقية والوعي الخلقي المطابق لها ومع ذلك فاننا لا نستطيع ان نقر سائر آرائهما فهما مثلا لا يعتبران العلاقات الاخلاقية جزءا من البنية الفوقية ، بل من الوجود الاجتماعي والحال ان العلاقات الاخلاقية تفقد لديهما طبيعتها كجزء من البنية الفوقية بسبب التفسير المطوط لمفهوم الوجود الاجتماعي اكثر مما تفقده بسبب عدم فهم طبيعة هذا النوع من العلاقات ومع ذلك فانهما لا يميزان بما يكفي من الوضوح العلاقات الاخلاقية داخل مجمل العلاقات الاجتماعية وتمثل العلاقات الاخلاقية بالنسبة لهما احد وجوه النشاط البشري وسواه من الروابط الاجتماعية كالعلاقات الانتاجية والسياسية والحقوقية الخ اكثر مما تمثل نوعا قائما بذاته من هذه العلاقات

لا ترى العالمة التشيكية **بويلوفا** في الروابط الاخلاقية وجها لعلاقات اجتماعية أخرى فقط ، بل مكونا رئيسيا للعلاقات الاجتماعية (٢٨) وقد كان عملها اول محاولة لتعريف العلاقات الخلقية تقول **بويلوفا**

« تتضمن العلاقات الخلقية

- ١ (عملا وسلوكا وعادات خلقية لاشخاص منفردين او لجماعات ولؤوسسات وانظمة ، واجراءات اجتماعية تحقق فعليا العلاقات الخلقية لمجتمع ما هذا هو الجانب الموضوعي للعلاقات الخلقية
- ٢ (وعي ومشاعر وقناعات وطموحات وطباع خلقية وهذا هو الجانب الذاتي ، النفسي للعلاقات الخلقية .
- ٣ (اهداف وافكار وسلالم قيم ومعايير أخلاقية وهذا هو الجانب الذهني ، النظري للعلاقات الخلقية » (٢٩) .

في هذا التعريف يستحق الحديث عن الجانب الموضوعي للعلاقات الخلقية اهتمامنا فهو يسمح لنا بأن ننظر اليها أولا كنوع قائم بذاته من الروابط التي تتكون في سياق التطور التاريخي وتكتسب خلاله صفاتها النوعية المميزة تماما كما تنشأ وتتكون في هذا التطور علاقات اقتصادية وأسرية وحقوقية وسواها (٣٠) هذا النوع من

العلاقات يملك ثانيا جانبه الفكري (النفسي والنظري) الذي يمكننا من معرفة طبيعته بوصفه جزءا من البنية الفوقية عندما يدخل البشر في روابط من هذا النوع فانهم ينساقون وراء مشاعر وتصورات وافكار وقناعات معينة ، تتموضع في تصرفاتهم وتندمج بذلك في علاقاتهم الاخلاقية

ربما كان من غير الصحيح اضعاء مفهوم واسع كهذا على الجانب الموضوعي من العلاقات الاخلاقية ومن الطبيعي ان العلاقات من هذا النوع ترتبط ب المؤسسات و الاجراءات ، غير ان هذه تمثل شروطا ووسائط للتطور الذاتي للعلاقات اكثر مما تمثل العلاقات نفسها ويبدو لنا تقسيم الجانب الفكري للعلاقات الى جانب نفسي وآخر ذهني مصطنعا بعض الشيء وينقصه المقياس الموضوعي

يتزايد الاعتراف بالوجود الفعلي للعلاقات الاخلاقية في الادبيات التي تدرس نظرية الاخلاق وان كانت استقلاليتها لا تزال موضع انكار ان العلاقات الاخلاقية تبدو فقط كجانب للروابط الاجتماعية بين البشر وليس كمجال خاص لحياتهم

من المسلم به ان الروابط الاخلاقية تتغلغل في سائر مجالات الحياة الاجتماعية وهي تنشأ في كل مكان يقيم فيه البشر روابط فيما بينهم فلماذا تنكر عليها استقلاليتها وتعتبر وجهها لروابط اخرى تملك استقلالية خاصة بها ؟ بالمعنى الدقيق لا يمثل أي نوع من روابط البنية الفوقية مجالا خاصا في حياة البشر ولا يستطيع المرء ان يرى مثل هذه المجالات الا في انواع النشاط المختلفة للبشر التي تلازمها بدورها روابط ذات انواع مختلفة بهذا المعنى لا تملك العلاقات الاخلاقية بقدر ما ترتبط بسلوك البشر استقلالية اقل او اكثر مما تملكه علاقات البنية الفوقية الاخرى

تشكل العلاقات الاخلاقية شأنها في ذلك شأن الانواع الاخرى من العلاقات الاجتماعية تاريخيا فقد استدعت روابط البشر في عملية انتاج السلع المادية التي تمثل النوع الرئيسي لنشاط البشر في كل مجتمع الضرورة العملية لتنسيق عمل الفرد مع عمل الجماعات الاولى في شروط المجتمع البدائي وتتابع المؤلفات العلمية التي تدرس نشوء المجتمع البشري ووعيه كيف أدت الحاجات الانتاجية للفرد اولا ثم للعشيرة فيما بعد الى تكوين الروابط الاخلاقية والمعايير السلوكية .

ان علاقات الانتاج التي تشكلت خلال العمل المشترك للبشر في ظروف نظام المجتمع البدائي قد عبرت عن نفسها في علاقات اخلاقية اي في مراعاة مصالح الجماعة التي تمثلت في الحيلولة دون ارضاء الحاجات الفردية الا عبر ارضاء حاجات الجماعة ان مراعاة المصالح العامة قد غدا معيارا سلوكيا وترسخ على الزمن في عادات وتقاليد واعراف

وتعتبر معايير السلوك البشري جزءا من العلاقات الاخلاقية. وتعامل المعايير في العادة كأوامر ونواه يضعها المجتمع وتنسحب على مجال الوعي وهذا صحيح بمعنى ان المعايير تعبر عن نفسها فعلا ، وبصورة واعية ، في مقولات مثل الواجب والخير والعدالة الخ انها توجد في روابط ضمن الواقع ، بيد ان هذا المعنى الاصلي قد ضاع ، وكان هذا هو السبب وراء اعتبار الاخلاق مجرد مجال للوعي فقط ومن الجلي انه يجب اعادة احياء المعنى الاصلي الذي يجعلنا نرى في المعايير العلاقات الواقعية

وتمثل المعايير بالنسبة للفرد الذي يدخل في علاقة ما مع الآخرين اوامر ونواه يجب عليه أن يوافق ويطابق سلوكه معها في حين تمثل المعايير بالنسبة للمجتمع علاقات يكمن جوهرها في مراعاة مصالحه وتعتبر مقولات نظرية الاخلاق عن النوعية المميزة لهذه العلاقات ، وتعني أهم هذه المقولات ، وهي مقولة « الخير » فالمرء ملزم من خلال نشاطه بدعم الوصول الى الصلاح العام وخلق ما هو خير

في سياق حياته ، يدخل كل انسان في مختلف الفئات والمجموعات البشرية ، ويجد نفسه في عملية تواصل مستمر مع أمثاله من البشر ويمس سلوكه وتصرف الانسان بالضرورة ، مصالح الفئات أو المجموعات التي هو عضو فيها وهكذا يقيم البشر وعلى أساس ماهيتهم الاجتماعية ، روابط اخلاقية

ولا تعني شمولية الروابط الاخلاقية التي تتشكل ابان عملية تواصل البشر ، ان هذه الروابط لا تمثل سوى وجه للعلاقات الاجتماعية، اي انها تفسير للعلاقات الانتاجية والسياسية وسواها من العلاقات من منظور مقولات نظرية الاخلاق ان المرء يستطيع قطعاً تفسير علاقات السيطرة والاضهاد كعلاقات لا أخلاقية ولكن جوهر القضيـ يكمن في

العلاقات يملك ثانياً جانبه الفكري (النفسي والنظري) الذي يمكننا من معرفة طبيعته بوصفه جزءاً من البنية الفوقية عندما يدخل البشر في روابط من هذا النوع فإنهم ينساقون وراء مشاعر وتصورات وأفكار وقناعات معينة ، تتموضع في تصرفاتهم وتندمج بذلك في علاقاتهم الاخلاقية

ربما كان من غير الصحيح اضعاف مفهوم واسع كهذا على الجانب الموضوعي من العلاقات الاخلاقية ومن الطبيعي ان العلاقات من هذا النوع ترتبط بالمؤسسات و الاجراءات ، غير ان هذه تمثل شروطاً ووسائط للتطور الذاتي للعلاقات اكثر مما تمثل العلاقات نفسها ويبدو لنا تقسيم الجانب الفكري للعلاقات الى جانب نفسي وآخر ذهني مصطنعاً بعض الشيء وينقصه المقياس الموضوعي

يتزايد الاعتراف بالوجود الفعلي للعلاقات الاخلاقية في الادبيات التي تدرس نظرية الاخلاق وان كانت استقلاليتها لا تزال موضع انكار ان العلاقات الاخلاقية تبدو فقط كجانب للروابط الاجتماعية بين البشر وليس كمجال خاص لحياتهم

من المسلم به ان الروابط الاخلاقية تتغلغل في سائر مجالات الحياة الاجتماعية وهي تنشأ في كل مكان يقيم فيه البشر روابط فيما بينهم فلماذا تنكر عليها استقلاليتها وتعتبر وجهاً لروابط أخرى تملك استقلالية خاصة بها ؟ بالمعنى الدقيق لا يمثل أي نوع من روابط البنية الفوقية مجالاً خاصاً في حياة البشر ولا يستطيع المرء ان يرى مثل هذه المجالات الا في انواع النشاط المختلفة للبشر التي تلازمها بدورها روابط ذات انواع مختلفة بهذا المعنى لا تملك العلاقات الاخلاقية بقدر ما ترتبط بسلوك البشر استقلالية اقل او اكثر مما تملكه علاقات البنية الفوقية الاخرى

تشكل العلاقات الاخلاقية شأنها في ذلك شأن الانواع الاخرى من العلاقات الاجتماعية تاريخياً فقد استدعت روابط البشر في عملية انتاج السلع المادية التي تمثل النوع الرئيسي لنشاط البشر في كل مجتمع الضرورة العملية لتنسيق عمل الفرد مع عمل الجماعات الاولى في شروط المجتمع البدائي وتتابع المؤلفات العلمية التي تدرس نشوء المجتمع البشري ووعيه كيف أدت الحاجات الانتاجية للفرد أولاً ثم للعشيرة فيما بعد الى تكوين الروابط الاخلاقية والمعايير السلوكية .

ان علاقات الانتاج التي تشكلت خلال العمل المشترك للبشر في ظروف نظام المجتمع البدائي قد عبرت عن نفسها في علاقات اخلاقية اي في مراعاة مصالح الجماعة التي تمثلت في الحيلولة دون ارضاء الحاجات الفردية الا عبر ارضاء حاجات الجماعة ان مراعاة المصالح العامة قد غدا معيارا سلوكيا وترسخ على الزمن في عادات وتقاليد واعراف

وتعتبر معايير السلوك البشري جزءا من العلاقات الاخلاقية. وتعامل المعايير في العادة كأوامر ونواه يضعها المجتمع وتنسحب على مجال الوعي وهذا صحيح بمعنى ان المعايير تعبر عن نفسها فعلا ، وبصورة واعية ، في مقولات مثل الواجب والخير والعدالة الخ انها توجد في روابط ضمن الواقع ، بيد ان هذا المعنى الاصلي قد ضاع ، وكان هذا هو السبب وراء اعتبار الاخلاق مجرد مجال للوعي فقط ومن الجلي انه يجب اعادة احياء المعنى الاصلي الذي يجعلنا نرى في المعايير العلاقات الواقعية

وتمثل المعايير بالنسبة للفرد الذي يدخل في علاقة ما مع الآخرين اوامر ونواه يجب عليه أن يوافق ويطابق سلوكه معها في حين تمثل المعايير بالنسبة للمجتمع علاقات يكمن جوهرها في مراعاة مصالحه وتعتبر مقولات نظرية الاخلاق عن النوعية المميزة لهذه العلاقات ، وتعني أهم هذه المقولات ، وهي مقولة « الخير » فالمرء ملزم من خلال نشاطه بدعم الوصول الى الصلاح العام وخلق ما هو خير

في سياق حياته ، يدخل كل انسان في مختلف الفئات والمجموعات البشرية ، ويجد نفسه في عملية تواصل مستمر مع أمثاله من البشر ويمس سلوكه وتصرف الانسان بالضرورة ، مصالح الفئات أو المجموعات التي هو عضو فيها وهكذا يقيم البشر وعلى أساس ماهيتهم الاجتماعية ، روابط اخلاقية

ولا تعني شمولية الروابط الاخلاقية التي تتشكل ابان عملية تواصل البشر ، ان هذه الروابط لا تمثل سوى وجه للعلاقات الاجتماعية، اي انها تفسير للعلاقات الانتاجية والسياسية وسواها من العلاقات من منظور مقولات نظرية الاخلاق ان المرء يستطيع قطعاً تفسير علاقات السيطرة والاضطهاد كعلاقات لا أخلاقية ولكن جوهر القضية يكمن في

ان للروابط الاخلاقية صفة نوعية مميزة نتمكن بواسطتها من تحليل (الروابط) الى جانب سواها من علاقات البنية الفوقية ان علاقات الانتاج للمجتمع البرجوازي بوصفها علاقات سيطرة واضطهاد تنتج مصفوفة كاملة من علاقات البنية الفوقية بما في ذلك العلاقات الاخلاقية تبرز وتتحقق من خلالها ماهية علاقات الانتاج وتشكل الروابط الاخلاقية داخل الطبقات وفيما بينها مجالا موحدًا للحياة الاجتماعية

ويجب على المرء مراعاة خصائص تشكل روابط البنية الفوقية لدى دراسة مسألة العلاقات الاخلاقية ان سائر علاقات البنية الفوقية تمر بان تشكلها عبر وعي الشر وهي تتشكل بالتوافق مع تصورات ورؤى معينة تهيمن في المجتمع مبدئيا تتشكل العلاقات الاخلاقية أيضا وفق هذا النسق

بيد انه سيكون من الخطأ اضافة صفة اطلاقية على خاصية تشكل روابط البنية الفوقية هذه في المجتمع البدائي ومراحل تطور التشكيلات الاجتماعية الاخرى نشأت روابط اخلاقية جديدة بالضرورة من علاقات اقتصادية معينة غير ان الامر تطلب دوما انقضاء وقت معين قبل ان يعي البشر معايير سلوكهم ويقننوها في أفكار ومبادئ وضوابط حين ينشأ الوعي الخلقي فان العلاقات الاخلاقية تتشكل حقا بالتطابق مع تصورات البشر حول الخير والشر الشرف والضمير والعدالة الخ فالوعي الخلقي هو جانب ضروري للروابط الاخلاقية

ما الذي يعين الآن الصفة النوعية المميزة للوعي الخلقي ؟ اننا نجد الاجابة على هذا السؤال لدى انجلز الذي يعين الصفة النوعية للوعي الخلقي هو

« ان البشر ، عن وعي أو غير وعي ، يستمدون نظراتهم الخلقية ، في السياق الاخير ، من العلاقات الفعلية التي تكمن فيها حالتهم الطبقيّة - من العلاقات الاقتصادية التي فيها ينتجون ويتبادلون » (٢١) .

وقد توصل انجلز الى هذا الاستنتاج على أساس تحليل الحياة الاخلاقية للمجتمع البرجوازي حيث تملك كل من الطبقات الثلاث - الارستقراطية الاقطاعية والبرجوازية والبروليتاريا - اخلاقها الخاصة . في المجتمع البرجوازي تهيمن العلاقات الرأسمالية ، وتتبقى العلاقات ما قبل الرأسمالية كمخلفات للتشكيلات الاجتماعية المندثرة . ولكن بدور

العلاقات القادمة تنضج في المجتمع البرجوازي وتتشكل فيه شروط الانتقال نحو الاشتراكية التي تناضل البروليتاريا بالتحالف مع الكادحين ، من أجل تحقيقها ان التزامن القائم في مجتمع ما بين الماضي والحاضر والمستقبل يقدم لنا بحسب كلمات انجلز ثلاث مجموعات كبيرة لنظريات أخلاقية قائمة في نفس الوقت وإلى جانب بعضها (٣٢)

يحدد العلاقات الاقتصادية في السياق النهائي سائر تصورات ونظرات المجتمع وفيها يكمن المنبع الأكثر عمقا لمجمل تنوع الحياة الفكرية للبشر ويشير انجلز الى ذلك حين يبرر تناول المادي لتحليل الوعي الخلقي ومع ذلك فان الإشارة إلى العلاقات الاقتصادية لا تفسر بعد الصفة النوعية المميزة لهذه أو تلك من التصورات والنظرات المنتشرة في مجتمع ما بل يجب على المرء أن يراعي العلاقات أو الحلقات الوسيطة الموجودة فيما بين الاقتصاد ووعي البشر

ان العلاقات الاقتصادية تعين حالة البشر والطبقات وسواها في المجتمع وحاجاتهم الاجتماعية التي تحمل طابعا موضوعيا في كل مجتمع. وتعبر عن نفسها عبر المصالح وهذه تمثل ظواهر في حياة البشر تسمح بهم سوء علاقات البنية الفوقية والصفة النوعية المميزة لأنواع الوعي المختلفة ان ارضاء الحاجات الناشئة الذي يحدث بواسطة نشاط البشر هو الذي ينجع علاقات البنية الفوقية مختلفة النوع وفي نفس الوقت يستلزم تحقق المصالح وعيها الذي يتحول إلى باع ذهني محرض لعمل البشر ويمثل جانبا من العلاقات الاجتماعية

وتتمايز المصالح بحسب المتطلبات الاجتماعية التي تكون أساسها وتتمايز أيضا بحسب حاملها كمصالح فردية (شخصية أو جماعية) عامة) أو اجتماعية وتتبع الصفة النوعية المميزة للعلاقات الأخلاقية والوعي الخلقي عبر خصائص المصالح التي تتميز عن بعضها بحسب حاملها

ان الانسان هو كماهية اجتماعية، نتاج للتطور التاريخي وماهيته هي جماع الروابط الاجتماعية ولكنه يوجد كفرد له مصالحه الخاصة التي لا تتطابق دوما مع مصالح الجماعة التي ينتمي إليها ان تناقضات كثيرة تنشأ بين مصالح الفرد والجماعة وكما أكد **ماركس** و **انجلز** ، فانه مع تقسيم العمل يولد في نفس الوقت التناقض بين مصالح الفرد

الواحد ، أو العائلة الواحدة ، والمصلحة العامة لسائر الاعضاء الذين يملكون علاقات مع بعضهم بعضا (٣٣) وقد انتجت تناقضية الوجود الاجتماعي للمجتمع ولاعضائه الحاجة الى ربط مصالح المجتمع والفرد (الفرد والجماعات المشخصة كالعائلة والفخذ والقبيلة والطبقة والامة الخ الذي ينتمي اليه بكلمات أخرى لقد نشأت الحاجة الى أخلاق مهمتها تنظيم الروابط بين المصالح الفردية والاجتماعية

وتشمل الاخلاق كظاهرة الروابط الاخلاقية قبل كل شيء ففيها ترابط المصالح الشخصية والعامة وهذا الترابط يحفظ مصالح المجتمع والفرد ، وان كان مصالح المجتمع تملك هنا الافضلية بوصفه الجانب الأكثر فعالية في هذه الرابطة وهذا يتضح من ان المجتمع يخلق منظومة متماسكة من الضوابط والوصايا الاخلاقية التي تحكم سلوك الافراد ويملك الفرد أيضا مصلحة في وحدة مصلحته مع مصلحة المجتمع، لانه لا سبيل الى ارضاء المصالح الشخصية الا بتأمين المصالح العامة ويتحدد اهتمام الفرد والمجتمع بتطابق مصالحهما من خلال عدم توافق هذه المصالح فلو تطابق مصالح الفرد والمجتمع تمام التطابق لما كانت ثمة حاجة لربطها ببعضها ولما كان الروابط الاخلاقية قد تكوّنت بدورها

وتتضمن الاخلاق الى جانب الروابط الوعي أيضا وخصوصية هذا الوعي المميزة تكمن في انه يمثل التعبير الذهني عن ضرورة ربط المصالح الشخصية والجماعية من جانبيها الفردي والاجتماعي وتعر النوعية المميزة للوعي الخلقي عن نفسها في سلسلة من الخصائص التي تسمح بتمييزه عن سواه من أنواع الوعي الاجتماعي وتشكل المحتوى الرئيسي للوعي الخلقي تلك التصورات والنظرات حول السلوك المطلوب والمستحسن ، والمبادئ والنواظم التي تحكم مثل هذا السلوك وهذا المحتوى هو تعبير عن المتطلبات الموضوعية لربط المصالح الشخصية والجماعية

تعبّر سائر ظواهر الوعي الخلقي عن روابط مع أفعال البشر ومع وقائع وأحداث الحياة ويؤكد شكل تقييم الاحكام الاخلاقية الخاصة المذكورة لمحتوى الوعي الخلقي وبما ان هذا الوعي يفصح عن رابطة مع أنماط السلوك ، فانه يوجه الفرد نحو أفضل نماذج هذا السلوك . ان

الوعي الخلقي ينصبّ على المستقبل ويوجه اليه وهذه بدورها واحدة من خصائص هذا النوع من الوعي

لا تستنفذ الخصائص المذكورة بالطبع الصفات النوعية المميزة للوعي الخلقي وان كانت تسمح الى حد ما بتمييزه عن سواه ليس فقط بحسب طريقة الانعكاس ونمطه بل ايضا بحسب محتواه

لا نريد هنا مناقشة التعاريف الشائعة للاخلاق كشكل للوعي الاجتماعي ، والتي تكمن صفاتها المميزة في فهمها للحياة الاجتماعية عبر مقولات الخير والشر العدالة والواجب الشرف والضمير وتتركز على معايير السلوك المستندة الى الراي الاجتماعي فمثل هذه التعاريف معروفة في الادبيات التي تدرس الوعي الخلقي وعلى كل حال فان هذه التعيينات للاخلاق كشكل للوعي الاجتماعي تتصف غالبا بعدم دقتها بقدر ما تضيف الى النظرات والتصورات الروابط الاخلاقية الواقعية بوصفها مجالا للوعي الخلقي

من المهم لدى تحليل محتوى الوعي الخلقي مراعاة خصائص انعكاس الحياة الاجتماعية ومن المعلوم ان هذا المحتوى قد تغير خلال التطور الاجتماعي التاريخي وقيمت نفس الروابط بين البشر تقييما متفاوتا من مرحلة تاريخية لآخرى والسبب في ذلك يعود الى ان الوعي الخلقي ليس سوى شكل ذي توسط اجتماعي لانعكاس ظواهر الواقع ويتحدد محتوى الانعكاس بموضوعه (الروابط المتبادلة بين مصالح البشر وبالشروط الاجتماعية المشخصة التي يتم في ظلها

لقد لعب الانقسام الطبقي للمجتمع دورا كبيرا بشكل خاص في تحديد محتوى الوعي الخلقي وتجلى تأثيره في تجريد المبادئ والوصايا الاخلاقية من قيمها ويفسر ذلك بضيق مجال الاخلاق ، مع زيادة التحكم بالمصالح الطبقيه بواسطة ادوات السياسة والقانون يضاف الى ذلك ان اخلاق الطبقات المستغلة ، التي تحاول فرض نظراتها على المجتمع بأسره تتسم بالنفاق اذ تصاغ على الصعيد النظري وتعمم مبادئ أخلاقية معينة ، وتتقلب وتمارس في الواقع ممارسات ومبادئ أخرى ويرتبط فقدان المعايير الاخلاقية لقيمها بواقع ان المستوى الخلقي المطلوب يتم الحفاظ عليه بوسائط الاكراه في النظرية يتم تقريب الاخلاق من القانون، وفي الممارسة تستخدم سلطة الراي الاجتماعي بصورة مفضلة ، لادانة السلوك غير الاخلاقي .

ومن أجل تعيين صحيح لمحتوى الوعي الخلقي يجب أيضا مراعاة ان هذا النوع من الوعي هو شكل لانعكاس ذي توسط اجتماعي وفي نفس الوقت لا يمكن تفسير خصائص الاخلاق دون الانطلاق من خصائص محتواها حين لا نراعي الصفة النوعية لمحتوى الوعي الخلقي ، فانه لن يكون بوسعنا تبرير اتخاذ الوعي الاخلاقي شكل أوامر ونواه ذات طبيعة ملزمة

ان محتوى الوعي الخلقي بالعموم النوع فيه مشاعر أخلاقية (كالوطنية وروح المواطنة وسواها ونظرات حول السلوك الخلقي وغير الخلقي ، مبادئ ووصايا للسلوك قيم أخلاقية أهداف ومثل وغيرها من العناصر في الادبيات التي تنصب على نظرية الاخلاق يعالج محتوى الوعي الخلقي بصورة تفصيلية وافية الذي يهنا هنا هو بحث مسألة ما اذا كانت نظرية الاخلاق نفسها تعتبر جزءا من الوعي الخلقي

اننا نطرح هذا السؤال لان نظرية الاخلاق كثيرا ما تسمى من الوعي الخلقي . من الطبيعي ان نظرية الاخلاق تتمركز على موضوع الروابط الواقعية بين البشر وعلى التصورات وأنظرات الاخلاقية بهذا المعنى ستطبع المرء اعتبارها وعيا خلقيا ذاتيا ولكنه لن يكون صحيحا اخراجها من الوعي الخلقي لان الوعي الذاتي هو شكل تعبير للوعي لذا يشتمل في رأينا ، مفهوم الوعي الخلقي على النظريات الاخلاقية ايضا التي تعلق ضرورة السلوك الحسن وتكشف محتوى مقولات نظرية الاخلاق وتصوغ أهدافا ومثلا أخلاقية الح

لقد اتضح من تحليلنا الموجز للاخلاق ان تشكل الوعي الخلقي كنوع مميز لبنية الوعي الاجتماعي لا يقدو ممكنا الا عندما توجد روابط أخلاقية عملية بين البشر يبرز الوعي الخلقي كجانب لها لذا تملك الروابط الاخلاقية جانبا موضوعيا (الافعال العملية للبشر سلوكهم وجانبها ذاتيا (الوعي الخلقي الذي يؤثر بوصفه محصلة للسلوك)

الوعي السياسي :

« السياسة اكثر التعابير تركيزا عن
الاقتصاد » .

لينين

مع انقسام المجتمع الى طبقات نشأت السياسة كمجال خاص للحياة الاجتماعية والسياسة هي مجال العلاقات المتبادلة بين الطبقات وهي تابعة مباشرة للاقتصاد وحسب تعريف لينين المشهور تعتبر السياسة « اكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد » (٣٤) وفي السياسة تدور الامور قبل كل شيء حول مسائل الوضع الاقتصادي للطبقات ، وحول تأمين مصالحها الرئيسية والدفاع عنها أما النقطة المركزية في هذا المجال من الحياة الاجتماعية ، التي تمنحها صفتها النوعية وتجعلها اكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد فهي الدولة ان الطبقات السائدة التي تتصرف بوسائل الانتاج لا تلجأ لحماية مصالحها الى الاكراه الاقتصادي بل الى الاكراه غير الاقتصادي ومن أجل ذلك تحتاج الى سلطة الدولة. وتناضل الطبقات المضطهدة الطامحة لتحررها الاقتصادي مبن جانبها في سبيل الحريات والحقوق الديمقراطية ويشمل نضالها حتما حياة الدولة ، اذ لا مجال لارضاء مصالحها الرئيسية الا باقامة ديكتاتوريتها الخاصة

وتنصب العلاقات المتبادلة للطبقات بهذا الشكل او ذاك على مسألة الدولة وبنائها وقيادتها ، ومسائل الاشتراك في الحفاظ على سلطتها القائمة او احلال نظام دولة أخرى محلها وهذه العلاقات تظهر كعلاقات سياسية ومجالها واسع جدا يشمل من العلاقات بين الطبقات في دولة معينة ، الى العلاقات بين الدول والامم

لا تنقلص العلاقات السياسية الى علاقات اقتصادية ، ويمثل الاقتصاد الاساس الموضوعي فقط للعلاقات السياسية ، وسبب نشوئها ، وشرط وجودها الفعلي وتحدد الحالة الاقتصادية لطبقة ما مصالحها الموضوعية. فتبدأ الطبقة بوعي مصالحها وتخوض بالتطابق مع وعيها هذا نضالها الفعلي لتحقيق هذه المصالح وهذا لا يعني طبعا ان بوسع طبقة ما ان

تحدد لنفسها الاهداف التي تحلو لها كتب كارل ماركس لقد اخفقت الفكرة « دوما بقدر ما كانت مختلفة عن «المصلحة» (٣٥) ومحك الاختبار لصحة واقعية الافكار السياسية هو الصراع الطبقي الفعلي الذي يخاض وفقها هنا تبدأ العلاقات الاقتصادية فعلها ، فاما أن تضع حدودا امام تحقيق الافكار ضمن الشروط المادية القائمة ، او أن تفتح لها الطريق .

تكن جذور العلاقات السياسية في الاقتصاد الاجتماعي وتشكل هذه وفق آراء محددة للبشر تكون بدورها وعيا سياسيا محددا وسلوك طبقة ما حيال غيرها من الطبقات يتشكل بصورة واعية وبقدر ما ينتشر الصراع الطبقي وخاصة في زمن الثورات الاجتماعية ، بقدر ما تنمو الحاجة لدى الطبقات المتصارعة الى الوعي السياسي

ما هي الصفات النوعية المميزة للوعي السياسي ؟! انهم يرون هذه الصفات عادة في ان الوعي يعكس الاقتصاد بصورة مباشرة ويعكس ايضا المصالح الرئيسية للطبقات وتعبّر الافكار السياسية عن نفسها في النظريات السياسية المختلفة وبرامج الاحزاب السياسية ، والبيانات ، وسواها من الوثائق ويلعب الوعي السياسي اكثر الادوار نشاطا في المجتمع لانه يمثل صلة الوصل بين الاقتصاد ومختلف انواع الوعي الاجتماعي ويمتاز الوعي السياسي بكونه موجها ومنصبا على هدف ما أي انه يعكس الوجود الاجتماعي في اهداف ومهام تنقيد بها الطبقات ابان نضالها لتحقيق مصالحها غير ان الصفات النوعية للوعي السياسي لا تنسحب على محتواه بل على الشكل الذي يظهر به كنوع مستقل للوعي الاجتماعي

اما الصفة المميزة لمحتوى الوعي السياسي فهي تتجلى في وعي الطبقات لمصالحها السياسية ، وعلاقاتها الاجتماعية ، ولتغير المجتمع أو تطوره

ومن المعلوم ان الروابط السياسية تتحقق في هذه أو تلك من التصورات والآراء ، وان الوعي السياسي يعبر عن هذه الروابط السياسية . فهل يعني ذلك ان الوعي السياسي ينفصل عن الاقتصاد ، لينتج نفسه ذاتيا ؟ ان صواب المبدأ القائل بتعين الوعي بسائر أجزائه ، بالوجود الاجتماعي يبقى مستمرا اذا ما فهم المرء من تلك الاطروحة ان الوجود يعين محتوى الوعي في المحصلة النهائية فحسب وبطريقة غير مباشرة . هذا المبدأ يصح بالنسبة للوعي السياسي ايضا .

وينطبق التحديد اللينيني للسياسة كأكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد ، على السياسة بوصفها مجال العلاقات الطبقية ، بيد أنه ليس صحيحا اشتقاق محتوى الوعي السياسي من الاقتصاد اشتقاقا مباشرا ، اذ يوجد بين الاقتصاد والوعي السياسي مجال الحياة السياسية بأكمله ، وهذا هو الذي يعين الصفات النوعية للوعي السياسي ومحتواه ولا يمكن ، على كل حال ، فهم محتوى التعاليم السياسية المختلفة ، والانفعالات والمواطف السياسية اللازمة للصراع الطبقي ، دون تحليل العلاقات السياسية المتبادلة للطبقات في تعقيدها وتناقضاتها

يشار في الأدبيات الماركسية الى ارتباط محتوى الوعي السياسي الطبقي مع صراع الطبقات ذلك يسمح لنا بالحكم على الطريقة التي تعبر بها هذه أو تلك من النظريات والآراء والاتجاهات السياسية الفكرية عن علاقة الطبقات المتصارعة مع النظام السياسي - الاجتماعي والسلطة وبناء وقيادة الدولة ، أو باختصار ، كيف تعي الطبقات الحياة السياسية في مراحل محددة من تطور المجتمع (٣٦)

وعلى سبيل المثال فان بوسع المرء ان يتصور محتوى الآراء السياسية لطبقة ملاك العبيد من توجهات بتاح حتب ، أحد ممثلي النبلاء في مصر القديمة ، ومن القوانين الشهيرة للملك البابلي حمورابي وقوانين المانو الهندية القديمة ، ونظريات الفيلسوفين اليونانيين القديمين افلاطون وارسطو حول الدولة المثلى ، وغيرها من المصادر ان الآراء السياسية المعروضة في هذه المصادر تختلف عن بعضها من منظورات كثيرة وخاصة في مسائل تنظيم ادارة الدولة ، لنشوتها في مراحل مختلفة من تطور مجتمع ملاك العبيد ، والعلاقات المختلفة للقوى الطبقية ، والفعالية السياسية المختلفة للطبقات الخ بيد ان الآراء السياسية لطبقة ملاك العبيد تلتقي على الاخذ بالعبودية وبالتفاوت الاجتماعي للبشر وتتميز سلطة الدولة ، بوصفها اكثر ادوات السيطرة اهمية وتبريرها.

وتتميز الآراء السياسية للبرجوازية الى درجة كبيرة عن المفاهيم المماثلة لملاك العبيد أو للاقطاعيين في واقع الحال يقوم المجتمع البرجوازي شأنه في ذلك شأن المجتمعات التناحرية السابقة له ، على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وتعارض مصالح الطبقات الاساسية والصراع الحاد بينها والدولة في هذا المجتمع ليست أيضا سوى أداة للاضطهاد في ايدي الطبقة المسيطرة اقتصاديا ومع ذلك فان العصر

التاريخي المختلف والطبيعة الاخرى للصراع السياسي يفرضان الطابع النوعي الخاص لوجهات نظر البرجوازية السياسية فقد ألحّت أعمال الايديولوجيين البرجوازيين الاول مثل بودين وميكافيلي على فكرة الدولة المركزية المتحررة من نفوذ الكنيسة ووجهتها ضد التعاليم السياسية للمجتمع الاقطاعي. وبرز ايديولوجيو الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر بشعار الحرية ، والمساواة ، والاخاء وكانت آراء البرجوازية تعكس في ذلك العصر ، ادعاءها قيادة الحياة السياسية للمجتمع

ولا تبقى المفاهيم السياسية للبرجوازية ثابتة لا تتغير خلال المجرى العام لتاريخ المجتمع البرجوازي فقد تبدلت المفاهيم السياسية تبدا جذريا تبعا لتحولها من طبقة تقدمية لعصر تكون الرأسمالية والسيطرة على السلطة السياسية وترسيخها الى تطور تناقضات المجتمع الرأسمالي الرئيسية وتحول البرجوازية الى طبقة محافظة واخيرا الى دخول الرأسمالية في مرحلتها الاخيرة الامبريالية ، حيث صارت البرجوازية طبقة رجعية ولا تذكر المذاهب السياسية البرجوازية الراهنة بأي حال باعلان حقوق الانسان والمواطن من عصر الثورات البرجوازية وبدلا من أن يتبنى ايديولوجيو البرجوازية الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، يناضلوا ضد الاضطهاد الاجتماعي فانهم يفعلون العكس تماما

ويبدو نفوذ الايديولوجية السياسية البرجوازية في البلدان الرأسمالية في قدرتها على اخضاع وعي قسم من الكادحين لها وتحقق ذلك على الاغلب بمساعدة آلة الدعاية الهائلة التي تمارس ضغطا ايديولوجيا مستمرا على الجماهير وهي تسعى لاستغلال المصاعب والتناقضات الموضوعية التي تعيق نمو الوعي الذاتي للجماهير فتنشأ بهذه الطريقة لدى الجماعات والفئات الاجتماعية (الجماعات القومية والوظيفية والدينية والعائلية الخ) مصالح منفصلة يمكن أن تتعارض مع مصالح الكيانات الاكبر التي تنتسب لها وعندما لا تكون درجة تنظيم وتماسك الطبقة العاملة ومستوى اشتراكها في النضال السياسي كافيين فانه يمكن اعطاء المصلحة القوية قيمة أعلى في الوعي من المصلحة الطبقة وعلى سبيل المثال فان الحرب العدوانية للولايات المتحدة ضد شعب فيتنام قد رفعت مؤقتا مستوى تشغيل عمال صناعة التسليح وهذه الواقعة قد تتحول الى ارض خصبة لنشر وعي خاص بعمال التسليح يدعم الحرب ويتعارض مع المصالح الحقيقية للطبقة العاملة الاميركية بيد ان افكار

البرجوازية وآرائها التي تسرب باستمرار الى الامة بأسرها ، تواجه بصورة متزايدة معارضة متنامية تعبر عن نفسها في ادراك الشعوب والامم لمصالحها الفعلية ، وفي نضال الكادحين من اجل السلام والديمقراطية وتناسى بشكل خاص مقاومة الطبقة العاملة التي يزداد وعيها السياسي باضطراب

يتغير محتوى الوعي السياسي للطبقة العاملة وغيرها من الطبقات بتغير حالتها في المجتمع ، ومع تغير العلاقات السياسية الواقعية التي تدخلها مع غيرها من الطبقات ان المسألة المركزية لوعي الطبقة العاملة في ظروف المجتمع البرجوازي هي مسألة السيطرة على السلطة السياسية وبعد انتصار الثورة الاشتراكية تفقد المسألة الاكثر أهمية بالنسبة لها هي الاشتراك في قيادة الدولة وتعزيز السلطة الثورية

ولا ينتهي الصراع الطبقي بانتصار ديكتاتورية البروليتاريا بل هو يكتسب في فترات متفرقة أشكالا جد حادة وتتطلب قيادة الصراع الطبقي في ظروف جديدة رفعا لمستوى الوعي السياسي الطبقي لدى البروليتاريا وتصميمها الثوري وتماسكها في النضال بهذا فقط تستطيع الطبقة العاملة الدفاع عن مكتسباتها وحل المهمات الاساسية في الثورة الاشتراكية وقد فضح لينين أعداء ديكتاتورية البروليتاريا الذين اطلقوا الصرخات ضد الاكراه الذي استخدمته السلطة السوفياتية حيال البرجوازية ، حين قال

« ان الجمل الطنانة حول الاكثرية والاقلية ، الديمقراطية والحربة ،

لا تحل شيئا المهم هنا هو الوعي الطبقي لدى الطبقة العاملة وتماسكها فاذا كانت الطبقة العاملة مستعدة للتضحية ، وبرهنت انها قادرة على تجميع سائر طاقاتها ، فان ذلك يحسم الامور ... لنسخر كل شيء من أجل التقلب على هذه المهمة ! ان تماسك الطبقة العاملة ، وادانتها التي لا تنحني ، وشعار « الموت افضل من الاستسلام » ، ليست فقط عوامل تاريخية ، بل هي ستأتينا أيضا بالحسم وبالنصر » (٣٧) .

وتحدد ضرورة رفع الوعي السياسي للطبقة العاملة بعد اقامة ديكتاتورية البروليتاريا بالمهمة الاساسية التي تطرح نفسها على الثورة الاشتراكية ، الا وهي خلق الاقتصاد الاشتراكي ان علاقات الانتاج الاشتراكية ، بعكس العلاقات السابقة لها لا تتشكل بصورة عفوية في حوض المجتمع القديم واذا كانت الرأسمالية تخلق فقط المقدمات ، فان

مهمة بناء الاقتصاد الاشتراكي بعد الثورة البروليتارية تبقى اكثر المهمات الحاحا واذا كان دور الجماهير الكادحة في الثورة البرجوازية قد اقتصر على تحطيم الملكية والعصور الوسطى فان دور الجماهير العاملة بعد الثورة الاشتراكية لن يقف عند تحطيم السلطة البرجوازية القديمة ، والقضاء على علاقات الانتاج الرأسمالية ، بل هو يشمل بناء الانتاج الاشتراكي بعد الاستيلاء على السلطة ان الجماهير الكادحة تلعب هنا لاول مرة في التاريخ دور منظم العمل الاجتماعي ، وتستولي على الوظيفة التي كانت تمارسها قبل ذلك الطبقات المسيطرة وهذا يتطلب نهوضا لم يعرف من قبل لدرجة تنظيم الجماهير والوعي ، لان العمال والفلاحين صاروا لاول مرة في التاريخ يعملون لانفسهم ولمجتمعهم وبدون فهم دقيق لضرورة خلق نظام جديد للعمل ورفع لانتاجيته ، من اجل ترسيخ سلطتها والحيلولة دون عودة الاقطاعيين والرأسماليين ، اي دون النمو المتواصل للوعي السياسي الطبقي للكادحين ، لما كان بوسع الطبقة العاملة ان تنصرف لخلق الاقتصاد الاشتراكي

ان القوة المنظمة للمجتمع الرأسمالي هي السوق المتكونة بصورة عفوية اما في المجتمع الاشتراكي فان هذه القوة هي الدولة التي تخطط الانتاج وتوزعه ان التطور الاجتماعي يصبح هنا قضية من قضايا الابداع الواعي والخلق للجماهير

تجد السياسة تعبيرها المشخص في العلاقات بين مجموعات وفئات مجتمع ما وقد توجب على البروليتاريا الروسية ، ومن اجل بناء الاشتراكية ، ان تقضي على مقاومة الطبقات المستغلة المطاح بها وان تشد الجماهير غير البروليتارية الى الناء الاشتراكي عن طريق توحيد كادحي الامم التي كانت في السابق مضطهدة وقد تجسدت سياسة الطبقة العاملة داخل صراع الطبقات في علاقاتها مع الفلاحين كحلفاء ، وفي توطيد الصداقة بين شعوب الامم المختلفة

ان ضرورة نمو الوعي السياسي للطبقة العاملة بعد انتصار ديكتاتورية البروليتاريا يتحدد اذن بالاشكال الجديدة التي يأخذها الصراع الطبقي وبأن على الجماهير الكادحة ان تحل مهمات جديدة تماما يتطلب التصدي لها اعلى درجات الوعي ، وبالدولة كأداة رئيسية لبناء الاشتراكية التي يعتبر وعي الجماهير مصدر قوتها الفعلي وهذه العوامل تتطلب بدورها التنمية المضطردة لوعي المجتمع

مع انتصار الاشتراكية لم تتضاءل الحاجة الى الوعي السياسي وتطويرة وما دامت الطبقات والدولة مستمرة وبالتالي ما دامت العلاقات السياسية قائمة ، فان الوعي السياسي يبقى اكثر انواع الوعي الاجتماعي اهمية وتحدد الصفات النوعية لهذا النوع من الوعي (تغيره وتطوره ودوره في المجتمع) من خلال العلاقات السياسية

الوعي الحقوقي :

« ان الحق هو ارادة الطبقة المسيطرة
المرفوعة الى قانون » .
لينين

الحقوق كالسياسة ، نتاج للتقسيم الطبقي للمجتمع ويتصل
الوعي الحقوقي ، وهو اكثر عناصر البنية الحقوقية الفوقية أهمية ، اتصالا
مباشرا بالوعي السياسي وهو لا يفصل احيانا عن الوعي السياسي
ويشترط الحل الصحيح لمسألة المكان الذي يحتله الوعي الحقوقي في
بنية الوعي الاجتماعي ايضاح صفاته الخاصة بتحليل تلك العلاقات بين
البشر ، التي يبدو كوجه لها

هل يملك الوعي الحقوقي طبيعة خاصة تميزه عن الوعي السياسي
وسواء من أنواع الوعي ؟ تسمح لنا الابحاث بالاجابة بـ « نعم » على هذا
السؤال فالوعي الحقوقي هو جملة الآراء التي تعكس علاقة البشر
بالحق القائم ، والتصورات التي يملكها البشر حول حقوقهم وواجباتهم ،
وحول شرعية او عدم شرعية هذا السلوك او ذاك واذا كانت الصفة
النوعية للوعي السياسي تتجلى في التعبير عن علاقة معينة بالتنظيم
السياسي للمجتمع ، فان الصفة النوعية للوعي الحقوقي تبدو قبل كل
شيء في التعبير عن علاقة مع النظم القانونية ، او مع التنظيم القانوني
للمجتمع ومن المعروف ان الحق هو ارادة الطبقة المسيطرة المرفوعة الى
قانون ، والقوانين تصدرها الدولة يعتبر القانون اذن اجراء سياسيا ،
ويعتبر سياسة « (٣٨) ويجسد الحق ويصوغ ، كما قال ماركس ،
بصورة عامة ، بصورة تملك قوة اكراه اجتماعي عامة (٣٩) تلك المطالب
السياسية التي تطمح طبقة ما لفرضها ورغم ذلك ، فان الحق هو اداة
لتحقيق سياسة الدولة دون ان يذوب فيها

وتعبر هذه الاستقلالية المعينة التي يملكها الحق عن نفسها في
الوظائف التي يؤديها . فقد نشأت في المجتمع الطبقي ضرورة توزيع السلع

المادية والفكرية ، بالتناسب مع النمط المعين للملكية وسائل الانتاج من اجل الاستخدام الفردي ، الامر الذي ما كان تنفيذه ممكنا لولا مساعدة القوانين ، هكذا نمت في المجتمع المنقسم طبقيا الحاجة الاجتماعية الى الانضباط ، والى استمرارية العلاقات الاقتصادية وسواها من العلاقات الاجتماعية . وهذه الحاجة لا يمكن ارضاؤها بدورها الا بمساعدة القانون . وكما نعلم فان الشيء الرئيسي في الوعي الحقوقي هو العلاقة بالقانون

بيد ان الامر لا يتعلق فقط بالعلاقة مع القانون يقول فاربر

« اذا كان الوعي الحقوقي لا يعني سوى علاقة المواطنين بقوانين الدولة ومتطلباتها الحقوقية ، لانه سيكون من المستحيل تمييزه عن الوعي السياسي ... غير ان الوعي الحقوقي هو معرفة تنصب على مجال خاص من الحياة الاجتماعية . انها معرفة لسائر الظواهر الحقوقية وبشكل رئيسي لتصورات حقوق وواجبات المواطنين ، وهذه لا يمكن ان تحصر في حقوق وواجبات سياسية فقط » (٤٠) .

والعلاقات الحقوقية المتشكلة وفق حقوق وواجبات أعضاء المجتمع (وهي حقوق وواجبات تحددها الدولة) تمثل جزءا من الظواهر الحقوقية . وفهم العلاقات الحقوقية ودورها في الحياة الاجتماعية يمكننا من القاء الاضواء على الصفة النوعية للوعي الحقوقي

في علم الحقوق توجد مناقشات حول العلاقات الحقوقية ويهم السوسيولوجيون في هذه المناقشة جانبها المنهجي ، دون جانبها الحقوقي هل العلاقات الحقوقية علاقات بنية فوقية ، واذا كانت كذلك ، فأين تكمن صفاتها النوعية ؟ ثمة وجهتا نظر تعترف احدهما بأن للعلاقات الحقوقية طابعا يدخلها في البنية الفوقية ، وتنظر اليها كشكل خاص للعلاقات الايديولوجية التي تنشأ خلال تأثير الضوابط الحقوقية على سلوك البشر بينما ترى وجهة النظر الاخرى في العلاقات الحقوقية مجرد علاقات اجتماعية تنظمها ضوابط قانونية يقول جوفه وشارجورودسكي في الاجابة على سؤال « ما هي العلاقة الحقوقية - هل هي نتاج للتنظيم القانوني للعلاقات الاجتماعية الواقعية ، ام هي وسيلة تخلقها الحقوق لتنظيم العلاقات الاجتماعية ؟ .. العلاقة الحقوقية هي نتاج للتنظيم الحقوقي لعلاقة واقعية ، ولهذا فهي تحدد كعلاقة اجتماعية تنظمها الضوابط الحقوقية » (٤١)

يؤدي فهم العلاقة الحقوقية كملاقة اجتماعية تنظمها ضوابط حقوقية الى مسح الحدود بين العلاقات الايدولوجية والمادية والى الاستغناء عن مفهوم العلاقات الحقوقية كملاقات بنية فوقية

وهذا الجانب الاخير يرتبط مع حل خاطئ للمسائل المنهجية المتعلقة بالانعكاس في مجال العلاقات الاجتماعية وبدور علاقات البنية الفوقية في الحياة الاجتماعية ان جوفه وشارجورودسكي لا يميزان بين موضوع الانعكاس (العلاقات المادية) ومحتوى علاقات البنية الفوقية وهذه العلاقات ليست بالنسبة لهما ، بالمعنى الاصلي للكلمة سوى شكل خارجي ينقصه المحتوى الموضوعي ولكن حين تتلقى علاقات البنية الفوقية « محتوى ماديا » ، فانها تنقطع عن ان تكون ظواهر بنية فوقية ان علاقات البنية الفوقية وبخاصة الحقوقية منها لا تملك اي محتوى موضوعي اذا لم تحتو على عناصر لعلاقات مادية واذا كانت لا تملك محتوى موضوعيا فانها لا تكون علاقات اجتماعية واقعية

تمثل علاقات البنية الفوقية تعبيرا عن علاقات مادية ويتكون محتواها من انعكاس العلاقات المادية في صورة معينة وعيانية وليس ثمة واد يفصل ما ينعكس عن عملية الانعكاس نفسها ، وان كانت هناك فروق بينهما فالاول هو الاساس والثاني نتاجه وتكون علاقات البنية الفوقية مستقلة نسبيا ، وتلعب دورا في حياة المجتمع ، لان لها محتوى موضوعيا

حين يفهم المرء العلاقة الحقوقية كنتاج للتنظيم الحقوقي لعلاقة واقعية ما ، فان السؤال عن دور العلاقة الحقوقية في تنظيم نشاط البشر يسقط تلقائيا غير ان العلاقات الحقوقية تنشأ في الواقع من الحاجة الى التأثير في سلوك البشر ، فتدافع الدولة عن العلاقات السياسية والاقتصادية وتعززها بواسطة الحقوق ، وتحمي بها العلاقات الاجتماعية التي تقوم سلطتها برمتها عليها وهذا يضطر اولئك الذين يدخلون في علاقة حقوقية ما ، الى مطابقة سلوكهم مع التعليمات والارشادات القانونية، اي مع ارادة الطبقة المسيطرة المرفوعة الى قانون ان التأثير العكسي للقانون على القاعدة الاجتماعية ، يتحقق في المجتمع الطبقي بواسطة العلاقات الحقوقية

والعلاقات الحقوقية صفة نوعية مميزة بوصفها تمثل نوعا خاصا

من علاقات البنية الفوقية وتكمن هذه في امتلاك من يدخلون علاقة حقوقية ما لحقوق ذاتية وواجبات قانونية مطابقة لها في نفس الوقت وتفرض الحقوق الذاتية ، أو امكانية انتهاج سلوك معين الى المواطنين او المنظمات عبر الضوابط الحقوقية وتفرض ، في نفس الوقت ، الضوابط الحقوقية على المنظمات الاجتماعية والدولية ، وعلى البشر التزامات تتجلى في ضرورة انتهاج سلوك معين لا محيد عنه والعلاقة بين الذين يملكون الحق من جهة ، ويخضعون للواجب من جهة أخرى ، هي العلاقة الحقوقية وتكون حقوق وواجبات الداخلين في علاقة حقوقية محتوى هذه العلاقة ، وهذا يعكس علاقات اقتصادية واجتماعية مستقلة عنه ، ويملك بالتالي وجودا واقعيا بهذا الصدد ، يستطيع المرء أن يتحدث عن علاقة بين البشر ، وليس بين أشياء وأعمال ومن المعلوم ان العلاقة بين البشر هي موضوع العلاقة الحقوقية وليست العلاقة نفسها

ويتجلى الجانب الارادي للعلاقة الحقوقية في الاجراءات التي تتخذ لحماية الدولة ، ولتحديد السلوك المتبادل لمن يقيمونها. وتكمن اكثر صفات العلاقة الحقوقية أهمية في انها تعبر دوما عن الارتباط بين بشر عيانيين. وفي هذا تتميز العلاقات الحقوقية عن العلاقات السياسية ، حيث تكون الطبقات هي الاطراف التي تمارس التأثير على بعضها بعضا ان السياسة هي العلاقات المتبادلة بين مجموعات بشرية كبيرة وكما قال لينين ، فان ما تدور السياسة حوله ليس بشرا متفردين ، ولا هم آلاف الناس ، بل الملايين (٤٢)

تشكل العلاقات الحقوقية على أرضية المعايير الحقوقية وهذه تؤثر في سلوك البشر بطريقة تكون نتيجتها نشوء العلاقات الحقوقية وتوصف العلاقات الحقوقية غالبا وكأنها معايير حقوقية متحققة ويتم نفي اية امكانية لنشوء العلاقات الحقوقية قبل تحديد معاييرها بواسطة الدولة

في مجتمع تكون فيه نظام حقوقي ، يعتبر نشوء العلاقات الحقوقية مرتبطا في السواقع بالضوابط الحقوقية بيد ان الحكم القطعي حول استحالة تأسيس علاقات حقوقية بدون الضوابط المطابقة لها ، يصلح بالكاد بالنسبة لمجتمع يمر في مرحلة تأسيس نظام جديد ويقول كتاب اصدره كيتشيكيان ان الحق يظهر تاريخيا كنظام علاقات حقوقية ، وانه في المراحل التي تنشأ فيها حقوق من نوع جديد تسبق العلاقات الحقوقية في حالات

غير قليلة الضوابط الحقوقية (٤٣) ولا تشكل الحقوق الاشتراكية استثناء لذلك فقد نشأت علاقات حقوقية متفرقة كقوانين السكن والتملك... الخ دون أن تكون هناك ضوابط حقوقية مطابقة لها (٤٤) وقد عززت الضوابط الحقوقية التي حددتها الدولة فيما بعد العلاقات الفعلية الماثلة عد تكرارها

ان الحالات التي تنشأ فيها العلاقات الحقوقية قبل تحديد الضوابط الحقوقية المطابقة لها لا تلغي الصفة الخاصة المميزة للعلاقات الحقوقية بل هي تبرز أهمية الانصراف الى تحليل الظواهر الاجتماعية تحليلًا تاريخيًا وهي تؤكد ثانياً ان علاقات البنية الفوقية الفعلية يمكن أن توجد قبل تشكل نوع الوعي المطابق لها وتتكون علاقات البنية الفوقية فعلاً قبل نشوء التصورات والافكار الاخلاقية والسياسية والحقوقية وسواها وتحدد الصفات النوعية لانواع الوعي الاجتماعي، ليست الافكار والتصورات ، التي تتكون هذه أو تلك من علاقات البنية الفوقية بالتطابق معها ؛ هي التي تحدد خصوصية العلاقات ، بل بالعكس تعطي علاقات البنية الفوقية للافكار والتصورات خصوصيتها ولكن مصدر علاقات البنية الفوقية ، وتصورات البشر هي العلاقات المادية التي تحدد محتوى علاقات البنية الفوقية

ويتم الارتباط بين الوعي الحقوقي والعلاقات الحقوقية عبر الضوابط الحقوقية وتبدو الضوابط كمؤسسات للبنية الحقوقية الفوقية للمجتمع التي تدعم تحقق الافكار والتصورات في العلاقات الواقعية للبشر

يرتبط تحديد ضوابط الوعي بالنظرات الحقوقية كما يرتبط تكون العلاقة الحقوقية بالضوابط الحقوقية ولكنه يوجد بينها أيضاً ارتباط معاكس وترسخ العلاقات الفعلية في القوانين ويؤدي وعي القوانين وتعليلها والدفاع عنها الى خلق النظريات الحقوقية ، والى وضع ايدولوجية حقوقية ان الطابع الارادي للعلاقات الحقوقية الذي يتركز على التعبير عن ارادة الطبقة المسيطرة ، يمنح أيضاً للوعي الحقوقي خصوصيته اما النظرات الحقوقية فهي عنصر يتضمن تصور ما هو مرغوب في مجال الحقوق ويرتبط محتوى الوعي الحقوقي من نواح كثيرة بالعلاقات الحقوقية ، ولكن تعليله النهائي يقع في العلاقات الاقتصادية التي تعين العلاقات والضوابط والوعي الحقوقي .

يمكننا محتوى الوعي الحقوقي من استنتاج خصوصية هذا النوع من الوعي الاجتماعي وينقسم محتوى الوعي الحقوقي قبل كل شيء الى تصورات حول علاقة البشر بالحقوق المعمول بها ونظرات حول حقوقهم وواجباتهم ، وشرعية أو لا شرعية سلوك معين ويحتوي الوعي الحقوقي ايضا على المطالب الحقوقية الجديدة حول قبول قوانين جديدة أو تعديل القوانين القديمة

ويستكمل الوعي الحقوقي بوصفه مجموعة الآراء والتصورات في بعض الاحيان بالمشاعر حيال ما هو قانوني ولاقانوني ، عادل وظالم وبهذه المناسبة فان محاولة فهم المشاعر القانونية كمقولة خاصة للوعي الحقوقي لا تستند الى اي أساس لماذا يمثل الشعور بالعدل حيال قانون ما ظاهرة حقوقية وليس ظاهرة أخلاقية ؟ ان الاخلاق تعكس علاقات المصالح بين البشر من منظور فائدتها أو ضررها عدالتها أو ظلمها وعلى سبيل المثال فان الشعور الاخلاقي بالعدل أو الظلم يعبر عن العلاقة مع النظام الاجتماعي والسياسي القائم ومع القوانين وفعالية هذه أو تلك من المؤسسات والتنظيمات وسلوك البشر ومن الضروري السؤال عما اذا كان من المجدي عزل الشعور بالعدالة في علاقته مع قانون ما والنظر اليه كمنصر من عناصر الوعي الحقوقي اذا كان لا يتميز عن الشعور بالعدالة الذي يعبر عن نفسه حيال النظام الاجتماعي القائم بمجمله ، أو حيال سلوك الانسان الفرد ان مثل هذا التمييز ليس مجد ، ولا توجد مقاييس له ومن الطبيعي ان الاسباب التي تستثير مثل هذه المشاعر متنوعة يمكن ان تتمايز فسي زخم بروزها واستمرارها ، وتبقى دوما شعورا بالعدالة والمواطف التي يعتبرها فاربر حقوقية ، هي في الواقع اخلاقية ترتبط بالتقييم الاخلاقي للقوانين وتطبيقاتها أما السؤال عن العناصر النفسية - الاجتماعية في الوعي الحقوقي فانه مبرر تماما فالى جانب الايديولوجيا الحقوقية التي تمثل تعميمات نظرية للظواهر الحقوقية ، تشكل جزءا من الوعي الحقوقي تلك النظرات التي تعتبر عادة وعيا حقوقيا بالمعنى الاصلي للكلمة

يمكن الوصول ايضا الى خصوصية الوعي الحقوقي عبر الدور الذي تلعبه في حياة المجتمع وعند دراسة هذه المسألة يتم التأكيد غالبا على ان الوعي الاخلاقي يقدم لنا فكرة القانون ، وان تطبيقه يحدث بفضل شرح معناه من جهة ، وتحديد العقوبات من جهة ثانية . اضافة الى ذلك ، يعكس

الوعي الحقوقي ، بسبب حركيته ، أكثر من سواه من عناصر البنية الفوقية التناقضات بين شروط الحياة المتغيرة والقوانين القائمة وفي الظروف الاشتراكية لا يستند تطبيق القوانين على السلطة القهرية للدولة ، بقدر ما يستند الى الوعي الحقوقي للشعب وهذا يظهر الاهمية الرفيعة لهذا النوع من الوعي في المجتمع الجديد

هذه العناصر التي قدمناها تغطي نسبيا اهمية الوعي الحقوقي في الحياة الاجتماعية ، ولكنها لا تستنفذها بأي حال والواقع ان دور الوعي الحقوقي لا يتضح الا اذا ارتبط بنشاط الوعي الاجتماعي عموما الذي تجلى في اوضاع الوعي المحددة هكذا لا يفسر تقييد المواطنين الطوعي في المجتمع الاشتراكي بوعيهم الحقوقي فقط بل بمجموع وعيهم الاجتماعي الاشتراكي وثانيا لا يمكن فهم دور الوعي الحقوقي الا بربطه مع تأثير البنية الفوقية الحقوقية بمجملها ، التي تضم الوعي الحقوقي والمؤسسات (مجموع الضوابط الحقوقية والعلاقات الحقوقية ان الوعي الحقوقي لا يملك وظائف خاصة بالمقارنة مع الجوانب الاخرى للبنية الفوقية الحقوقية ، ولهذا ينسب الدور الذي يلصق بالوعي الحقوقي الى مجموعة البنية الفوقية الحقوقية ويخدم الوعي الحقوقي ، بالارتباط مع الضوابط الاخلاقية العلاقات الاخلاقية ويشكل جانبا منها ومن هذا الدور يمكن الوصول الى الخصوصية التي يملكها الوعي الحقوقي

الوعي الديني :

« لقد انتصر المسيح لان سبارتاكوس
قد هزم »

انشلان

حسب تعريف لانجلز يعتبر الدين انعكاسا خياليا ووهما في رؤوس البشر لتلك القوى الخارجية (الاجتماعية والطبيعية) التي تهيمن عليهم في حياتهم اليومية انها انعكاس خيالي تأخذ فيه القوى الارضية وضع قوى فوق ارضية (٥) ليس كل خيال ديني فالدين هو الخيال الذي ينصب على ما هو فوق ارضي ويقود بعيدا عن الواقع العملي وقد قال لينين ان الدين هو خيال مريض

بحسب جذوره يعود الدين الى اعماق العصور القديمة ولا يمكن فهم عملية نشوئه الا بتحليل العلاقات المتبادلة بين المجتمع والطبيعة في وقت كان المجتمع نفسه ينشأ فيه من المعروف ان العمل كان العنصر المعين لصيرورة الانسان الفرد والمجتمع ككل وفي سياق العمل تكونت علاقات معينة بين البشر والطبيعة بيد ان العلاقة مع الطبيعة بما هي طبيعة ، والطبيعة نفسها لم يكونا قد انتجا بعد الوعي الديني ان ظهور الدين قد نشأ من الصفة النوعية لعلاقة البشر مع الطبيعة التي لم يكن جانبها الرئيسي سيطرة الانسان على الطبيعة بل بالعكس سيطرة الطبيعة على الانسان

ثمة جانبان للفعالية البشرية وعلاقتها بالطبيعة او كما قال دونيني باحث الاديان الايطالي

« ان العلاقات التي نشأت قبل عصور سحيقة بين الانسان والطبيعة كانت تملك دوما طبيعة مزدوجة . فمن جهة كانت هناك سيطرة الطبيعة الكلية القدرة على الانسان الذي لا حول له ولا قوة ، وكان هناك من جهة ثانية التأثير الذي طمح الانسان لاحدائه في الطبيعة ، وان بأشكال محدودة وناقصة ، من خلال استخدام أدوات عمله ، وقسوى انتاجه ، وفقراته الخاصة » (٦) .

بهذا الجانب الاول للعلاقة المتبادلة بين الطبيعة والمجتمع التي عبرت عن ضعف الممارسة الانسانية ومنحت العلاقة بين الطبيعة والمجتمع عموما سمتها الخاصة يرتبط ايضا ظهور الوعي الديني

يسمح التفسير المادي لجذور الوعي الديني بمتابعة نشوء التصورات الدينية عبر دراسة محدودية الممارسة البشرية ، وضعف الانسان امام قوى الطبيعة العفوية فقد ادت سيطرة الطبيعة على الانسان الى لجوء البشر لوسائل تأثير في الطبيعة لا وجود لها الا في خيالهم واوهامهم فكانوا يقلدون فعاليات انتاجية كثيرة كالقنص والصيد هكذا كان السكان الاصليون لاوستراليا يرسمون على الرمل حيوان كونغرو ويطعنونه بالرمح قبل انطلاقهم الى الصيد على امل ان الصيد سيكون بعد هذا الطقس ناجحا الى جانب هذه الاعمال الواقعية تكونت ايضا اعمال رمزية وهو ما ادى الى ازدواجية في الوعي ايضا لقد نشأ نظام كامل من الطقوس ، اساسه الايمان بامكانية التأثير بقدرة قوى ما فوق الطبيعة على الظواهر والاشياء المحيطة بالانسان وهذا النظام سمي سحرا فيما بعد

انتج الضعف الفعلي للانسان حيال قوى الطبيعة وحاجته التي لم يتم ارضاؤها للتأثير على الطبيعة وعيا مغلوطا لديه وساعدت عفوية التطور الاجتماعي في ظروف المجتمع الاول على نشوء الوعي الديني. وفيما بعد ، وفي المجتمع الطبقي تحول هذا الى السبب الرئيسي للوجود الفعلي للوعي المغلوط

وتفسر الصفة النوعية للوعي الديني بالاسباب التي ادت الى ظهور هذا النوع من الوعي وتكمن في الايمان بما هو فوق ارضي الذي خلقتة القدرة البشرية على التخيل ان الايمان بكائن فوق الطبيعة يشكل جوهر الوعي الديني هو علاقة خاصة مع موضوعات موهومة تتصف حسب اوجرينوفيتش بثلاث صفات

اولا بالايمان بواقعية وجود كائنات ، او صفات ، او علاقات ما فوق الطبيعة

ثانيا بالمعانة الشخصية لملاقة ما مع قوى ما فوق الطبيعة

ثالثا : العلاقة « الوهمية - الفعلية » للبشر المتدينين مع قوى

ما فوق الطبيعة « (٧) »

ويعتقد الانسان الديني ان توجهه الى قوى ما فوق الطبيعة يستثير

نفوذها الخير على حياته ولان الارتباط بقوى ما فوق الطبيعة يحمل طابعا متصورا ، فاننا نقول انه « فعلي – وهمي »

تطبع هذه الصفة الخاصة بطابعها محتوى الوعي الديني ، أي اتجاهات الايمان ، وتصوراتها ، وعقائده الخ ، التي تشكل الوعي الديني العادي والايديولوجية الدينية (اللاهوت)

ويشترط التحليل السوسيولوجي للوعي الديني ، شأنه في ذلك شأن غيره من انواع الوعي الاجتماعي الاخرى ، تفسير تبعيته الاجتماعية والصفات الخاصة به ، والعلاقات التي يرتبط بها في الحياة الواقعية اي التي يشكل هو جانبها هذه العلاقات لها وجود فعلي ، وهي تشكل مع الوعي الديني محتوى الظواهر الدينية المعقدة ، محتوى البنية الدينية الفوقية من هذه العلاقات تلك التي ترتبط بأفعال العبادة ، اي بالافعال البشرية التي يحاول الناس بمساعدتها احراز نفوذ ما على الموضوعات فوق الطبيعية للدين ، والتي ترتبط بالعلاقات بين المؤمنين الذين هم اعضاء تنظيمات معينة

ما هو الارتباط بين الوعي الديني وافعال العبادة ؟ يشير العالم الاتنوجرافي السوفياتي الشهير **توكاريف** الى ارتباط الوعي الديني بأعمال العبادة في سياق تكون السحر وهو يميز سلسلة من مراحل هذا السياق

(ا) العمل الانساني المباشر ، العلوي ، ولكن الذي يتضمن هذا (الممارسة المادية) .

(ب) نفس العمل ، يفهم كفعل لقوة سحرية ، فيرتبط بفكرة قوى ما فوق الطبيعة .

(ج) يبدأ التصور الناشئ حول القوة السحرية بالتأثير في اعمال البشر ، فيتحول الفكر العقلاني الى طقس سحري « (٤٨) » .

ويؤكد **توكاريف** لدى تفسير تتابع مراحل عملية تشكل السحر وترباط الافعال السحرية ان السحر ينتج مع الزمن تصورات خاصة به تصبح بفكرة قوى ما فوق الطبيعة « (٤٩) »

يظهر **توكاريف** بوضوح ان الاعمال اليومية تشكل مادة لتكوين الطقوس السحرية ، وان « الممارسة السحرية تستطيع ان تخلق بدورها « نظرية سحرية » . وهذه النتيجة تدعمها كمية هائلة من البراهين .

لا ينشأ أي نظام للأفكار والتصورات مرة واحدة ، لان الفعالية الانسانية والعلاقات الاجتماعية تشترك في تحديده داخل مجال البنية الفوقية وفي الواقع تسبق نشوء الآراء الاخلاقية والسياسية والحقوقية غالبا العلاقات المطابقة لها ، بحيث تكون هذه الآراء نتاج وعي هذه العلاقات. ولا تشكل الآراء الدينية استثناء من ذلك ويمكن أن نقول ان « السحر ينتج تصورات تتصف باصطباغها بصبغة قوى ما فوق الطبيعة ولكن حين تكون الافكار والآراء قد نشأت ، فانه يحدث عندئذ اعادة انتاج اعمال وعلاقات معينة في مجال البنية الفوقية بالتطابق مع هذه الافكار والآراء

يمكن الارتباط بين التصورات الدينية والاعمال الطقوسية في ان الاولى لا توجد بما هي تصورات دينية ، اذا لم تعبر عن نفسها في أعمال طقوسية اما الثانية فلا تكون سحرية ، ان لم ترتبط بتصورات دينية معينة ان التصورات الدينية وطقوس العبادة يشترطان بعضهما بعضا ويبدوان كجانبيين للحياة الدينية اي من هذين الوجهين هو المحدد ، الوعي أم الطقوس ؟ من الواضح اننا لا نستطيع أن نقدم اجابة قاطعة على هذا السؤال فكلما الوجهين لهما منبع مشترك يحدد التصورات الدينية كما يحدد الطقوس هو هيمنة قوى خارجية على الانسان ان للتصورات الدينية وطقوس العبادة اساسا واحدا وفي اطار الدين لا تحدد الآراء لوحدها تكون الطقوس السحرية ، بل تمارس هذه الاخيرة ايضا نفوذا كبيرا على تطور الوعي الديني وكمجال للحياة الدينية اليومية والعملية تحدد العبادة (او تعيد انتاج) الوعي الديني بالضرورة ، وخاصة على صعيد الوعي اليومي

الى جانب العلاقات الوهمية مع قوى ما فوق الطبيعة توجد في الدين علاقات من نوع آخر انها العلاقات الواقعية تماما بين البشر المؤمنين الذين يلتقون لممارسة العبادة وحسب طبيعتها تمثل هذه علاقات بنية فوقية ، لانها تتعين بالشروط الاجتماعية للحياة الاجتماعية

تكوّنت العلاقات بين المؤمنين ، بهدف ممارسة العبادة ، تاريخيا بالاساس كان جميع افراد الجماعة يشتركون في طقوس العبادة وكان دورهم من طينة واحدة ومع التطور اللاحق بدا بعض الافراد بالبروز في اطار المجتمع الاول ، واخذ هؤلاء يمارسون دورا هاما في الطقوس ثم مع توزع المجتمع الى طبقات ظهرت تنظيمات دينية وظيفية لخدم العبادة ،

كانت اشكالها وانماطها مرتبطة بالطينة التاريخية للظروف الاجتماعية في مرحلة تاريخية ما ، فمكست البنية الاجتماعية للمجتمع (٥٠) وشرع المحتوى الرئيسي للعلاقات بين البشر المشتركين في العبادة الدينية يصبح علاقة متبادلة بين « الرعية » و « رجال الدين » ، بين « التجمع الديني » و « قادة » طقوس العبادة

ترتبط العلاقات بين المؤمنين والتنظيمات الدينية نفسها ارتباطا وثيقا بالوعي الديني ويبدو ذلك في ان العلاقة بين البشر وتنظيماتهم كانت تتحدد وفقا لتصوراتهم الدينية ولكن بعد تكون العلاقة أخذت تلعب دور الاساس الذي ينتج بصورة مستمرة التصورات الدينية

ان ارتباط الوعي الديني مع طقوس العبادة ، ومع العلاقات بين المؤمنين ابان ممارسة الطقوس ، ومع التنظيمات الدينية يمكننا من القاء الضوء على الدور الذي يلعبه الوعي الديني في حياة المجتمع وبصورة عامة يمكن القول ان هذا الدور يستنفذ نفسه في خدمة الممارسة الدينية ، اذ تتحول طقوس العبادة والعلاقات بين المؤمنين وفعالية التنظيمات الدينية ، نتيجة للتصورات والافكار المنصبة على قوى ما فوق الطبيعة ، الى وعي ديني وتسم الممارسة الدينية ومكانها في المجتمع ، الوعي الديني أيضا

في الدراسات التي تحلل الدين على مستوى سوسيولوجي ، يلقي الضوء على دور الوعي الديني من خلال الممارسة الدينية ويظهر ليفادا ، باستخراجه العلاقات الدينية من الظروف المعطية لحياة المجتمع الواقعية الدور الناشط لهذه الصيغ ان ليفادا ينطلق من وجود نمطين من الفعالية في المجتمع اعادة انتاج الادوات الضرورية للوجود واعادة انتاج اشكال الاتصال التي تشكل بجملتها نظام تحكم تطوره وتستخدمه العضوية الاجتماعية

« ان الاهمية التاريخية والصادر التاريخية للدين ، كمؤسسة اجتماعية ، ترتبط بتطور نظام تحكم المجتمع البشري » (٥١)

ويلعب الدين دور شكل اتصال (صيغة اتصال) داخل التنظيمات الاجتماعية التي تكون بنيتها الاجتماعية واشكال النقل والتحويل الثقافي فيها ، بحاجة الى « تكملة » دينية وتعتبر « بحاجة الى الدين » و « منجبة له » تلك الثقافات الاجتماعية واشكال الاتصال التي تحافظ

على طرز « متسقة » للنقل الثقافي ، أو بكلمات أخرى ، مختلف أشكال الاتصال ، ما دامت تفعل فعلها بداخلها طرز متسقة للوعي والتحكم الاجتماعي

وتكمن أكثر وظائف الدين عمومية في انه يتم بداخله ، وفي شكل خيالي تجاوز وازاحة « التناقضات الواقعية الهامة للحياة والتفكير البشريين فيبدو المستحيل ممكنا والاستثنائي عاديا والعرضي ضروريا ، وغير الشخصي شخصا ، والفاني خالدا وتظهر وتهمين اثناء ذلك ظروف مختلفة **لأنماط مختلفة** لمثل هذه التناقضات (٥٢)

ويتضح الدور الايجابي للدين في المجتمع من خلال تحقق هذه الوظائف استبدال التجاوز الواقعي لتناقضات الحياة الاجتماعية بتجاوز وهمي وخيالي والاطروحات المعروفة لكلاسيكي الماركسية حول دور الدين الاجتماعي تعطي هذا الدور طابعا سلبيا بصورة أساسية

ثمة براهين تاريخية كثيرة على الدور السلبي للدين كمثال على ذلك نستطيع ان نسوق المسيحية التي نشأت في القرن الاول من تقويمنا ، في عصر انحلال الامبراطورية الرومانية ، في مجتمع ملاك عبيد تجاوزهم التطور السياسي والاقتصادي والفكري ويشهد عدد كبير من انتفاضات العبيد والفلاحين الاحرار وفقراء المدن في العالم القديم على الاحتجاج النشط ضد الاضطهاد والظلم الاجتماعيين غير ان الانتفاضات ضد الارستقراطية التي كانت تجسد العالم القديم ، قد اخمدت بوحشية تحت هذه الظروف نشأت المسيحية كنظرة الى العالم تعبر عن فقدان الايمان بتحطيم العالم القديم والتحرر من النير الاجتماعي وقد قال باحث التاريخ الديني الفرنسي أنشلان

« لقد انتصر المسيح ، لان سبارتاكوس قد هزم » .

ويمكن تمييز مرحلتين في تطور المسيحية داخل الامبراطورية الرومانية فقد شعر المسيحيون الاوائل بالكره حيال ملاك العبيد وكانوا يؤمنون بأن النظام الظالم سيندر ، وستقام في مكانه مملكة للعدالة على الارض وكانوا يأملون ان يحققوا توقعاتهم الاجتماعية بمساعدة السماء ومن المعروف ان في اساس نظرية الايمان المسيحية الايمان بيسوع وهمي ، ابن الرب « الذي نزل من السماء الى الارض ليخلص » البشرية بعد موته ، يقول هؤلاء المؤمنون ، اسرى المسيح الى السماء ،

ويجب على المسيحيين انتظار عودته وقد انتظروا عودته فعلا ، وهم يتحملون الاذى ، ويقاسون الظلم ، لان ذلك بحسب تصوراتهم يعجل في عودته

بالاصل كانت المسيحية « ديمقراطية - ثورية » في روحها ، اي بقدر ما ادخلت الجماهير المضطهدة طرحها العفوي نحو الثورة الاجتماعية اليها هذا الوضع الخاص يمكن فهمه من خلال التركيب الطبقي للجماعات المسيحية الاولى التي كانت تتألف بصورة رئيسية من عبيد وفقراء **في تلك المرحلة مثلت المسيحية ايدولوجية للعبيد والاحرار الذين حل بهم الفقر** هذه الصفة النوعية التي تميز المسيحية الاولى تفسر طبيعتها المتناقضة بيد ان المسيحية قد ابعدت ، برغم روحها الديمقراطية - الثورية ، العبيد وفقراء الاحرار عن النضال الحقيقي ضد الاستغلال والاضطهاد وكان منطلقها الرئيسي هو « **انتظار المنقذ السماوي والتمسك بامل عودته** » هذا الايمان ، والتخلي عن النضال الفعلي ، لعبا منذ البداية دورا سلبيا من الناحية الموضوعية

اختفت الطبيعة المزدوجة للمسيحية بصورة مضطردة مع ترسخ العلاقات القطاعية في المجتمع فتحوّلت المسيحية في جوهرها وشكل التعبير عن آرائها الى **ايدولوجية لنظام المستغلين** فحثّ مبشروها في القرنين الثاني والثالث من تقويمنا المضطهدين والمسلوبين الحقوق ، المذلين والمهانين ، على تحمل الفقر والعذاب بصبر من أجل امل أكثر بعدا من امل عودة « المخلص » وهو امل الحياة الافضل ، ليس فوق الارض ، بل في السماء وشرعت المسيحية تطلب الطاعة حيال الحكام ان افكار الخضوع والاستسلام حيال البشر قد وجدت تعبيرها في كتب تلامذة المسيح وسواها من الادبيات المسيحية المبكرة لقد طالبت المسيحية العبيد بأن يتحولوا من عبيد بالاكراه الى عبيد بالقناعة هنا تبرز المهمة الاجتماعية للدين ، في المجتمع الطبقي ، بصورة واضحة

وتعزز الدور السلبي موضوعيا للمسيحية بمقدار تنامي نفوذ **الطبقات السائدة** ضمن الجماعات المسيحية مع تنظيم الكنيسة وبينما كانت الجماعات الاولى تتشكل من عبيد وفقراء فقط ، دخلها خلال تطورها اللاحق اغنياء كانوا في نفس الوقت على راس العبادات الدينية ثم بعد مائتين وخمسين سنة من نشوئها تم الاعتراف بالمسيحية كدين للدولة .

ونشأ تحالف بين الدولة كأداة اضطهاد في يد الطبقات المسيطرة اقتصاديا وبين الكنيسة ، تمكنت الطبقات المستغلة بواسطته من استخدام الكنيسة كأداة هامة في عملية نشر روح الخنوع والعبودية بين الجماهير

ان الدور السلبي للدين - مهما كان الشكل الذي يظهر به - يكمن في انه يحول بين الانسان والنضال ضد المساوء الاجتماعية ، وفي سبيل اعادة صياغة الطبيعة وفق مصالحه

الوعي الجمالي

« ان الابداع وفق قوانين الجمال يعني الانتاج
وفق مقياس كل نوع ... »
ماركس

نشأ الوعي الجمالي على ارضية علاقة الانسان بالواقع شأنه في ذلك شأن الوعي الديني، لكن العلاقة التي حتمت نشوء الوعي الجمالي تمتاز بطابع مختلف ، ولهذا يمتاز هذا النوع من الوعي عن الوعي الديني. يرتبط الوعي الجمالي بالنشاط وبالروابط الجماليين للانسان مع الواقع ويعبر نشاط الانسان الجمالي عن نفسه في عمل الانسان وطريقة حياته وفنه ويكمن جوهره في تغيير واعادة انتاج الموضوعات وظواهر الواقع حسب قوانين الجمال ونحن نفهم الجمال بوصفه تامة موضوعات وظواهر الواقع كتب ماركس

« ان الابداع ، وفق قوانين الجمال ، يعني الانتاج وفق مقياس كل نوع ... ووضع المقياس اللصيق بالموضوع هي كل شيء » (٥٢) .

و « مقياس » الموضوعات والظواهر هو تعبير عن صفاتها الجوهرية ، عن نوعيتها اما وضع المقياس الخاص ، فيعني الى اي حد تجسد ظواهر وموضوعات مشخصة معينة صفاتها الجوهرية ، النوعية ، في تعبيرها الخارجي ؟ او بكلمات اخرى الى اي حد تسمح هذه الظواهر والموضوعات بالتغلغل الجمالي في الواقع ، من اجل كشف صفاته الجمالية ، والابداع بما يتوافق معها ؟ والانسان ، كما قال غوركي فنان بحسب طبيعته ، لانه يطمح لادخال الجمال بهذه الطريقة او تلك الى كل شيء

ان الاحاطة الجمالية بالواقع ، وبذل النشاط وفق قوانين الجمال ، هما نتاج للتطور التاريخي للمجتمع ، ويتحددان بالفعالية المادية للانسان اين يكمن جوهر الروابط الجمالية وخصوصية الوعي الذي يتعين

بها ، وما هي العلاقة الجمالية ؟ سنعتمد في الإجابة على هذه الاسئلة على أعمال قامت بتحليل العلاقات الجمالية بالنسبة لعلم الجمال توجد روابط جمالية في « الوجود الاصلي » وهذه هي المرحلة الاولى ، المقولة الاولى التي بدأت التطور المنطقي اللاحق للمقولات الجمالية وهي اكثر الروابط تمميما ، فاذا تجاوزناها ، اختفى ما هو جمالي كمقولة محددة وهي أيضا أول علاقة نصادفها ، حين نبدأ تعارفنا العاطفي والتجريبي مع عالم الاشياء الجمالية (٥٤) هذا ما كتبه **كروكوفسكي** في مقولات علم الجمال ثمة امساك بالانواع الرئيسية للرابطة الجمالية بين الانسان والواقع ، وهذه هي « موضوع الفن » باختصار ، ان علماء الجمال يضعون النوع الذي ذكرناه على رأس تأملاتهم ، لذا يجب على المرء أن يعود الى اعمالهم ، اذا ما أراد أن يجيب على المسائل المطروحة

يشرح **ستولوفيتش** الصفة النوعية للروابط الجمالية بمقارنتها مع الروابط النفعية - العملية والمعرفية - العلمية ، حيث تتميز الروابط الجمالية قبل كل شيء بموضوعها فبينما تعتبر نوعيات وصفات الاشياء ، التي قد تستخدم في ارضاء حاجات البشر المادية ، موضوعا لروابطهم النفعية مع الطبيعة ، وتعتبر الروابط المعرفية - العلمية قوانين العالم الموضوعي موضوعا لها ، نجد ان « موضوع الرابطة الجمالية هو الصفات الجمالية للواقع (٥٥) وتمتاز العلاقة الجمالية فضلا عن ذلك في ان « الفكرة والشعور يدوبان فيها ويشكلان وحدة » (٥٦) ثمة رابطة بين الفكرة والشعور في سائر العلاقات ، ولكن في المعاشة الجمالية يتشبع الشعور بالفكرة ، وتفقد الفكرة موضوعا للشعور ، بحيث يعني فصل أحدهما عن الآخر تحطيم عملية عملية المعاناة الجمالية » (٥٧) وفي الختام تتميز العلاقة الجمالية أيضا بوظيفتها الاجتماعية ، ومعناها الفعلي. الرابطة الجمالية لا تقصد هدفًا ماديًا ، كما هو الحال في الرابطة النفعية - العملية ، بل هي غير نفعية

هذه الشروح لستولوفيتش حول العلاقات الجمالية لا توضح بما فيه الكفاية الصفة النوعية لهذا النوع من العلاقات ، لان الموضوع ، الذي تشكل هذه العلاقات بالارتباط معه ، لا يملك حسب ستولوفيتش صفات نوعية جمالية ونعتقد ان ستولوفيتش لا يستطيع ادراك الصفة النوعية المذكورة ، لانه يماثل ما بين العلاقات و « الحسن الجمالي » ، أو « المعرفة الجمالية » ، وينسب صفاتها الخاصة الى العلاقات . غير ان الاحاطة

بالعالم بواسطة الصور لا يستنفذ بأي حال الروابط الجمالية فالرابطة توجد ، حيث يوجد تقييم و تبيين والرابطة الجمالية (العلاقة الجمالية هي نوع من الروابط التقييمية التي تتكون بالتوافق مع المعرفة

ولا يمكن تفسير خصوصية الروابط الجمالية اذا اقتصرنا على دراسة ظهورها في مجال الوعي فالروابط الجمالية تتجاوز مجال الوعي وتحقق في الفعالية الجمالية وعلى سبيل المثال تتموضع الرابطة الجمالية للانسان مع العمل في مشاريع نشاطه ، وجمالية الاشياء والموضوعات التي يخلقها بل ان الفعالية الجمالية للانسان نفسه يمكن فهمها كعلاقة جمالية

واخيرا يجب على المرء عند شرح خصوصية العلاقات الجمالية مراعاة طبيعتها المزدوجة فهي من جهة علاقات بين موضوع وذات ، حيث الموضوع هو الواقع والذات هي الانسان ومن جهة هي روابط بين البشر ، تتكون على اساس رابطتهم مع الواقع هذه الطبيعة المزدوجة للروابط الجمالية حاولت مجموعة من الاعمال الاحاطة بها ، وان كانت لم تنجح في ذلك بصورة كافية. فيقول **جولدنتريش** عند دراسة الروابط الثقافية كموضوع للفن ان هذه الروابط ليست سوى ارتباط الفرد بالمجتمع ولدى التدقيق في طبيعة هذا الارتباط لا يلبث ان يقلصه الى رابطة الانسان بظروف حياته الموضوعية او بصورة أدق ، الى شروط فعالية للمواهب الخلاقة للانسان وتحققها الموضوعي ، والى التمتع بثمار هذه الفعالية (٥٨) حسب الشكل يعالج **جولدنتريش** الروابط الجمالية كروابط بين الفرد والمجتمع اي بين ذاتين ، بينما هي روابط ذات بموضوع

يشير **يجوروف** الى وجود العلاقات الجمالية كروابط موضوعية وهو يوضح ان « العلاقات الجمالية للبشر تنشأ على ارضية علاقات الانتاج المتطورة » ، وانها تحمل طابع بنية فورية وتوجد خارج وعي البشر (٥٩) ان صيغة **يجوروف** حول العلاقات الجمالية كروابط موضوعية تستحق الاهتمام ، ولكن المرء لا يستطيع الموافقة على اطروحات هذا العالم فهو يكتب مثلا ان المؤسسات الفنية تحمل طابع بنية فورية ، اما الروابط البشرية بداخلها فهي ذات بنية ايديولوجية ، ولان هدف هذه المؤسسات هو التأثير الفكري - الجمالي بالمجتمع ، فاننا امام علاقات ايديولوجية ذات طبيعة جمالية تنمو على ارضية الاساس الاقتصادي القائم (٦٠)

من المعروف انه يوجد بين العاملين في المؤسسات الفنية روابط اجتماعية مختلفة كالروابط الاخلاقية والحقوقية وغيرها وليس من المعقول تحويلها جميعا الى روابط جمالية لمجرد ان هدف هذه المؤسسات هو التأثير الفكري - الجمالي بالمجتمع وليس من المعقول تصنيف العلاقات بين الفنانين كعلاقات جمالية ، لمجرد انها تقوم بين فنانين وفي نفس الوقت يشرح يجوروف العلاقات المتبادلة بين الفنانين ومستهلكي الفن - وهي علاقات يمكن اعتبارها فعلا علاقات جمالية - قائلا بين القارئ والكاتب وبين الجمهور والفنانين تتشكل في كل مجتمع روابط ذات طبيعة جمالية ، ترتبط دوما بصورة وثيقة مع العلاقات السياسية والاخلاقية وغيرها من الروابط الايديولوجية (٦١)

الملاحظات السابقة حول العلاقات الجمالية تمكنا من الاستنتاج بأن لهذه العلاقات وجودا واقعا ، وان كان ايضا طبيعتها وطابع شكل ظهورها لا يزالان بحاجة لدراسات اكثر علمية وعلى كل حال فان أساس ظهور العلاقات الجمالية ونشوء الفعالية الجمالية يتمثل فيما هو جميل في الواقع نفسه وليست الروابط الجمالية سوى تقييم لظواهر العالم من منظورات نوعيتها الجمالية

نشأت العلاقات الجمالية كروابط للانسان مع الواقع ومع تكون الفن كفرع خاص للنتاج الفكري بدأت هي تظهر ايضا كروابط بين البشر في هذه الحالة غدا موضوعها هو الخلق الفني اعادة انتاج ما هو جميل في الفن وتعزز الطابع الاجتماعي لرابطة الانسان الجمالية مع الواقع من خلال العلاقات المتبادلة للبشر المنصبة على الفن ومنذ المجتمع القديم تمثل العلاقات الجمالية واحدا من الانواع الاساسية لعلاقات البنية الفوقية

يرتبط الوعي الجمالي ارتباطا مباشرا بالعلاقات الجمالية وترباطهما مزدوج فمن جهة تتكون على أساس الاحاطة الجمالية بالواقع الروابط المطابقة معه ، ومن جهة ثانية تكون الروابط الجمالية نفسها أساسا لتعيين وعي البشر

لا يمكن الكشف عن خصوصية ومحتوى الوعي الجمالي الا بالارتباط مع الصفات الخاصة للعلاقات الجمالية وهذا امر مفهوم ، فالوعي يتحقق في علاقات ويظهر بواسطتها هكذا تترتب على الاحساس الجمالي ،

بالضرورة ، معاناة تعبر عن تقييم جمالي لموضوع الاحساس . والمعاناة الجمالية هي التعبير المباشر عن الرابطة الجمالية للانسان مع الواقع وهي التي تمنح الوعي الجمالي صفاته النوعية المميزة

ويتربط على المعاناة الجمالية ، كرابطة للانسان مع الواقع ادراكها ادراكا متناسبا معها فالرابطة النفعية - العملية ترتبط مع ادراك لعالم الانسان ، ينصبّ على تفسير جدواها العملية في عملية الادراك هذه يفرز البشر تلك القسمات والصفات التي تلازم الاشياء والموضوعات والجوهرية من منظور فائدتها العملية ومن البدهي ان هذا الفرز تلازمه عواطف معينة

وتنصبّ الرابطة الجمالية على ادراك الواقع في مستوى آخر من مستوياته ، مع العلم بانها نشأت تاريخيا وتكونت بالارتباط مع الروابط النفعية - العملية وعلى اساسها في الرابطة الجمالية لا تحرك الفائدة العملية البشر ، بل تحركهم الحاجة لالتقاط الصفات النوعية الجمالية لظواهر الواقع . ويتربط على الصفات النوعية الجمالية المكتشفة سلم خاص من انواع المعاناة ، بما فيها السعادة بالامكانات الخلاقة للانسان ، حين يقيم البشر الاشياء والموضوعات التي خلقوها

يتميز الوعي الجمالي قبل كل شيء بطبيعته الشعورية والعاطفية « وتكمن صفته الخاصة الاساسية في ان موضوعه يدرك بصورة عاطفية ، في وحدة لا تنقسم لما هو جوهري وظاهري ، داخلي وخارجي ، كمي ونوعي فيه » (٦٢) ويمكن الوصول الى هوية العلاقات الجمالية ، والوعي الجمالي ، من خلال الذوق الجمالي للبشر ، اي من خلال قدرتهم على تمييز الجميل من القبيح ، والسامي من السوقي ، والمساوي من الملهوي ، وقدرتهم على التفريق بين ما يعجبهم وما لا يعجبهم ، وما يثير تعاطفهم او نفورهم الخ ان الذوق يتشكل ، شأنه شأن الوعي الجمالي عموما ، تحت نفوذ التجربة الحياتية للبشر ، وللفن الهادف الى تربية الذوق السليم لديهم

وتحتل مثل البشر العليا مكانا هاما في الوعي الجمالي وهذا امر مفهوم ، اذ ان تصوراتهم حول ما هو كامل وملائم من الناحية الجمالية تنشأ بالضرورة مع تطور المعاناة والذوق الجماليين ويجسد المثل الاعلى الجمالي ما هو كامل وملائم في شكل مشخص - شعوري ، ويكون اهم

مقياس عند تقييم البشر الجمالي للواقع ويمثل المثل الاعلى فضلا عن ذلك مقياسا للخلق الجمالي بقدر ما يعبر عن بواعث واهداف الفعالية البشرية

ويتم ادراك العلاقات الجمالية فكريا في نظام محدد من الآراء التي تمثل بدورها جزءا من الوعي الجمالي ان منظومة هذه الآراء هي علم الجمال ، وهو يضم من الناحية النظرية الانواع المختلفة من الروابط الجمالية للبشر مع الواقع وفيما بينهم ، والتي يحتل الفن في ظلها المحل الاول كظاهرة خاصة للممارسة الاجتماعية ، وللانتاج الفكري للبشر

على الصعيد السوسيولوجي يبدو الفن كفعالية افسانية قبل كل شيء ، كخلق وفق قوانين الجمال ، وعلاقة جمالية مع الواقع كذلك يجب على المرء أن يعتبر الفن وعيا تميزه الاحاطة التقييمية الشعورية للواقع ويمكن استخلاص الوعي الجمالي للبشر في مجتمع ما من الفن وان كان محتوى الفن اشمل من الوعي الجمالي فالفن يعبر عن مجموع الوعي الاجتماعي الواقعي لعصر ما

ان دور الوعي الجمالي ، وعلى رأسه **الفن** ، هام جدا في المجتمع وخاصة في المجتمع الاشتراكي والوعي الجمالي هو جانب من الروابط الجمالية للبشر مع الواقع وفيما بينهم ويمكن دوره في تطوير الانسان كما يكمن غناه في تنوع روابطه وعلاقاته وتغني المشاعر ، والذوق والمثل والآراء الجمالية ، التي تعبر عن نفسها في روابط جمالية ، حياة البشر وتجعلها أكثر تنوعا وأسمى موضوعا ويلعب الفن دورا خاصا في هذا السياق ، حيث تعيد صوره الفنية انتاج الجوانب الموضوعية الجوهرية للحياة الاجتماعية ، الى جانب وجوها الذاتية الاساسية ، وهما يشكلان معا وعي البشر الواقعي

الوعي الفلسفي :

« لقد فسر الفلاسفة العالم بصور مختلفة ، ولكن الشيء الرئيسي هو تغييره »

ماركس

يرتبط الوعي الفلسفي شأنه شأن غيره من أنواع الوعي بروابط اجتماعية والواقع ان هذا الارتباط يحمل طبيعة توطئية لذا لا يقيم المرء في العادة علاقة مباشرة بين الفلسفة وأنواع معينة من العلاقات ولكن عند اجراء تحليل سوسيولوجي للوعي الفلسفي تكتسب مسألة ارتباط هذا النوع من الوعي مع العلاقات الاجتماعية أهمية خاصة

بحسب طبيعته يعتبر ارتباط الوعي الفلسفي مع العلاقات الاجتماعية. من حيث المبدأ ، نفس ارتباط الوعي الديني والجمالي ان موضوعها هو روابط الانسان مع عالمه ، في حين تعتبر العلاقات الاخلاقية والسياسية والحقوقية روابط بين البشر ولا يستطيع المرء ان يعتبرها علاقات بنية فوقيّة من الدرجة الاولى الا بحدود وعندئذ ستكون روابط الانسان مع العالم ، وبها يرتبط الوعي الديني والجمالي والفلسفي علاقات بنية فوقيّة من الدرجة الثانية

هل هناك علاقات يمكن تصنيفها كملاقات فلسفية ؟ من الصعب الاجابة على هذا السؤال وان كان من المؤكد حتى في حالة عدم وجود علاقات كهذه في الواقع ان مسألة ارتباط الوعي الفلسفي بالعلاقات الاجتماعية ستبقى مطروحة لان هذا النوع من الوعي كالوعي الاجتماعي اجمالاً ، مرتبط بالمجتمع وتابع له ان الفلسفة ترتبط ، مثل الوعي الديني والجمالي ، من حيث المنشأ والوظيفة بروابط الانسان مع الواقع ، وروابط البشر مع بعضهم

تهتم الفلسفة قبل كل شيء بعلاقة الفكر مع الوجود والوعي مع المادة . والوعي هو انعكاس للوجود ونتاج له ، غير انه ليس ، بحسب

جوهره ، انعكاسا للواقع فقط بل هو ايضا رابطة مع العالم ، مع الوجود الذي ينتجه وتدرس روابط الوعي مع الوجود بصورة مفضلة على صعيد معرفي ومع ذلك فمن الممكن تحليل هذه الرابطة المتبادلة على صعيد سوسيولوجي وتشير جملة لينين القائلة ان الوعي لا يعكس العالم فقط ، بل يخلقه ايضا ، الى ضرورة اجراء تحليل سوسيولوجي لهذه العلاقة فالرابطة الخلاقة للوعي مع العالم يمكن ان تدرك بصورة عقلانية كرابطة اجتماعية فقط وفي الواقع فان « الافكار لا تستطيع ان تنفذ اي شيء بل ان تنفيذ الافكار بحاجة الى البشر الذين يقدرّون على حشد طاقة تنفيذية فعلية (٦٣)

ليست الافكار ، بل البشر الذين يملكون افكارا هم الذين يتخذون سلوكا واقعيّا حيال العالم وعلى صعيد سوسيولوجي تعتبر علاقة الافكار بالوجود ، بالتالي ، علاقة للبشر بالعالم والفلسفة التي تدرس العلاقة المتبادلة بين الفكر والوجود ، الروح والمادة ، يجب ان تهتم بالعلاقة بين الانسان والعالم وهذا يمدنا بالاساس الذي يمكننا من التحدث عن ارتباط واقعي للفلسفة مع العلاقات الاجتماعية فمن خلال هذا الارتباط تبرز الصفة الخاصة للفلسفة كنوع خاص من الوعي وتوضح وظيفتها في حياة المجتمع وفي نفس الوقت تنفتح امكانية فهم افضل لطبيعة تلك العلاقات التي تعمل الفلسفة لخدمتها

الفلسفة هي كسواها من انواع الوعي نظام من الآراء حول العالم المحيط بالانسان فآين تكمن خصوصية هذه الآراء ؟ تجيب الفلسفة على الاسئلة حول بنية العالم حسب طبيعته ، وما اذا كان هناك شيء عام تشترك فيه كل موضوعات وظواهر العالم المحيط بالانسان ، واذا كان هناك هذا الشيء العام ، فآين يكمن وما اذا كان بوسعنا معرفة موضوعات وظواهر الواقع ، واذا كان هنا ممكنا ، فماذا تعني عندئذ الحقيقة ؟ ... الخ.

يجمع الماديون والمثاليون على ان الفلسفة تهتم بدائرة خاصة من الاسئلة المنصبة على الروابط المتبادلة بين الوعي والوجود ، اي المسائل المرتبطة بنظرة الى العالم وتكمن الصفة النوعية للفلسفة في انها نظرة البشر الى العالم

لم تجد الفلسفة صفتها النوعية هذه مرة واحدة فقد بقيت لفترة طويلة تضم ، الى جانب المسائل الخاصة بها المرتبطة بالنظرة الى العالم ،

مسائل علمية متفرقة ان خصوصيتها لم تكن قد برزت بعد بصورة واضحة كما ان هذه الخصوصية كثيرا ما طمست حين كانت اقسام وفروع من الفلسفة تفصل عن بعضها الامر الذي حال دون الوصول الى تصور واضح حول الطريقة التي تحل بها كل فلسفة مسألة الرابطة المتبادلة بين الفكر والوجود لقد اعطى « كانت » مثلا لنظرية المعرفة الافضلية حيال سائر المجالات الجزئية الاخرى التي كانت الفلسفة تتضمنها في الماضي. واذا كان قد اعترف بوجود الاشياء بذاتها أي اعترف بوجود اشياء خارج وعينا ومستقلة عنه فانه نظر الى مسائل المعرفة معزولة عن نظرية الوجود ولهذا كانت أشكال المعرفة لديه خالية من المحتوى الموضوعي

وتشترط الاجابة على مسألة العلاقة المتبادلة بين الفكر والوجود انشاء رابطة بين قوانين المنطق وقوانين العالم الموضوعي وعند « كانت » ينظر الى قوانين المنطق خارج مثل هذه الرابطة وحسب نظريته يعتبر عالم الاشياء بذاتها و عالم الظواهر منفصلين عن بعضهما

وزاد من صعوبة معرفة الصفة النوعية للفلسفة ما قبل الماركسية انها ادعت لنفسها القدرة على اعطاء تفسير كوني - شامل - للعالم وعلى معرفه بصورة كاملة لقد ارادت فلسفات الماضي أن تضع منظومات من المعارف حول العالم بمجمله تسمو فوق سائر العلوم الاخرى فزعمت فلسفة الطبيعة انها وضعت صورة عامة للطبيعة ككل واحد موحد وقد ركبت هذه الصورة باحتواء تصورات حول الطبيعة اقتبسها من العلوم الطبيعية المتفرقة وباحلال روابط خيالية محل الروابط والظواهر الواقعية التي لم تهتد الى معرفتها وتركيبات خيالية ذهنية محل معرفة الحقائق ان الصورة التي وضعت بهذه الطريقة عن الطبيعة ككل موحد كانت بعيدة كل البعد عن الواقع وكانت ثمرة للتوهم أكثر مما كانت انعكاسا لروابط وعلاقات واقعية وبنفس القدر كانت صورة الحياة الاجتماعية التي خلقتها فلسفة التاريخ بعيدة عن الواقع فقد احل محل الروابط الفعلية بين البشر في عملية انتاج السلع المادية ، وفي مجال الحياة السياسية وغيرها من المجالات ارتباطات وهمية

ان المادية الجبلية ليست فلسفة بالمعنى القديم وليست علم العلوم، ولا نظام المعرفة النهائية للعالم بل هي فلسفة بالمعنى الاصلي للكلمة فهي تقيّد نفسها تماما بحل المسائل المرتبطة بالنظرة الى العالم .

وبما انها تحل هذه المسائل من مواقع مادية ، فانها
تكشف اكثر قوانين تطور الواقع عمومية ، وتمثل في الوقت نفسه المنهج
الشامل للوصول الى المعرفة

ان التعيين الصحيح لخصوصية الفلسفة قد ارتبط مباشرة بنتائج
معرفة الطبيعة والظواهر الاجتماعية ، مع العلم بأن اسباب هذه المعرفة
تكمن في حاجات التطور الاجتماعي ان تطور علم الطبيعة قاد الى وضع
مفهوم جدلي - مادي للطبيعة ، والى البرهان على ان فلسفة الطبيعة
متهافئة في حين أظهر المفهوم المادي للتاريخ تهافت فلسفة التاريخ
وتميز الاتجاه الجديد في الفلسفة الذي وضعه ماركس وانجلز ، عن
الفلسفة القديمة في ان « النظرة المادية الى العالم قد أخذت هنا ، وللمرة
الاولى ، على محمل الجد فعلا ، وطبقت بحزم على سائر مجالات المعرفة
في أسسها العامة على الاقل (٦٤)

وقد قادت النظرة المادية حيال العالم الباحثين في مجال علوم المجتمع
والطبيعة الى اسقاط الروابط الفكرية الوهمية حول المجتمع والطبيعة
واكتشاف الروابط الفعلية المتنوعة وقد حددت مهمة الفلسفة كمجال
خاص للمعرفة في كشف القوانين العامة التي تظهر في العالم المحيط
بالانسان

كانت معرفة الصفة النوعية للفلسفة في جوهرها معرفة للعلاقة
الواقعية بين الفكر والوجود ، والوعي والمادة ولم تكثر الفلسفات
السابقة للماركسية دوما بحقيقة ان موضوعها هو العلاقة بين الفكر
والوجود ، الوعي والمادة ، لذا فان هذه العلاقة لم تعالج دوما بصورة
حازمة وقد قال انجلز في وصف الفلسفة المادية للعصر القديم انها
كانت « مادية خام وطبيعية ولم تكن قادرة على التصدي بنجاح لمسألة
العلاقة بين الفكر والمادة (٦٥) وأكد في حديثه حول المادية القديمة
- بما فيها مادية فويرباخ - انها كانت واضحة الى حد ما فيما يخص
العلاقة بين الفكر والوجود في الطبيعة دون التاريخ انها لم تر ارتباط
الفكر المعطى بالظروف التاريخية - المادية القائمة (٦٦)

ان مسألة العلاقة بين الفكر والوجود هي المسألة المركزية في
الفلسفة وقد ادى عليها الحازم لتحول الفلسفة الماركسية الى نظرية
حيال العالم بكل معنى الكلمة انها ، باكتشافها اكثر قوانين التطور في

الطبيعة والمجتمع والفكر البشري عمومية ، تصلح كمنهج عام لسائر علوم الطبيعة والمجتمع ، وكأساس نظري للتغيير الفعلي للعلاقات الاجتماعية

لم يكن حل المسألة المركزية للفلسفة ممكنا دون الاستناد الى العلم وكما قال انجلز ، فانه بنشوء الفلسفة الجديدة قد ربطت أسس المادية القديمة مع المحتوى الفكري لتطور الفلسفة وعلوم الطبيعة خلال الفي عام ، ولتاريخ هذين الاعوام الالفين نفسه فضلا عن ذلك فقد حدث التطور ذي السنوات المائة للفلسفة الماركسية على اساس تقييم التبدلات الهائلة في حياة المجتمع ، والتطور العاصف للعلوم هذا هو سر طابعها العلمي بالمعنى الحديث للكلمة

الفلسفة الماركسية هي نظرة الى العالم أي مفهوم مادي - جدلي للعالم الى جانب ذلك يشار الى ان الفلسفة ليست فقط نظرة الى العالم، بل هي أيضا نظرية معرفة انها نظرة الى العالم بقدر ما تحل المسألة المركزية في الفلسفة ، مسألة ما هو أولي ، المادة أم الوعي وهي نظرية معرفة عندما تجيب على الوجه الآخر من المسألة الفلسفية الرئيسية مسألة كيف تسلك معرفتنا حيال العالم ويبدو لنا من غير الصحيح قصر الطابع المميز للفلسفة ، كنظرة الى العالم ، على تقرير الوجه الاول من المسألة الرئيسية للفلسفة فبدون تفسير علاقة الذات العارفة بالعالم الموضوعي الذي يقع عليه فعل المعرفة ، أي بدون الوجه الثاني من المسألة الفلسفية ، لن نستطيع المراء التحدث عن الفلسفة كنظرة حاسمة الى العالم ان حل المسألة الاونتولوجية الرئيسية (مسألة أولوية المادة أو الوعي) خارج نظرية المعرفة ، معزولة عن الموقف الذي يتخذه فكرنا حول العالم وحياله ، وبعبارة عن مسألة ما اذا كانت تصوراتنا وآراؤنا انعكاس صحيح للعالم ، يؤدي بالضرورة الى تعارض المحتوى الموضوعي للمعرفة مع شكلها الذاتي والفلسفة هي نظرة الى العالم ، لانها تحل مسألة علاقة الوعي مع المادة على صعيد وجهيها السابقين

اما ما يخص الفلسفة القديمة ، وكانت موزعة الى اجزاء متفرقة - ومتعارضة غالبا - فان طبيعتها كنظرة الى العالم كانت تنسحب فقط على اونتولوجيتها لقد كانت تطمح الى احتواء كل المعارف حول العالم ولم تكتف بدورها كنظرة اليه اما المادية التاريخية فهي ، كنظرة الى العالم ، نظرية القوانين العامة للعالم ، ونظرية معرفة ومنهج معرفة عام وفي الماركسية تم تجاوز ذلك الانفصال الذي كان يميز مكونات الفلسفة

القديمة ، وبخاصة الانفصال بين نظرية الوجود ونظرية المعرفة ان نظرية المعرفة تتضمن ، كشرط اولي ، الاعتراف بموضوعية العالم ، ولا يستطيع المرء ان ينظر اليها خارج النظرة الى العالم

يقول كارافايف و شاربيوف بحق ان الماركسية هي « نظرة الى العالم بكل المقاييس ، فهي تمثل نتيجة معينة للمعرفة (الصورة العلمية عن العالم في كل مرحلة من التطور التاريخي) ، وفي نفس الوقت يملك محتوى المادية الجدلية أهمية منهجية بالنسبة لمعرفة العلوم المختلفة (٦٧)

الفلسفة هي اذن ، في جوهرها ، نظرة الى العالم بيد ان جوهرها، كنظرة الى العالم ، لا يكمن في انها صورة العالم العلمية في كل مرحلة من التطور التاريخي ، فالفلسفة عند بليخانوف هي تركيب الوجود الذي صار وعيه دون أن تكون بعد الصورة العلمية عن العالم مثل هذه الصورة لن تنتج الا عن مجموع العلوم الطبيعية والاجتماعية ويقرّ كارافايف و شاربيوف بذلك ، حين يكتبان

« ان مهمة خلق صورة علمية عن العالم (او نظرة علمية اليه) ليست بأي حال مهمة الفلسفة لوحدها ، بل هي تدخل في مجال مسؤولية سائر فروع المعرفة الموضوعية ، في مجال مجموع علوم الطبيعة والمجتمع . ولا يجوز مماثلة النظرة الى العالم مع الفلسفة مماثلة كلمة » (٦٨) .

في ادبياتنا نصادف وجهة النظر القائلة ان المبادئ النظرية الرئيسية في تناول ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية « هي وحدها التي تملك أهمية كنظرة الى العالم (٦٩) فما هي الملامح التي تعين هذه المقاييس ؟

في كتاب بناء الشيوعية والعالم الفكري للانسان ، الذي طرح هذه الفكرة ، لم يوضع أي مقياس ، وان كان يقال ان النظرة العلمية الى العالم هي منظومة الآراء الفلسفية والاقتصادية والسياسية - الاجتماعية للماركسية ربما كان الامر كذلك بيد اننا نعتقد ان المبادئ النظرية الرئيسية في تناول ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية لا يمكن وضعها الا من قبل الفلسفة ان علاقة الفكر بالوجود ، وهو جزء من موضوع الفلسفة ، هو في نفس الوقت المقياس الذي يسمح بوضع المبادئ النظرية ذات الاهمية بصفتها تتضمن نظرة الى العالم والمبادئ النظرية التي تعلل المفهوم المادي - الجدلي عن العالم ومنهجها المعرفي الكوني الذي

يلعب دورا منهجيا في اي بحث علمي ، هما اللذان يضيفان على الماركسية طابعها كنظرة الى العالم

منذ وقت طويل وصل الانسان الى القناعة بأن مبادئ نظرة ما الى العالم تخدم الانسان كدليل الى العمل الفعلي ، وكأداة للتأثير على مجريات الاحداث التاريخية هذا الواقع يؤدي ببعض العلماء الى استخدام مفهوم « النظرة الى العالم » بمعناه الواسع ، بادخال آراء اقتصادية وسياسية - اجتماعية اليه ، الى جانب ما يتضمنه من آراء فلسفية ولكن حين يسير الانسان على هذا الطريق ، فان النظرة الى العالم « لا يمكن ان تقتصر عندئذ على الآراء المذكورة ، بل يجب ان تمتص جملة المعرفة البشرية ، وهو ما سيفقدها معناها الاصلي. ان مفهوم النظرة الى العالم يقصد به في العلم ، وبشكل صارم ، الفلسفة دون سواها

وترتبط الفلسفة كنظرة الى العالم بالفعالية العملية للبشر، وبالعلاقات الاجتماعية ارتباطا وثيقا في المجتمع الطبقي تمثل هذه العلاقات روابط بين الطبقات والفلسفة هي منذ نشوئها حتى اليوم نظرة الى العالم لطبقات مختلفة فالمادية هي في القاعدة نظرة الطبقات التقدمية الى العالم ، والمثالية نظرة الطبقات الرجعية والفلسفة تعلق نظريا مصالح الطبقات ، وأهدافها ومهماتها النضالية وهذا يصح بنفس القدر بالنسبة لفلسفات الماضي والحاضر يقول ماركس عن الفلسفة المادية - الجدلية ان البروليتاريا قد وجدت فيها أسلحتها الفكرية ولكن الفلسفة ما قبل الماركسية وخاصة اتجاهها المادي كانت شرطا نظريا للعمل الاجتماعي. وحسب كلمات انجلز فقد سبقت الثورات الفلسفية الثورات الاجتماعية فكانت الراية النظرية لتحقيق تلك الثورات هكذا كانت مادية القرن الثامن عشر الفرنسية مدخلا للثورة السياسية وقد وعى الفلاسفة ضرورة ازالة العلاقات الاقطاعية الاجتماعية التي تحولت الى عقبة في وجه التطور التقدمي للمجتمع كأحد متطلبات جوهر وحاجات الانسان و الطبيعة البشرية وكمطلب للعقل وتوجه الماديون الفرنسيون الى العقل كحكم وحيد حين كانوا يطالبون بازالة الانظمة القديمة والمؤسسات القديمة والاتجاهات القديمة وباقامة دولة ومجتمع عقليين وكان العقل الذي توجهوا اليه كما قال انجلز هو في الواقع فهم المواطن الوسطي (العادي) وقد اضفي عليه طابع مثالي ، بعد ان اخذ هذا المواطن يتطور ليصبح بورجوازيا ولقد تم تبرير متطلبات

التطور الرأسمالي للمجتمع ومصالح البرجوازيين بقوانين العقل الخالد ان الفلسفة لم تكتشف قوانين التطور الاجتماعي ، وطرق واساليب التغير الاجتماعي الجذري ومع ذلك فقد لعبت دورا موضوعيا دون شك وقد استندت القوى الاجتماعية التقدمية التي أنجزت الثورة المعادية للاقطاع على المادية نظرة لها الى العالم وعبر دور المادية عن نفسه في توجيهها ضد الدين والكنيسة ، القوتان اللتان كانتا تكبلان البشر فأثبتت بذلك العلاقة الناشطة للبشر مع العالم

هذه الصفة الاخيرة هي السمة المميزة للمادية كنظرة الى العالم وان كانت لم تبرز بصورة كاملة الا مع نشوء المادية الجدلية لقد تجاوزت الفلسفة الماركسية للمرة الاولى الطبيعة التوفيقية للمادية القديمة تجاوزا نهائيا وكشف بذلك عن العلاقة الناشطة مع العالم كجوهر للنظرة المادية اليه وحتى في أطروحات ماركس حول فويرباخ التي مثلت حسب كلمات انجلز البذرة العبقريّة للمادية الجديدة ، تبرز هذه الناحية بكل تحدد ووضوح « لقد فسر الفلاسفة العالم بصورة مختلفة فقط ، ولكن الشيء الرئيسي هو تغييره » (٧٠) .

والفلسفة الماركسية هي بوصفها نهائية لمعرفة واستخدام القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع أداة لتغيير الواقع ويرتبط مفهومها المادي - الجدلي عن العالم مع طابعها الثوري قال ماركس

« في صيغته العقلانية يعتبر الديالكتيك بالنسبة للبرجوازية والمدافعين عن عقائدها ، نوعا من التنقيص والربح ، لانه يضيف ، الى الفهم الموضوعي لما هو قائم ، فهم نفيه وانتدائه الضروري ايضا ، ولانه يدرك كل شكل صائر في سياق الحركة ، أي من وجهه الغائي ايضا ، ولان جوهره نقدي ونوري » (٧١)

وفي العصر الراهن عصر تحطيم الرأسمالية في سائر بقاع الارض وبناء النظام الاشتراكي الجديد تعتبر الفلسفة المادية - الجدلية نظرة تلك القوى حيال العالم التي تناضل من أجل انتصار النظام الجديد وهي تتعارض مع الفلسفة المثالية التي تتمسك بها القوى المحافظة والرجعية وبين هذه النظرات المتعارضة الى العالم يوجد صراع متصل وحاد فالنظرة المادية - الجدلية الى العالم التي تكشف القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي تفسر ضرورة افناء الرأسمالية التي تحوات الى عقبة في وجه التطور التقدمي للمجتمع. اما الفلسفة المثالية . المدافعة

عن مصالح البرجوازية ، فهي تخوض الصراع مع مصالح المجتمع وتطمح لتعزيز النظام الرأسمالي وتقدم الفلسفة البراجماتية مثالا على ذلك فقد أدت التغيرات العظيمة في العالم الى أزمة عامة للرأسمالية والى تقوية لا مثيل لها لنزعة الدفاع عنها من قبل كل مدارس الفلسفة البرجوازية في هذا السياق نشأت أيضا البراجماتية وقد حاول مروج هذا الاتجاه ، جون ديوي في عشرينات هذا القرن ان يبرر ضرورة تغيير الفلسفة بهدف تأهيلها للدفاع بصورة افضل عن الرأسمالية وكتب في مقدمة كتابه إعادة بناء الفلسفة الذي أعيد إصداره في الأربعينات ان ضرورة هذا التركيب الجديد للفلسفة قد تعاضمت في عصرنا الراهن فقد هزت الحرب العالمية الاولى الايمان بتطور متسق وبحركة أكيدة نحو السلام والوئام وتعاضم القلق في العصر الراهن ففدا انعدام الايمان وتفاقم النزاعات شيئا عاما وصار الاضطراب والتشاؤم المزاج السائد ويلقي الخوف على المستقبل بظله على سائر جوانب الحياة

يدرك ديوي خطورة الوضع الذي توجد فيه الرأسمالية في العصر الحالي . وهو يحاول ايجاد سبل لتجاوز مصاعبها ويظن انه وجدها فيما أسماه إعادة تركيب الفلسفة عن طريق نسيان سائر أطروحات الفلسفة اليونانية (وهو يفكر هنا بجانبها المادي وسائر النظريات حول الواقع والمعرفة وفهم الأشياء بأكثر الصور بساطة وبدائية ويقترح ديوي اسقاط تفسير المعرفة بوصفها كشافا لصفات الواقع القائم قبل حدوث عملية المعرفة ويعتقد انه لا يوجد واقع يسبق حدوث المعرفة ويستقل عن البشر تكمن إعادة تركيب الفلسفة اذن في استبدال المادية بمثالية ذاتية تسمح بتقنيع العلاقات الفعلية والبراجماتية بانكارها موضوعية الواقع واعلانها ان ما هو مفيد هو حقيقي في نفس الوقت تعمل للدفاع عن مصالح وتصرفات الطبقات السائدة ، ولصياغة وعي البشر الذين يعيشون في المجتمع البرجوازي بما يتوافق وهذه المصالح

يعبر الصراع بين الفلسفتين المادية والمثالية في العصر الراهن عن صراع طبقات ذات مصالح متضاربة ويوضح الصراع في مجال النظريات التي تطرح مسألة العلاقة بين الفكر بالوجود والوعي بالمادة ان موضوع الصراع هو هنا النظرات المختلفة الى العالم ، وانه أي الصراع هو السمة الجوهرية للفلسفة في ايماننا ويجعلنا هذا الصراع نعرف بحق ان

العلاقات الطبقية هي القوة المحركة للتقدم الاجتماعي والفلسفة ، كنظرة الى العالم للطبقات المختلفة ، هي اكثر الجوانب الفكرية اهمية في الروابط بين الطبقات وهي تتحقق في هذه الروابط ، بدفع الطبقات نحو القيام بأفعال معينة تمس ، في النهاية ، النظام الاجتماعي القائم

تتعرف الادبيات الفلسفية بأنواع الوعي الاخلاقية والسياسية والجمالية كتكوينات قائمة بذاتها للوعي الاجتماعي وثمة في الوعي الاجتماعي ايضا افكار وتصورات أخرى يمكن اعتبارها ، في رأينا ، انواعا قائمة بذاتها للوعي وانا افكر ، في هذا الصدد ، بالتصورات والآراء الاقتصادية التي لا توجد على صعيد المعرفة العلمية - النظرية فقط (كاقصاد سياسي) ، بل على صعيد تصورات وآراء الوعي اليومي المنتشرة في كل مجتمع ويبدو لنا انه من الضروري تمييز الآراء والتصورات الاقتصادية كنوع قائم بذاته من الوعي داخل بنية الوعي الاجتماعي على كل حال يحتاج هذا التخمين الى تبرير دقيق يستند الى دراسة خاصة للوعي الاجتماعي يجريها اقتصاديون وسوسيولوجيون لذا فاننا نقصر جهدنا هنا على هذا السؤال العام حول امكانية فرز الآراء الاقتصادية كنوع خاص من الوعي الاجتماعي، دون الادعاء بأننا قد تصدينا لحل هذه المسألة

ويكمن تبرير مثل هذا العزل للوعي الاقتصادي كنوع خاص من الوعي، حسب رأينا ، في الصفات الخاصة لعلاقات الانتاج كما هو معلوم فان علاقات الانتاج تتكون على اساس متطلبات القوى المنتجة المادية بالاستقلال عن ارادة ووعي البشر والبشر الذين يدخلون في علاقات انتاج معينة يعون هذه العلاقات عاجلا ام آجلا ، ويتصرفون بالتطابق مع هذا الوعي وتتم علاقات، الانتاج الاشتراكية عند نشوئها من خلال وعي البشر ، دون ان تنقطع عن أن تكون مادية بطبيعتها ، اي مرتبطة بتأثير القوانين الموضوعية لتطور الانتاج والبشر يعون علاقات الانتاج في شكل افكار وآراء مختلفة، ومنها الآراء والافكار الاقتصادية ، بوصفها انعكاسا مباشرا لهذه العلاقات. ان طريقة تأثير علاقات الانتاج ترتبط بالوعي الاقتصادي ، وخاصة في ظل الظروف الاشتراكية ونحن نكرر ان ماديتها لا تحول دون قيام البشر بفعالية واعية في مجال الانتاج

تمثل علاقات الانتاج قبل كل شيء علاقات بين البشر بخصوص انتاج وامتلاك وسائل الانتاج ، اي بخصوص علاقات ملكية وسائل الانتاج.

وتحدد علاقات الملكية طابع الانتاج نفسه ، بحسب ما تكون فردية أم اجتماعية ، وما تهدف اليه من ارضاء الحاجات النامية أبدا لسائر أعضاء المجتمع ، أم اغتناء بعض الافراد والجماعات . وما اذا كانت تخضع لرقابة اجتماعية واعية ، أم تمثل نتاج تأثير قوى عفوية الخ وتحدد علاقات الانتاج أيضا نوع وطريقة توحيد قوة العمل مع وسائل الانتاج حيث تعبر عن نفسها بصورة مباشرة الروابط المتبادلة للبشر في الانتاج الاجتماعي ، ويتحدد التوزيع الطبقي للمجتمع في الانتاج يتبادل البشر فعاليتهم ويظهر طابع هذا التبادل ابان استخدام قدرات البشر في الانتاج الاجتماعي ، ووجود أو عدم وجود البطالة والاستهلاك الاقتصادي أو غير الاقتصادي للعمل ووسائل الانتاج وموقف الانسان من العمل نفسه ان العلاقات المذكورة نشأت مباشرة في عملية الانتاج وهذا هو سبب تسميتها علاقات الانتاج ، ولكنها لا تستنفذ نفسها فيها فالانتاج هو وحدة الانتاج المباشر والتوزيع والتبادل والاستهلاك . كتب كارل ماركس :

« ان انتاجا معينا يحدد ان استهلاكا وتوزيعا وتبادلا معينا ، والعلاقات

المعينة لهذه العناصر المختلفة حيال بعضها » (٧٢)

ويشكل الانتاج أساسا لمجمل الحياة الاقتصادية للمجتمع وان كان لا يستنفذها ، فمفهوم الحياة الاقتصادية اكثر شمولاً في محتواه من مفهوم « الانتاج » وينشأ في عملية الانتاج ضرورة قيادة وتنظيم العمل وتأهيل واعداد الكادر المناسب ويجب على البشر من أجل مواصلة حياتهم ، تجديد الانتاج بصورة مستمرة ، واعادة انتاج قوة العمل دوماً ومع اعادة الانتاج ترتبط مسائل الروابط المتبادلة بين العمل المنتج وغير المنتج ولان عملية الانتاج تشترط علاقات توزيع تنشأ ضرورة حل مشكلة الرابطة المتبادلة بين الحاجات الاجتماعية ووسائل وطرق ارضائها. وترتبط العلاقة بين التبادل والاستهلاك في انتاج السلع بنظام مالي وبالتجارة الخ ويتضمن مفهوم الحياة الاقتصادية « فضلا عن ذلك العلاقات الاقتصادية الدولية ، وجوانب معينة من حياة البشر ويرتبط تنوع الحياة الاقتصادية للمجتمع بالفعالية الواعية للبشر فيطرحون على أنفسهم ، لدى تنظيم الانتاج ، مهمات وأهداف مشخصة والحياة الاقتصادية للمجتمع لا يمكن التفكير بها دون العامل الذاتي ، دون الوعي الذي يعمل في خدمتها

في الادبيات الاقتصادية بصادف المرء بصورة متزايدة آراء تقبول

بضرورة أن يضاف الى الحياة الاقتصادية للمجتمع آراء وتصورات البشر التي تعكس هذا المجال من الحياة الاجتماعية ، أي تمثيل الجانب الفكري من الحياة الاقتصادية. مثل هذه الآراء تلاقي المعارضة. وتقوم الاعتراضات بصورة رئيسية في مفهوم معين حول المبادئ المنهجية للرابطة المتبادلة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، أو بالاحرى بين القاعدة والبنية الفوقية ويشرح كرونرود لأولئك الذين يعترفون بالوعي الاقتصادي كشكل خاص من الوعي ، ويحسبونه من الحياة الاقتصادية ، أن :

« الحياة الاقتصادية هي مجمل العلاقات الاقتصادية الموضوعية ، وأن الوعي يستطيع أن يعكس هذه العلاقات بصورة مباشرة ، وينصب على تحقيقها وتنظيمها ... الخ . ولكن ذلك لا يعني أن أي شكل من الوعي يعتبر من الحياة الاقتصادية ، أي انه لا يصبح عنصرا للحياة الاقتصادية ، بل شكلا لا ينفصل عن الوعي الاجتماعي ، ويكون بالتالي عنصرا للحياة الفكرية . وبكلمات أخرى مهما كان محتوى الوعي ، فإنه كالحى ظواهر الحياة الاجتماعية ، لا يستطيع أن يدخل كعنصر في العلاقات المادية للاقتصاد » (٧٢) .

هذا المفهوم يقيم اذن حدا فاصلا بين ظواهر الحياة الاقتصادية والفكرية وهو يستثني امكانية اعتبار الوعي ، الذي يعكس الحياة الاقتصادية مباشرة وينصب على تنظيمها وتحقيقها الخ ، جزءا من الحياة الاقتصادية نفسها فهل يجوز للمرء أن يقيم مثل هذا الحد الفاصل ؟ نعم ولا عندما يدرس المرء قضية أي من هذه الظواهر اولية وايها ثانوية ، فان عليه أن يبرز دون شك موضوعية العلاقات الاقتصادية. ولكن حين يدور الحديث عن آلية عملها ، فان المرء لا يستطيع تجاهل وعي البشر الذين يقيمون روابط مع بعضهم وفي الحياة الواقعية ليست الظواهر الاجتماعية جزءا من مجال محدد ، بل يمكن لكل ظاهرة أن تكون جزءا من مجالات مختلفة وهذا يصح أيضا بالنسبة لظاهرة كالحياة الاقتصادية للمجتمع ، فهي تتضمن عنصرا فكريا واعيا

ان العنصر الفكري للحياة الاقتصادية هو الوعي الاقتصادي فإين تكمن خصوصية هذا النوع من الوعي ، حين يحاول المرء أن يميزه عن سواء من أنواع الوعي ؟

يعكس الوعي الاقتصادي ، حسب مفهومنا ، فعالية البشر وروابطهم في عملية الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك . وبالفارق مع غيره من

انواع الوعي الاجتماعي ينصبّ الوعي الاقتصادي على نظام وتطور وضبط الحياة الاقتصادية ، وعلى البحث عن طرق معينة للاقتصاد وهو يضع مبادئ الادارة الاقتصادية بالتوافق مع مصالح الذوات الاقتصادية ويضم الاقتصاد قبل كل شيء تحديدا لموضوعه : ان كل ذات تختار ما يمكنها أن تنتجه على خير وجه ، أي تختار الانتاج الذي يرضي مصالح المستهلكين على خير وجه ، ووسائل وطرق الادارة الاقتصادية المناسبة مع مستوى التطور المعطى للقوى المنتجة ويتضمن الاقتصاد التنسيق وتقسيم العمل ، تنسيق استخدام القوى البشرية التي تؤمن انتاجية العمل

مع تغير نمط انتاج ما تتغير ايضا طرق واشكال الاقتصاد ففي القطاعات مثلا كانت السخرة هي الشكل الرئيسي للاقتصاد حين كانت رابطة السلعة - النقد لا تزال ضعيفة التطور فيما بعد غدا الربيع العيني واسناد الارض هما الشكل الاساسي لادارة الاقتصاد ثم مع تطور روابط السلعة - النقد ونشوء العلاقات الرأسمالية في حضان القطاعات صار الربيع النقدي وتأجير الارض هما هذا الشكل

ويعبر الوعي الاقتصادي في رأينا ليس فقط عن طرق واساليب الاقتصاد ، بل عن الوضع الاقتصادي (الحالة الاقتصادية) للمنتجين أنفسهم أيضا وهو يحمل في المجتمع القائم على التناحر الطبقي طابعا طبقيًا وينصبّ من جهة على تعزيز السيطرة الاقتصادية للطبقات المستغلة، ومن جهة أخرى على ازاحة علاقات السيطرة والخضوع هكذا ناضل العبيد في مجتمع ملاك العبيد من أجل تحررهم ، وفي سبيل توزيع الارض على المواطنين الاحرار وتبني الفلاحون الاقنان في القطاعات مطالب اقتصادية تتضمن تحسين شروط العمل والتحرر من القنانة الخ وفي الرأسمالية وعصرها يستيقظ الوعي الاقتصادي للكادحين بصورة متزايدة وهو ينصبّ قبل كل شيء على تحسين شروط العمل ، وتحديد يوم العمل ، ومنع تشغيل الاطفال والنساء ، ورفع الاجور... الخ.

وبوضح تاريخ النظريات الاقتصادية كيف تغيرت الآراء والتصورات الاقتصادية للبشر مع تطور المجتمع في البداية يعبر الوعي الاقتصادي عن نفسه في شكل أفكار متفرقة ومفككة ، لكنه لا يلبث ، مع تطور المجتمع ، أن يتركز شيئا فشيئا في مقولات محددة ويبرز في شكل نظريات اقتصادية تدرج فيها المسائل النظرية والعملية لتتطور الاقتصادي

ضمن ارتباط منطقي ويعتبر اكتشاف ومعرفة القوانين الاقتصادية التي توجه توزيع واستهلاك السلع المادية ، أعلى مرحلة في تطور هذا الوعي أي مرحلة تشكل وبروز الاقتصاد السياسي كعلم

لا يقتصر الوعي الاقتصادي على النظريات الاقتصادية بوصفها التعبير النظري عن نمط انتاج معين وتاريخ الآراء التعليمية الاقتصادية لا يقدم بعد تصورا كاملا للصفة النوعية لهذا النوع من الوعي وحتى في ظل الاشتراكية يعبر الوعي الاقتصادي عن نفسه على صعيد الآراء والتصورات النظرية واليومية ويفسر ذلك بأن المنتجين المباشرين في الاشتراكية ، المالكين لوسائل الانتاج والذوات الاقتصادية يقومون في نفس الوقت بوظيفة تنظيم وإدارة الانتاج وهذا يتطلب منهم فهما عميقا ليس فقط للجانب التقني بل أيضا للجانب الاقتصادي للفعالية الانتاجية على مستوى المجتمع بأسره

في المجتمع الاشتراكي تنمو أهمية العامل الذاتي لدى تنظيم الانتاج الاجتماعي نموا هائلا فالإنسان الاشتراكي لا يريد فقط معرفة القوانين الاقتصادية التي تحكم بانتاج وتوزيع السلع المادية بل أيضا فن الاستخدام اليومي لهذه القوانين في نشاطه الواقعي بهذه الشروط فقط يستطيع البشر حقا اخضاع انتاج وتوزيع السلع المادية لارضاء حاجاتهم المادية ومن خلال ذلك يسيطر البشر للمرة الاولى في تاريخهم على علاقاتهم الاقتصادية الخاصة هذا هو سبب الاطروحة القائلة ان الآراء والتصورات الاقتصادية تشكل في الاشتراكية نوعا خاصا من الوعي الاجتماعي

ما هي صفات ومحتوى الوعي الاقتصادي للمجتمع الاشتراكي ؟ في الاشتراكية ، حيث تسيطر الملكية الاجتماعية ويملك الانتاج هدفا واحدا ، هو الارضاء الكامل للحاجات المادية والثقافية النامية دوما لسائر اعضاء المجتمع ، تنشأ مصلحة واحدة لكل الشعب والوعي الاقتصادي هو في المجتمع الجديد انعكاس لهذه المصلحة وترتبط فعالية البشر في مجال الانتاج المادي وسواه من مجالات الحياة الاجتماعية بعمق واتساع هذا الانعكاس

ويتنوع محتوى الوعي الاقتصادي في الاشتراكية فقاعده هي المعرفة والمهارة في استخدام القوانين الاقتصادية في ممارسة الاقتصاد انه الوعي بأن الاشتراكية ليست ممكنة الوجود دون الاسهام الخلاق

والناشط لسائر الكادحين في العمل الاجتماعي ودون الاستخدام الاقتصادي والعقلاني لوقت العمل وللمواد الأولية وأدوات العمل ودون تخفيض تكاليف الانتاج والاشتراك في المباراة الاشتراكية

ان الفعالية الاقتصادية تمارس في مئات آلاف المصانع المختلفة على يد ملايين من البشر واذا كان قسم من هذه الملايين منخرط مباشرة في العمل فان قسما آخر يدير ويخطط ويوجه عملية الانتاج وتختلف وظائف هؤلاء بصورة كبيرة عن وظائف المشتركين المباشرين في العمل وهو ما ينتج حتما فروقا في الوعي الاقتصادي لاجزاء المجتمع فيختلف محتوى الوعي الاقتصادي ، ودرجة امتلاكه باختلاف الفئات والمجموعات الاجتماعية. ويشمل الوعي الى جانب معرفة اهداف تطور الانتاج والوسائل العامة لتحقيقها ، معارف حول تنظيم العمل وادارته في الصناعة والزراعة على مستوى ورشة واحدة ، ومستوى منظمة او فرع اقتصادي ومستوى الاقتصاد الوطني بمجمله

ان وجود هذه الآراء والتصورات تسمح بطرح السؤال عن التصورات والآراء الاقتصادية كعنصر ضروري للحياة الاقتصادية للمجتمع وكنوع خاص للوعي الاجتماعي عموما وللوعي الاجتماعي الاشتراكي بشكل خاص

قبل أن نتقل الى الارتباط المتبادل لمختلف انواع الوعي ، يجب ان ندلي بملاحظة حول مكان العلم في الحياة الفكرية للمجتمع لقد نشأ العلم تاريخيا كنوع خاص من الوعي الاجتماعي وبالاصل ربط الانسان مع مفهوم العلم آراء وتصورات البشر عن الطبيعة وارتبطت هذه مباشرة مع روابط البشر بالطبيعة خلال عملية انتاج السلع المادية ونمت العلوم الطبيعية من التجربة الانتاجية ومهارات العمل لدى البشر ثم شكلت نظاما للعلاقات الموضوعية حول الطبيعة قبل أن تتكون أنظمة مماثلة من المعرفة حول المجتمع ومثلت في الوعي الاجتماعي العلم باطلاقيته

مع تطور المجتمع وامكانية معرفته ، انتجت انواع الوعي ، المتعلقة بالروابط بين البشر ، في داخلها أنظمة من الآراء والتصورات المعللة علميا ، كالاقتصاد السياسي ، ونظرية الدولة والحق ، والاخلاق ، وغيرها. كل نظام من هذه شكل علما من ظواهر الحياة الاجتماعية وقد ادى تطور العلوم الانسانية الى جعل فصل العلم كنوع خاص من الوعي يفقد معناه ،

لان كل نوع من الوعي (عدا الدين) يتضمن أيضا العلم بوصفه مستواه الاعلى ان مبدأ تقسيم الوعي الاجتماعي الى أنواع مختلفة قد فقد معناه فيما يخص العلم فالعلم لم يعد يربط نفسه الآن بأنواع خاصة من العلاقات كما كان قبل ذلك مرتبطا فقط بروابط البشر مع الطبيعة في عملية الإنتاج المادي بل صار يرتبط مع سائر العلاقات الاجتماعية دون استثناء

بذلك اكتسب العلم وضعاً جديداً في الوعي الاجتماعي فصار يمثل الآن ذروة تطور سائر أنواع الوعي الاجتماعي مردوده ونتيجته وغداً واحداً من المجالات الكبرى التي ينتظم فيها الوعي الاجتماعي ككل بالتطابق مع الوظائف التي يحققها وسنتحدث عن ذلك في الفصل القادم

في الحياة الاجتماعية الواقعية ترتبط سائر أنواع الوعي ببعضها وتدرس هذه الروابط المتبادلة في أدبياتنا الراهنة أثناء ذلك تبقى آلية التأثير المتبادل نفسها في الغالب خارج مجال الرؤية وبصورة رئيسية يقتصر المرء على اظهار نفوذ الافكار السياسية على الافكار الاخلاقية والوعي الفلسفي ، أو بالعكس ومن اوضح ان بوسع المرء ان يعرض نتيجة التأثير المتبادل حسب الصورة السابقة ، بيد انه من المهم دراسة آلية تأثير أنواع الوعي بعضها على بعض ، من أجل توجيه عملية تكوين الوعي الاجتماعي نفسه

ان تأثير الافكار والآراء المتبادل في المجتمع يتحقق ليس على طريق تأثير افكار معزولة بغيرها ، بل من خلال تكوين اوضاع كاملة للوعي الاجتماعي ان الاوضاع التي تهيم فيها افكار وآراء محددة ، تؤثر على الوعي السياسي والاخلاقي والفلسفي وغيرها من أنواع الوعي بكلمات أخرى ان الاوضاع التي تحدث تأثيراً هي فقط تلك التي يوجد فيها مجالات كاملة للوعي - علم نفس المجتمع ، الايديولوجيا والعلم - أو وعي طبقات متفرقة ، أو وعي المجتمع بمجمله في التأثير المتبادل للعلم والايديولوجيا وعلم نفس المجتمع والايديولوجيا تبرز روابط محددة دائمة ، توجد أيضاً في التأثير المتبادل للوعي الطبقي والقومي ولكنها مع ذلك لا يمكن متابعتها في التأثير المتبادل لأنواع الوعي المتفرقة ، مع انها موجودة فعلياً هذه الروابط تنقل عبر أداة الارتباط المتبادل للعلاقات الاجتماعية لمجالات كاملة للحياة الاجتماعية كالسياسة والحقوق والاخلاق والفن... الخ والتأثير المتبادل لهذه المجالات يتجاوز اطار الوعي ويخضع

لقانونية الحياة الاجتماعية ومع ذلك فهو يسمح ، وان بشكل غير مباشر بالوصول الى استنتاجات حول الروابط بين انواع الوعي الاجتماعي

عند تحليل التأثير المتبادل لانواع الوعي المختلفة لا يقتصر المرء في العادة على مجالات الوعي بل يتجاوزها لذا تنسحب المبادئ العامة للارتباط المتبادل لانواع الوعي على التأثير المتبادل لمجالات البنية الفوقية الاجتماعية أكثر مما تنسحب على الوعي نفسه والاساس الموضوعي للتأثير المتبادل بين انواع الوعي هو الارتباط المتبادل للحاجات الاجتماعية التي تبعثها الى الحياة الارتباط المتبادل بين جوانب الفعالية التي تعكسها باختصار ارتباط تلك الظواهر الاجتماعية نفسها التي تمثل هي جانباً منها على المرء على كل حال ان لا يفهم الارتباط المتبادل للظواهر الاجتماعية كأساس للتأثير المتبادل بين انواع الوعي بل كتعبير عن هذا التأثير المتبادل هكذا يكمن أساس الارتباط بين الوعي السياسي والحقوقي في الارتباط بين العلاقات السياسية والحقوقية وفي ارتباط هذه العلاقات مع نشاط الدولة ان العلاقات السياسية والحقوقية اذا ما عزلت عن الوعي السياسي والحقوقي الذي تتكون بالتطابق معه يمكن فهمها بصورة محدودة فقط كأساس للتأثير المتبادل بين انواع الوعي وعلى المرء ان لا ينسى مطلقاً ان علاقات البنية الفوقية وانواع الوعي المطابقة لها أساس واحد هو العلاقات الاجتماعية المادية بخصوص هذا الأساس تشكل انواع معينة من العلاقات - في حالتنا نقصد العلاقات السياسية والحقوقية - والتصورات والآراء المطابقة لها كلا متكاملًا وتدخل عموماً في تأثير متبادل تلك الظواهر التي تشمل علاقات ومؤسسات وآراء وسنتامل الارتباط المتبادل بين الوعي الحقوقي والاخلاقي من اجل ايضاح ما عيناه

لقد درسنا فيما سبق ، وبصورة سريعة ، خصوصية الوعي الاخلاقي والحقوقي كلا الوعيان ينصبان على سلوك البشر في المجتمع ويتضمنان احكاماً حول مسائل عامة كمسؤولية الفرد عن سلوكه ، وتقييم السلوك ، والحرية ، والضرورة في العمل البشري الخ

وتتجسد الآراء والتصورات الحقوقية والاخلاقية في ضوابط سلوكية وروابط حقوقية واخلاقية متناسبة معها وتتكون الضوابط الحقوقية والاخلاقية بالتطابق مع تصورات وآراء معينة . وتمثل الروابط

الحقوقية والاخلاقية تحقق المعايير (الضوابط) السلوكية التي وضعتها سلطة الدولة ، اي رسختها وحفظتها عن طريق الاكراه (كالمعايير الحقوقية) من جهة ، والتي أنتجها من جهة ثانية المجتمع (او طبقة او مجموعة) وتم الحفاظ عليها بواسطة رأي اجتماعي ، أي بواسطة اقتناع البشر بها ان الآراء والمعايير والروابط تشكل الظواهر الاجتماعية الخاصة للحقوق والاخلاق ، وهما في حالة ارتباط ببعضهما اما طابع هذا الارتباط فيتحدد بالاساس الذي تنمو فوقه هذه الظواهر اي بعلاقات الانتاج التي يقيمها البشر

في الظروف الاشتراكية تحدث علاقات الانتاج الجماعية وحدة في المصالح الاساسية للطبقات والفئات الاجتماعية وتعتبر الحقوق الاشتراكية والاخلاق الاشتراكية عن مصالح المجتمع لذا فان الحفاظ على المعايير الاخلاقية يفدو واجبا قانونيا والتزاما اخلاقيا ان معايير الحقوق الاشتراكية لا تصان بقوة الدولة فقط بل ايضا بالقناعة الاخلاقية للبشر ، وهي تتبادل التأثير مع معايير الاخلاق وتتكامل المعايير (الضوابط) الحقوقية والاخلاقية التي تنظم سلوك البشر في العمل وطريقة الحياة في المجتمع ، وتتداخل ببعضها

ان الروابط المتبادلة بين المعايير الحقوقية والاخلاقية ، وبين العلاقات الحقوقية والاخلاقية ، يسمح بالقول هذه الروابط هي ايضا تعبير عن الارتباط المتبادل بين الوعي الحقوقي والوعي الاخلاقي ان الذي يتبادل التأثير هو ظواهر البنية الفوقية الاجتماعية - في حالتنا تمثل هذه الحقوق والاخلاق - وهذه الروابط المتبادلة بين الظواهر هي بالضبط ما يجب علينا ان ندرسه

لا يجوز ان نستنتج مما سبق ان الروابط المتبادلة بين التكوينات الفكرية ليست هامة ما عنيانه هو ان هذه المسألة تفقد على صعيد انواع الوعي اهميتها القائمة بذاتها وتفدو وجها وعنصرا في روابط متبادلة أعمق هي الروابط المتبادلة بين العلاقات الاجتماعية التي تمثل ظواهر الوعي عناصرها ويكتسب الارتباط الداخلي للتكوينات الفكرية عندئذ استقلالا نسبيا ، عندما يحدث تحليل الوعي الاجتماعي على مستوى أعلى من التجريد عندئذ يتم النظر الى الوعي تجريده الى حد ما عن العلاقات الاجتماعية ، وهو ما لا يكون ممكنا ، عندما ندرس انواعه هذا يعطينا الامكانية للكشف عن بنية اخرى ، ذات وجود واقعي للوعي الاجتماعي ، وللتعرف على روابط مباشرة (ليست فقط توسطة) بين مكوناته البنيوية.

مراجع الفصل الثاني

- ١ - كمثل نسوق كتاب « المادية التاريخية » لغورازوف في هذا المؤلف يقول الكاتب ان المادية التاريخية لا تدرس كل وعي ، بل الايدولوجيا فقط . ويؤكد « ان كل ايدولوجية هي نظام افكار ، ولكن ليس كل فكرة أو نظام افكار ايدولوجية » وهو يميز الايدولوجية كعلاقة اجتماعية عن الوعي كعملية ذاتية - نفسية . ويعتبر انواع الايدولوجية علاقات اجتماعية مختلفة
- ٢ - ماكليوفا المادية التاريخية موسكو ١٩٦٣ ، صفحة ٢٣٥ ، ٢٩٠ وما يليها
- ٣ - تشيسنوكوف المادية التاريخية الجزء الثاني ، موسكو ١٩٦٥ ، صفحة ٢٤٠ وما يليها.
- ٤ - أشكال الإدراك الاجتماعي ، موسكو ١٩٦١ ، صفحة ٢٢
- ٥ - كالك علم الإدراك الاجتماعي ، صفحة ٨٧
- ٦ - نفس المصدر ، صفحة ٩٠
- ٧ - تكتب سوهووشوفا « في علم الفلسفة يصرر الوعي غالباً على المعرفة وتتم عملياً مماثلته مع التفكير ، وينحصر وصف محتواه بأسره في كشف بنيته المنطقية »
- ٨ - أكد روسيل صعوبة مثل هذا التعريف لو تساءلنا ماذا نفهم تحت كلمة معرفة ، لوجدنا ان الاجابة غير محددة وكثيرة المعاني كما لو اننا تساءلنا ماذا نفهم تحت كلمة غباء » ب. راسل المعرفة الانسانية ، لندن ١٩٤٨ ، صفحة ١٧٤
- ٩ - روبنشتاين : الوجود والوعي برلين ١٩٧٠ ، صفحة ٢٧
- ١٠ - ماركس - انجلز : الايدولوجيا الالمانية ، صفحة ٢٦
- ١١ و ١٢ - سيلينوف وسيليفانوف
- ١٣ - نفس المرجع
- ١٤ - الشيوعية والثقافة موسكو ١٩٦٦
- ١٥ - التناول البنيوي لتحليل المجتمع يقود بالضرورة الى نظام العلاقات الاجتماعية وهناك أعمال كثيرة ظهرت في السنوات الاخيرة لالقاء الاضواء على هذا النظام
- ١٦ - لينين من هم « أصدقاء الشعب » وكيف يناضلون ضد الاشتراكيين الديمقراطيين الاعمال ، الجزء الاول برلين ١٩٦١ ، صفحة ١٤٢ وما يليها
- ١٧ - نفس المصدر
- ١٨ - ستالين الماركسية وقضايا علم اللغة برلين ١٩٥١ ، صفحة ٥
- ١٩ - توجارينوف
- ٢٠ - كان ماركس يرى في العلاقات الحقوقية والسياسية أشكالاً تظهر بها العلاقات الاقتصادية .
- ٢١ - ان مقولات « المادي » و « اللهني » ، « الموضوعي » و « الذاتي » ، « العفوية »

و « الوحي » تصف العلاقات الاجتماعية من منظورات مختلفة ، يستخدم الزوج الاول من القولات في التحليل المعرفي ، في حين يستخدم الزوج الثاني في التحليل السوسولوجي ويرتبط عدم الدقة الذي تصادفه في الادبيات المختصة بعدم الدقة في تمييز الوجوه المختلفة للتحليل ، أي بشيء ووجود وتطور العلاقات الاجتماعية .

٢٢ - يدرس ميخائيلوف المجتمع كنظام ، ويقسمه خلال ذلك الى مجالات رئيسية للحياة الاجتماعية ، وكذلك لظواهر اجتماعية رئيسية في كل من هذه المجالات ودون التعرض لهذا المخطط ، يجب القول ان التحليل البيوي للمجتمع منتج ومجد ، وهو يسمح بتحليل المجالات الرئيسية للفعالية البشرية ، ولللاقات المرتبطة بها -

٢٣ - انجلز لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية - ماركس - انجلز

الاعمال ، الجزء ٢١ ، برلين ١٩٦٢ ، صفحة ٣٠٢

٢٤ - ماركس - انجلز الاعمال ، الجزء ٣٧ ، برلين ١٩٦٧ ، صفحة ٩٢

٢٥ - موجز نظرية الاخلاق الماركسية - اللينينية . لينينغراد ١٩٦٢ ، صفحة ٢٣

٢٦ - نفس المرجع . ص ٢٤

٢٧ - نفس المرجع . ص ٢٦

٢٨ - نفس المرجع .

٢٩ - نفس المرجع . ص ٢٣

٣٠ - نفس المرجع .

٣١ - انجلز : انقلاب السيد دوهرنج العلمي (ضد دوهرنج) الاعمال الكاملة ، الجزء ٢٠ ،

برلين ١٩٦٢ ، صفحة ٨٧

٣٢ - نفس المرجع .

٣٣ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية ، صفحة ٣٢ وما يليها .

٣٤ - لينين : حول النقابات الاعمال الكاملة ، الجزء ٣٢ ، برلين ١٩٦١ ، صفحة ١٥

٣٥ - ماركس - انجلز : الاسرة المقدسة ، او نقد الانتقاد النقدي الاعمال ، الجزء

الثاني ، برلين ١٩٥٨ ، صفحة ٨٥ .

٣٦ - مسائل التاريخ السياسي . موسكو ١٩٦٠

٣٧ - لينين المؤتمر التاسع لحزب البلاشفة الروس الاعمال الكاملة ، الجزء ٣٠ ،

برلين ١٩٦١ ، صفحة ٤٦ وما يليها

٣٨ - لينين : حول النزعة الاقتصادية الامبريالية الاعمال ، الجزء ٢٣ ، برلين ١٩٦٠ ،

صفحة ٤٠

٣٩ - ماركس : في رسالته الى فريدريك بولته . في المؤلفات الكاملة ، الجزء ٢٣ ،

برلين ١٩٦٦ ، صفحة ٣٢٣

٤٠ - هاربر اشكال الادراك الاجتماعي صفحة ٦٠

٤١ - جوفه وشارجورودسكي .

٤٢ - لينين : الاعمال ، الجزء ٢٤ ، برلين ١٩٥٦ ، صفحة ٥٨٠ .

٤٣ - كيتشيكيان .

٤٤ - نفس المصدر .

- ٤٥ - انجلز : ضد دوهرنج . صفحة ٢٩٤
- ٤٦ - دونيني : الانموذج والايديولوجيا . الجزء ٢ ، موسكو ١٩٦٦ ، صفحة ٢٦
- ٤٧ - اوجرينوفتش : مشاكل فلسفية لنقد الدين . موسكو ١٩٦٥ ، صفحة ١٣٨ وما يليها .
- ٤٨ و ٤٩ : توكاريف الدين والسحر . موسكو ١٩٥٩ ، صفحة ٧٤
- ٥٠ - توكاريف ، نفس المصدر .
- ٥١ - لياندا : علم الاجتماع والدين . صفحة ٦٧
- ٥٢ - نفس المرجع .
- ٥٣ - ماركس : المسودات الاقتصادية الفلسفية . صفحة ٥١٧
- ٥٤ - كروكوفسكي : المنطق الجمالي . مينسك ١٩٦٥ ، صفحة ٢٨ وما يليها .
- ٥٥ - ستولوفيتش : علم الجمال والحقيقة . موسكو ١٩٥٩ ، صفحة ١١٤
- ٥٦ - نفس المصدر .
- ٥٧ - نفس المصدر .
- ٥٨ - جولنتريشت : طبيعة الابداع الجمالي . موسكو ١٩٦٦ ، صفحة ٦٠
- ٥٩ و ٦٠ - بجوروف : الفن والمجتمع . موسكو ١٩٥٩ ، صفحة ٥٨
- ٦١ - نفس المصدر .
- ٦٢ - الفلسفة الماركسية - اللينينية . موسكو ١٩٦٥ ، صفحة ٤٥٦
- ٦٣ - ماركس - انجلز : الاسرة المقدسة . صفحة ١٢٦
- ٦٤ - انجلز : لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، صفحة ٢٩٢
- ٦٥ - انجلز : ضد دوهرنج . صفحة ١٢٩
- ٦٦ - نفس المرجع . صفحة ٥٤٧
- ٦٧ - كارافاي وشاريوف : المادية التاريخية والعلوم الطبيعية : طشقند ١٩٦٦ ،
صفحة ٤٥
- ٦٨ - نفس المصدر .
- ٦٩ - بناء الشيوعية والعالم الفكري للانسان . صفحة ١٨٩
- ٧٠ - ماركس : اطروحات حول فويرباخ الاعمال الكاملة ، الجزء ٣ ، برلين ١٩٥٨ ،
صفحة ٥٣٥ .
- ٧١ - ماركس : رأس المال ، الجزء الاول ، صفحة ٢٧ وما يليها
- ٧٢ - ماركس : مدخل الى نقد الاقتصاد السياسي الاعمال ، الجزء ١٣ ، برلين ١٩٦١
صفحة ٦٣١
- ٧٣ - كرونرود : قضايا المنهج والنظرية . موسكو ١٩٦٦

القُصْلُ الثالِث

مِجَالَاتِ الوَعْيِ الاجْتِمَاعِي

١ - النشاط الفكري - العملي للبشر ومجالات الوعي الاجتماعي

كان ماركس وانجلز أول من أشار ، في الإيديولوجيا الألمانية الى ارتباط بنية الوعي الاجتماعي بنشاط البشر فكتبا ، لدى تناولهما الانواع المختلفة للوعي الإيديولوجي ، ان « وظيفة » و « دعوة » و مهمة و « مثال » البشر ، وهي موضوعات ينصبّ اهتمام الإيديولوجيا عليها هي « التعبير الواعي عن انماط نشاط الافراد المتجسد ، بفضل تقسيم العمل ، في اشغال مختلفة أو هي التعبير الواعي عن ضرورة يجد الافراد والطبقات والامم انفسهم فيها في كل لحظة ، وتتجلى في تأكيد وضعهم بواسطة نشاط معين بدقة يبدلونه » (١)

وفي علم النفس يكمن الارتباط المتبادل بين بنية النفس البشرية ونشاطها ، في حقيقة ان العمليات النفسية تتعين بنشاط البشر ، وفي اتخاذ « اعادة انتاج النشاط المادي للانسان شكلا فكريا (٢) هذا الاستنتاج توصل اليه عالما النفس السوفييتان روبنشتاين و ليونتييف (٣) وقد دلل الاخير على ان العمليات والظواهر النفسية لا تملك وجودا فعليا الا في بنية النشاط الانساني ، وان « بنية وعي انسان ما ترتبط ببنية نشاطه (٤) ويتابع ليونتييف كيف تنتج الظروف التاريخية - العيانية المعطاة بنية معينة للنشاط البشري ، فيصل الى النتيجة التالية ان كل نمط من بنية الوعي يتوافق مع نمط معين من الانعكاس النفسي ومع تغير بنية النشاط البشري تتغير ايضا البنية الداخلية للوعي البشري (٥)

تتعين بنية الوعي الفردي والاجتماعي إذن بنية النشاط البشري ويعتبر انتاج السلع المادية ، وسواه من النشاطات البشرية فعالية جماعية واجتماعية ، قبل كل شيء وعلى هذا الاساس يتكون في البدء ، محتوى الوعي الاجتماعي ، ثم يتبعه محتوى الوعي الفردي والواقع المحيط بالبشر والممارسة والتجربة الاجتماعيتين ، يتعممان

و « يتركزان » في وعي البشر كمعان ، ثم يشتبان في اللغة والمعنى المثبت في صيغة مفهوم ، أو معرفة ، أو معيار سلوكي ، أو مهارة ما يشكل « محتوى الوعي الاجتماعي » ، فيفقد المعنى ، وفق هذه الصيغة ، وفي نفس الوقت ، وعيا واقعا للفرد الذي يوضع (بضمي موضوعية) المعنى الذاتي لما يتم عكسه » (٦)

تحدد البنية المعقدة للوعي الاجتماعي من خلال الممارسة المتعددة الوجوه للبشر وبالتطابق مع روابط البشر فيما بينهم وحيال العالم تنشأ في سياق فعاليتهم أنواع معينة من الوعي الاجتماعي وبالارتباط مع فعالية البشر التي تنصب خاصة على إنتاج أفكار وآراء ، وعلى نشرها في المجتمع تتشكل مجالات كبيرة للوعي الاجتماعي وهذه لا توجد منفصلة عن أنواع الوعي ، بل بفضلها ومن خلالها ولو استخدمنا المقولات الفلسفية حول « الخاص » و « المتفرد » ، كان بوسعنا القول ان مجالات الوعي تمثل ما هو خاص بالقياس الى أنواع الوعي كشيء متفرد وتشكل الوظائف الاجتماعية التي يحققها الوعي ، الصفة النوعية المميزة لما هو خاص والوعي الاجتماعي متضمن في فعالية البشر ويعبر عنها وهو يحقق وظائف من أنواع مختلفة وظائف معرفية ، تمثيل وشرح مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية ، ووظائف فلسفية ، وإرادية - عاطفية ، وتحكمية - ضابطة الخ ولكن ليس كل الأفكار والآراء والتصورات والعواطف ، التي تكون الوعي الاجتماعي ، تحقق سائر الوظائف التي ذكرناها ، أو تحققها بنفس القدر وعلى سبيل المثال تملك التصورات الحقوقية للإنسان حول ما هو جائز ، ما هو قانوني أو غير قانوني في السلوك ، وإلى حد ما ، وظيفة معرفية ولكن وظيفتها الرئيسية تكمن في التحكم بالروابط الحقوقية وبحسب الوظائف المحققة يتوزع المحتوى العام للوعي الاجتماعي الى المجالات المطابقة لها

تحدد وظائف الوعي من خلال الحاجات الاجتماعية فالمجتمع يهتم بتطوير المعرفة ، وبتوصيل التجربة الاجتماعية ، وبالتحكم بالروابط انه ينظم لهذه الغاية « الانتاج الفكري » ، ويشكل وعي البشر ومن المعروف ان ماركس وانجلز قد ميزا بين جانبين من الفعالية البشرية الجانب الاول هو « الطبيعة من خلال الإنسان » والجانب الثاني هو « معالجة الإنسان من خلال الإنسان » (٧) في سياق التطور الاجتماعي تبرز التربية والتعليم ، والفعالية الايدولوجية والعلمية كأنواع للفعالية

المنصبية على « معالجة الانسان من خلال الانسان » وهذه تحدد خصوصية مجالات الوعي الاجتماعي

توجد التربية كشرط ضروري للنشاط الحياتي للمجتمع منذ نشوئه . وهي تشترط قبل كل شيء توصيل معارف ومهارات معينة ، تقوم على التجربة الاجتماعية المكتسبة في عملية الانتاج المادي ، من جيل الى آخر في شروط المجتمع الاول لم تكن التربية قد اصبحت بعد وظيفة اجتماعية تمارسها فئة خاصة من البشر ، بل غدت كذلك بعد تقسيم المجتمع الى طبقات

وتزداد باضطراد اهمية الوظيفة التربوية ، اي وظيفة التأثير الواعي من فئات بشرية على اخرى من اجل ادخال أفكار وآراء وصفات نفسية - اجتماعية في سلوكها ومخزونها المعرفي ، مع تقدم المجتمع وهناك مصفوفة من الاسباب التي تبرر ذلك ، مثل توسيع المجال الفكري لحياة المجتمع ، وبخاصة تعاظم الوعي الطبقي لدى الجماهير الشعبية وتؤدي الاهمية المتعاظمة لهذه الوظيفة ، بدورها ، الى توسيع موضوع التربية (فيغدو الشعب المتقدم نسبيا في السن الى جانب الجيل الصاعد موضوعا للتربية) ، فتسخر وسائل وقوى اجتماعية اكر من اجل تحقيقها وفي داخل الوظيفة التربوية تملك الفعالية الايدولوجية المنصبية أساسا على انتاج الوعي وحمله الى رؤوس البشر ، وجودا فعليا مستقلا نسبيا

وللفعالية الايدولوجية - كالتربية عموما - في كل مجتمع اهدافها ومهامها ومحتواها ولا يسعنا هنا سوى ذكر عدد قليل من سماتها العامة التي تشترك بها سائر أنواعها المختلفة ، والتي تبدو في الظاهر بعيدة عن بعضها ، مثل الفعالية الصحفية ، والدينية ، والفنية وسواها مثل هذه السمات المشتركة هي **أولا** التعبير عن مصالح طبقية في عورة أفكار وآراء سياسية واقتصادية وفلسفية ومثل ، وانماط أخلاقية وفي أعمال فنية وسواها من منتجات الانتاج الفكري وهي **ثانيا** شر منتجات الانتاج الفكري بين الجماهير ، لترسيخ مصالح طبقية معينة والدفاع عنها وتملك الطبقات المسيطرة الامتياز على مثل هذه الفعالية فهي ، كمالكة لوسائل الانتاج المادي ، توزع ايضا وسائل « الانتاج الفكري مما يؤدي الى توغل أفكار وآراء الطبقة المهيمنة في المجتمع بأسره

ويمكن للمرء ان يستنتج طابع الفعالية الايدولوجية ، وبشكل خاص انتشار أفكار وآراء الطبقة السائدة ، عندما يتأمل مثالا الدعاية الرسمية

في المجتمع البرجوازي الراهن ان البرجوازية تطمح ، بمساعدة الدعاية، لفرض مقاييسها الفلسفية ، ومفاهيمها السياسية والحقوقية والاخلاقية ك معايير حياتية على سائر الطبقات ، لتحدد « بصورة مسبقة » سلوك البشر . ويعتبر ايدولوجيوها الدعاية اكثر الوسائل اهمية في « الرقابة الاجتماعية » على افكار ومشاعر الجماهير الضخمة . وهم يرون فيها تقنية للرقابة الاجتماعية « تسمح للملكي السلطة بحقن البشر بأفكار وآراء معينة وضرورية من خلال قبول او ادانة آراء وافكار معينة ، او عرض وتفسير حقائق معينة الخ ، وبالتالي لخلق دوافع وبواعث محددة لسلوكهم

تقف الفعالية الايدولوجية للطبقة العاملة في وجه التأثير الفكري للبرجوازية على الجماهير . وقد ميز لينين في هذا الشكل النضالي للطبقة العاملة ثلاثة وجوه مترابطة **العمل النظري ، الدعاية ، والتحريض** (٨) وهي تملك جميعا هدفا واحدا ، هو تكوين الوعي الاشتراكي عند الشعب . وتحققه من خلال حل مهماتها المتميزة من مرحلة لآخرى . فبينما تتركز الفعالية النظرية على وضع النظرية الثورية ، تنصب الدعاية والتحريض على نشر افكار الطبقة العاملة وآرائها السياسية والاقتصادية والاخلاقية الخ ، بين الجماهير

ويظهر من مقارنة الدعاية التي يمارسها حزب اشتراكي مع الدعاية البرجوازية كم تختلف هاتان جوهريا . فبينما تمثل الدعاية البرجوازية اداة « للرقابة الاجتماعية على افكار وآراء ومشاعر الجماهير ، بأن تفرض على البشر افكارا ومشاعر في مصلحة الطبقات السائدة ، يطمح الحزب الاشتراكي الى نشر افكار الماركسية - اللينينية التي تعبر عن مصالح الجماهير في الحالة الاولى تنتشر افكار غريبة تلف الوعي الطبقي بالضباب ، وفي الحالة الثانية تساعد الدعاية الجماهير في التعرف على مصالحها الخاصة ، وتقوي تعاظم الوعي الطبقي الذاتي

في ظروف المجتمع الاشتراكي تستهدف الدعاية صياغة النظرة العلمية الى العالم ، وتربية الجماهير على اتخاذ موقف صادق من العمل والحفاظ على الاخلاق الاشتراكية وافكار الاممية البروليتارية والوطنية الاشتراكية . وهي تخدم تربية الانسان الجديد المتطور من سائر الوجوه، والنضال ضد الايدولوجية البرجوازية ، وضد مخلفات الماضي في وعي وسلوك البشر .

ان الفعالية الايدولوجية التي تستهدف خلق أفكار ورؤى محددة وانفاذا الى وعي الجماهير العريضة وتربية انماط وبواعث سلوكية معينة ، يجب ان تؤثر بصورة مفهومة في محتوى وبنية الوعي الاجتماعي تحت التأثير المباشر للفعالية الايدولوجية ان محازبي الراسمالية يحاولون بكل الوسائل الدفاع عن هذا النظام الاستغلالي الاخير ، المحكوم عليه بالاندثار وفي نفس الوقت فان حملة النظام الجديد مصممون على انتصار الاشتراكية في سائر ارجاء الارض لانها ، بعكس الراسمالية ، تتوافق مع قوانين التطور الموضوعية للمجتمع

تشكل الفعالية العلمية فرعا خاصا للنتاج الفكري. وبعض التصورات العلمية المتفرقة تتشكل لدى البشر بالارتباط مع معارفهم التجريبية اليومية ولكن العلم كفرع خاص للنتاج الفكري لم ينشأ الا في مرحلة متأخرة نسبيا من تطور المجتمع حين صار من غير الممكن للنتاج ان يتطور دون تطبيق المعارف المعللة نظريا حول الخصائص الفيزيائية والكيميائية وسواها من خصائص موضوعات الطبيعة ، ودون معرفة قوانين تطور العالم المادي هذه المعارف ما كان احرازها ممكنا الا في سياق الفعالية العلمية ، وبالارتباط مع استخدام الاجهزة الملائمة وباجراء اختبارات وتجارب الخ وترتبط الفعالية العلمية بالضرورة مع تنظيم مخابر ومعاهد خاصة ومع اعداد الكادر الضروري الخ وهذا يفسر ايضا، الى حد ما ، لماذا تأخر نشوء العلم بالقياس الى الانواع الاخرى من الانتاج الفكري

في الظروف الراهنة غدا العلم واحدا من مجالات الفعالية البشرية التي تنطور بأسرع ما يكون التطور ويعود الوقع المتسارع لتطور العلم الى الحاجات الاجتماعية ، ويتأمن من خلال انخراط قسم كبير من الشعب العامل في النشاط العلمي

يعتبر الابداع العلمي عملية جد معقدة من عمليات « الانتاج الفكري وهو يتطلب ، لهذا السبب ، جهودا موحدة لمجموعات عمل كبيرة داخل نظام متشعب من معاهد البحث ، والمؤسسات العلمية ، والمخابر الصناعية الخ وتكون الفعالية الباحثة من عناصر كثيرة ، مثل الحصول على المعطيات الضرورية حول الظواهر المدروسة بمساعدة التجارب والمراقبة ، وهذه طرائق تتطلب جهودا خاصة ، كتحليل المعطيات المكتسبة ، والوصول الى استنتاجات مناسبة وفحصها الخ

ان الفعالية العلمية كنوع قائم بذاته من الفعالية هي حسب طبيعتها ، عملية اعلام خاصة (٩) ويملك هذا النوع من «الانتاج الفكري» ، الى جانب التربية والفعالية الايدولوجية ، تأثيرا مباشرا ايضا على محتوى وبنية الوعي الاجتماعي وتمثل نتائج الفعالية العلمية المجمعة في وقائع بتعميماتها وتراكيبها ونظرياتها ومبادئها المصاغة وقوانينها معرفة نظرية معللة تم اختبارها من وجوه كثيرة وهي تعتبر بالنظر الى محتواها موضوعية مثل هذه المعرفة نسميها معرفة علمية ، تميزا لها عن المعرفة اليومية التجريبية

تشرط انواع الفعالية البشرية المنصبة على انتاج وتوزيع الافكار ان يصنف الوعي الاجتماعي الى مجالات معينة ومقياس التصنيف هو الوظائف التي تمارسها افكار وتصورات وعواطف محددة لدى البشر وتتماثل وظائف مجالات الوعي بالاساس مع وظائف الفعالية البشرية المنصبة على انتاج وتوزيع الوعي وتعتبر مجالات الوعي متضمنة في الفعالية الفكرية للبشر ، وهي تحقق نفس الوظائف التي تحققها الفعالية نفسها ومن المفهوم انه لا يمكن ان ينشأ تطابق تام بين وظائف الفعالية ووظائف منتجاتها ، بسبب الاستقلال النسبي لمنتجات الوعي قبل كل شيء ان كل نسيج فكري يحقق وظائف مختلفة هكذا تملك المعرفة المعللة نظريا ، والمختبرة عمليا وظائف اتصالية وأخرى ذات صلة بالنظرة الى العالم الخ وبغض النظر عن مدى التطابق بين مجالات الوعي وانواع الفعالية الفكرية ، فان التطابق نفسه هو امر موضوعي ، يمكننا من تحليل بنية الوعي الاجتماعي وتملك المعرفة الموضوعية وظائف مختلفة ولكن وظيفتها الرئيسية هي الوظيفة المعرفية، اي تلك التي تحققها الفعالية العلمية كنوع خاص من الانتاج الفكري ويصح نفس الشيء بالنسبة للايدولوجيا كمجال خاص للوعي ان وظائف الايدولوجيا اوسع بكثير من وظائف العلم ولكن خصوصيتها ايضا تتحدد بدورها عبر فعالية البشر ، التي تمثل المصالح الطبقية وتعبر عنها والوظيفة الرئيسية للايدولوجيا هي التعبير عن المصالح الطبقية (للطبقات ، الفئات الاجتماعية، والمجتمع بأسره) وهذه تحدد بدورها مكانها في بنية الوعي الاجتماعي

في الادبيات الفلسفية طرح السؤال حول تقسيم الوعي الاجتماعي الى علم وايدولوجية كمجالات خاصة دون الارتباط مع الوظائف التي يمارسها الوعي في كل مرة ، بل بالارتباط مع الصفات الخاصة لانعكاس

الوجود الاجتماعي لذا يميز كبله وكوفالسون بين عمليات معرفية وايدولوجية أو اتجاهات في تطور الوعي الاجتماعي (١٠)

يكن ما هو عقلاني في هذا التقسيم في اعتقادنا في ان المؤلفان يطرحان موضوع التمييز بين مجالات الوعي الاجتماعي بالارتباط مع الوظائف التي تحققها انهما يتحدثان معا عن العملية المعرفية والايدولوجية في تطور الوعي ، ولكن اهتمامهما ينصبّ علما على الوظائف المعرفية والايدولوجية التي يحققها العلم أو الايدولوجيا وتشير الى ذلك المقدمات التي ينطلقان منها في اطروحتهما القائلة ان تطور الانتاج الاجتماعي قد ولد بالضرورة المعرفة العلمية النظرية ، التي لولاها لما استطاع الانتاج ان يتطور بدوره وفي نفس الوقت ابرزت ممارسة الصراع الطبقي في المجتمعات التنافسية الحاجة الى الايدولوجيا اي تبرير فكري للمصالح الطبقية

بالاعتماد على هذه المقدمات ، تعالج الاطروحة المنصبة على العملية الايدولوجية والمعرفة كتعبير غير صحيح لوظائف الوعي الاجتماعي هذا يصحّ مثلا بالنسبة لبروكوب الذي يفسر اطروحة العملية المعرفية والايدولوجية حول انعكاس الواقع كأطروحة عن وظائف الوعي الاجتماعي. ويجد بروكوب ان الوظيفة المعرفية والايدولوجية لا تستنفذ دور الوعي الاجتماعي ، لذا فهو يستخدم المفهوم الأشمل حول « الوظيفة الثقافية ويرره بأن البشر لا يريدون معرفة العالم فقط بل امتلاكه أيضا وهذا نشاط لا يقتصر على العلم فحسب ، بل يمتد الى الثقافة الفكرية بأسرها ويصل بروكوب في الختام الى ان

« الوعي الاجتماعي يخدم الحياة الاجتماعية والوجود المادي للبشرية في وظيفتين : الاولى (الايدولوجية) تعبر بصورة رئيسية عن طبيعته الطبقية . اما الثانية فتعبر عن واقع ان الوعي الاجتماعي في تطوره يمتلك حقا الواقع ، بمعنى انه يمتلك قوى الطبيعة والمجتمع والانسان وهذه الحقيقة يمكن اختصارها في الاطروحة التالية « عندما يمتلك الوعي الاجتماعي الواقع ، افانه يتجلى كثافة ، ويتماثل مع الوظائف الثقافية التي يمارسها كوعي اجتماعي » (١٠) .

ان مجرد طرح السؤال حول عدم استنفاد الوظيفة المعرفية والايدولوجية للدور (الثانوي) للوعي الاجتماعي ، هو في نظرنا امر مشعر بيد انه من المشكوك به ما اذا كان استبدال الوظيفة المعرفية بوظيفة

ثقافية أشمل هو الحل الصحيح للمسألة المطروحة من الواضح ان هذا الحل يحب ان يبحث عنه عن طريق التمايز الوظيفي فمفهومنا الوظيفة الايديولوجية الثقافية هما مفهومان جامعان لوصف وظائف كثيرة مشخصة يمكننا تحليلها من تفسير وشرح الدور الواقعي للوعي الاجتماعي وسنتحدث فيما بعد عن بعض وظائفها المشخصة ، حين نتأمل مجالات الوعي الاجتماعي هنا يبقى التأكيد على ان وظائف الوعي الاجتماعي متعددة الاشكال وان محتواها يتحدد من خلال الفعالية الفكرية للبشر والتربية هي اكثر انواع الفعالية الفكرية للبشر شمولاً بالمعنى الواسع للكلمة تستهدف التربية الاجتماعية تسليح البشر بمعارف ومهارات وافكار ورؤى سياسية واخلاقية وجمالية الخ محددة وتنصب بالمعنى الضيق ، على تكوين الوعي والصفات النوعية النفسية - الاجتماعية، وبواعت الفعالية ، والتقاليد والعادات السلوكية انها تصوغ نفسية البشر ، اي الوعي الواقعي الذي يتحقق في سلوك وعمل كل فرد

وتشير تصريحات لينين حول قضايا التربية وخاصة خطابه في المؤتمر الثالث للشبيبة الشيوعية عام ١٩٢٠ الى انه كان يرى جوهر التربية في ضرورة تجاوز البنية النفسية القديمة للبشر وتكوين بنية نفسية جديدة للمجتمع الجديد قال لينين ان البشر الذين تربوا في المجتمع القديم « كانوا يرضعون مع حليب امهاتهم ، كما يقولون ، العادات والطباع والمفاهيم التي تقول بأنه يجب عليهم اما ان يصبحوا ملاكاً للعبادة ، او عبيداً او ملاكاً صفاراً ، او موظفين صفاراً ، او مستخدمين صفاراً ، او مثقفين ، اي باختصار ، بشر يهتمون فقط بفائدتهم الخاصة دون الآخرين ... هذه الطباع ، وهذه التركيبة لا يجوز ان توجد لدى الشيوعيين » (١١) .

هدف التربية الاشتراكية هو تجاوز المواقف النفسية - الاجتماعية ، والتقاليد والعادات القديمة للبشر وتعزيز ملامح نفسية - اجتماعية جديدة للشخصية

وقد اكد لينين ان محتوى الايديولوجية الاشتراكية في عملية التربية يغدو دليلاً للعمل وقال امام مندوبي المؤتمر

« انكم تقفون امام مهمة البناء ، ولن تستطيعوا حلها الا اذا تملكتم سائر المصارف الراهنة ، واهتمتم كيف تحولون الاشتراكية من صيغ محفوظة عن ظهر قلب ، ونصائح ، ووصفات ، وتعاليم ، وبرامج الى شيء حي قادر على الاحاطة بملككم المباشر ، وعلى تحويل الاشتراكية الى دليل لملككم » (١٢)

تشكل السيكولوجية الاجتماعية المجال الرئيسي الثالث للوعي الاجتماعي قبل أن نتحدث عن خصوصية السيكولوجية الاجتماعية ، ووظائفها وارتباطاتها مع مجالات الوعي الاجتماعي الأخرى ، نريد أن ندلي بملاحظتين

أولاً ان حصر أنواع الفعالية الفكرية بالانواع الثلاثة المذكورة – الايديولوجية ، العلمية والتربوية – هو أمر جد نسبي وعلى سبيل المثال تشتمل الفعالية الايديولوجية على أنواع مختلفة من النشاطات وان كان طابعها العام كتعبير وتمثيل للمصالح الطبقية يمنحنا المبرر للنظر اليها كظواهر لفعالية واحدة هي الفعالية الايديولوجية من المؤكد على كل حال ان هناك ظلالا داخل الفعالية الايديولوجية وربما كان من المبرر وضع بعض فروع الانتاج الفكري هنا الى جانب الفعالية الايديولوجية فالنشاط الفني هو مثلا تعليل لمصالح طبقات معينة بوسائل الفن ودفاع عنها والفن يتحدد في المجتمع الطبقي في محتواه طبقيا ويمكن اعتبار هذا النوع من الفعالية جزءا من الفعالية الايديولوجية واعصار الفن من الايديولوجيا بيد انه ليس من الممكن كما هو معروف اعتبار محتوى الفن بكامله من الايديولوجيا فالفن بعيد انتاج الواقع في صور فنية بما في ذلك وعي المجتمع بفناه وتنوعه ومن الجلي ان الواقع المعاد انتاجه في الرسم والموسيقى والنحت والادب الخ يمكن ان يخدم الحاجات الجمالية والمعرفية وسواها من حاجات الانسان ، دور ان تقتصر على التعبير عن المصالح الطبقية والدفاع عنها

لا نعتبر التفسير الى انواع ثلاثة من النشاط الفكري وبالتالي الى مجالات ثلاثة من الوعي الاجتماعي حلا نهائيا لهذه المسألة لقد كان اهتمامنا ينصب على المبدأ المنهجي في تحليل بنية الوعي نفسه بالارتباط مع انواع الفعالية الفكرية ووظائفها وفي الواقع يمكن وجود انواع قليلة أو كثيرة من النشاط الفكري ومجالات الوعي فهناك مثلا في ظروف نظام الجماعة الاولى نوع من النشاط الفكري والتربية والوعي الاجتماعي لهذه التشكيلة الاجتماعية يجعلان بالامكان التعرف الى سيكولوجية اجتماعية ورائها وفي نفس الوقت يمكن للمرء ان يتنبأ بأن النشاط الفكري للبشر سيتطور في الاشتراكية بطريقة لا مثل لها في التاريخ البشري السابق وبالقيااس مع هذا التطور ، فان مجالات الوعي الاجتماعي نفسها ستزداد . بيد انه في الوضع الاجتماعي الراهن تشمل

الايدولوجيا والعلم والسيكولوجيا الاجتماعية على المحتوى الكامل للوعي الاجتماعي وهذا التقسيم يسمح بدراسة دور الوعي الاجتماعي في حياة البشر بصورة موضوعية

ثانيا يشترط المفهوم الصحيح لتقسيم الوعي الاجتماعي الى مجالات (حسب الوظائف التي تحققها) اخذ الصفات الخاصة للوعي كظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية بالحسبان ويجب أولا مراعاة ان الوعي لا يملك « اجزاء » أو أعضاء وان وظائفه ليست، لهذا السبب، محددة بدقة في مجالاته المختلفة فكل مجال يمكن ان يحقق وظائف تملكها المجالات الاخرى ومع ذلك فان المجالات الرئيسية ، التي تحفظ مجالات الوعي ضمن انواع الفعالية الفكرية العملية للبشر ، تمنحها خصوصية محددة تعبر عن نفسها ايضا عندما تحقق وظائف أخرى ثانيا من الاهمية بمكان مراعاة الوضع المتجلي في ان منتجات النشاط العملي - الفكري لا تستطيع ان تمارس دورها الفعال ، الا عندما تصبح عناصر للوعي الواقعي وال جماهيري ، أي حين تجد انتشارا بين الجماهير يقول ماركس تصبح النظرية قوة مادية ، بمجرد ان تستحوذ على الجماهير « (١٣)

يستطيع المرء ان يتحدث عن وظائف الايدولوجيا والعلم ولكنه يجب ان يعرف ان الفعالية العملية - الفكرية لها هدف نهائي هو صياغة وعي الجماهير

٢ - السيكولوجية الاجتماعية كوعي جماهيري

في الادبيات الفلسفية ، غالبا ما تغطي مسألة المكان الذي تحتله السيكولوجية الاجتماعية في بنية الوعي بمسألة الاعتراف بالسيكولوجية الاجتماعية كظاهرة فكرية للحياة الاجتماعية لقد كان بالطبع من الاهمية بمكان معرفة ان ظواهر السيكولوجية - الاجتماعية تملك وجودا فعليا ، وانها يجب ان توفى حقها من البحث بيد ان الاهتمام ببحث السيكولوجية الاجتماعية قد طرح على العلماء بصورة ملحة مسألة تحديد المكان الذي يحتله هذا التكوين الفكري داخل بنية الوعي الاجتماعي

ماذا نفهم تحت مصطلح السيكولوجية الاجتماعية وما هو مكانه داخل بنية الوعي الاجتماعي ؟ السيكولوجية الاجتماعية هي جملة المشاعر والامزجة ، والعواطف والمهارات والاتجاهات الارادية والعادات وسواها من السمات التي تنشأ لدى مجموعة كبيرة من البشر على اساس الاشتراك في شروط الحياة الاقتصادية - الاجتماعية حسب وجهة نظر الكتاب الذي اقتبسنا منه تعريفنا هذا تحتوي السيكولوجية الاجتماعية على تكوينات فكرية متنوعة تقع تحت مستوى الافكار والآراء ويصطدم مثل هذا المفهوم حول السيكولوجية الاجتماعية بمعارضة ، ولكنه الاكثر انتشارا في الادبيات الفلسفية والسوسيولوجية

ثمة مفهوم آخر للسيكولوجية الاجتماعية ولكنه لا يتميز كثيرا من حيث جوهره ، عن هذا المفهوم وهو يضيف الى محتوى السيكولوجية الاجتماعية تصورات وافكارا ، ويقول في نفس الوقت انها في السيكولوجيا لا تكون ممنهجة ، ولا تحتوي على محاولة ادراك الوجود الاجتماعي في كليته وجوهره من مثل هذا المفهوم للسيكولوجية الاجتماعية نستنتج بصورة منطقية مكانها داخل بنية الوعي الاجتماعي. يقول شورافيلوف ان السيكولوجية الاجتماعية هي العتبة الاولى للوعي الاجتماعي (١٤) ويعمل كليه انها « جزء من الصعيد الأدنى للوعي الاجتماعي » (١٥) ويحدد بارانوف مكان السيكولوجية الاجتماعية داخل بنية الوعي بان ينطلق من

تقسيم الوعي الاجتماعي الى وعي نظري ويومي كصعدين لانعكاس الواقع . وهو يعتبر كل قسم . من الوعي الاجتماعي جزءا من السيكولوجية الاجتماعية ما دام يعكس الروابط الفعلية للبشر حيال الجوانب المختلفة للعالم بصورة ذاتية وعاطفية « (١٦) اما محتوى الوعي التابع للسيكولوجية الاجتماعية فهو لم يتم وعيه بعد بصورة كافية ، وليس واضحا على الصعيد النظري وبينما ينصب الوعي النظري ، بهذا الشكل او ذاك ، على المعطيات الجوهرية الموضوعية تعكس السيكولوجية الاجتماعية وجهها آخر للوجود الاجتماعي الا وهو سلوك الفئات الاجتماعية حيال عالم الظواهر

يتضح من الاستشهادات السابقة ان عددا من العلماء ينظرون الى السيكولوجية الاجتماعية كوعي يومي ، اي كأحد اصعدة انعكاس الواقع على هذا الصعيد يتعامل الوعي مع عالم « الظواهر فقط ، وليس مع جوهر الاشياء ، وهو حسب شكله ، مطبوع بطابع العاطفة واذا ما اعتبرنا السيكولوجية الاجتماعية من الوعي اليومي فانه يجب عندئذ ان تنسب اليها سائر الصفات التي تميز هذا الصعيد من انعكاس الواقع التكون العفوي ، فقدان التنهيج ، عدم التشكل الخ ان الاطروحة القائلة ان السيكولوجية الاجتماعية هي انعكاس للواقع في مستواه الادنى ، تعتبر بالنسبة للباحثين مبدا منهجيا رئيسيا وان كان من الصعب الحكم على قدرته في معالجة المشاكل الرئيسية للسيكولوجية الاجتماعية

لكي نصل الى جوهر المسألة ، نريد ان نتحدث باختصار عن الطريقة التي توصل بها العلماء الماركسيون الى تمييز سيكولوجية اجتماعية داخل بنية الوعي الاجتماعي

لم يستخدم كلاسيكيو الماركسية - اللينينية مصطلح « السيكولوجية الاجتماعية » ، ولم يحلوا بنية الوعي الاجتماعي تحليلا خاصا ويجب على المرء ان يتعامل بحذر مع جملهم حتى لا يضيف عليها معان لا تتوافق معها وقد استخدم مصطلح السيكولوجيا الاجتماعية للمرة الاولى من قبل انطونيو لابرولا ، الداعية الاولى للماركسية في ايطاليا بعد ذلك بدا بليخانوف ايضا باستخدامه واحتفظ المصطلح الذي دخل في السنوات الاخيرة الاستخدام العلمي بالمحتوى الذي وضعه بليخانوف فيه لذا نعتقد ان تقييم مقولات بليخانوف ، ونهاجتيه في تحليل بنية الوعي

الاجتماعي ، وشرحه لمكان السيكلوجية الاجتماعية بداخلها يحتل أهمية خاصة

في كتابه « حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ (١٨٩٥) يفهم بليخانوف تحت سيكلوجية المجتمع وعيا اجتماعيا تحدده البنية المادية للمجتمع كتب بليخانوف

« متى كانت بنية المجتمع معطاة ، فانه لن يكون من الصعب ادراك ان طابعها ينعكس في السيكلوجية العامة للبشر ، في سائر عاداتهم ، وتقاليدهم ، ومشاعرهم ، وآرائهم ، ومطامحهم ، ومثلهم ان العادات والتقاليد والآراء والمطامح والمثل يجب أن تتوافق بالضرورة مع طواز حياة البشر في تدبير غذائهم » (١٧)

ثم يحلل بليخانوف الرابطة المتبادلة بين اقتصاد المجتمع و سيكلوجية المجتمع كوجهين لنفس الظاهرة اي للنتاج المادي للسلع في هذه الرابطة يعتبر اقتصاد المجتمع الاساس الواقعي الذي تنهض عليه « البنية الفوقية الايدولوجية او « سيكلوجية المجتمع التي تتوافق بدورها مع اقتصاده

في الكتاب المذكور تستخدم مفاهيم سيكلوجية المجتمع و الايدولوجيا » و « اشكال الايدولوجيا لوصف الوعي الاجتماعي والحياة الفكرية للمجتمع ولا يتم التفريق بعد بين السيكلوجية والايدولوجية

في كتابه حول المفهوم المادي للتاريخ (١٨٩٧) يحلل بليخانوف مقالات انطونيو لابرولا حول « المفهوم المادي للتاريخ » يستخدم فيه مقتبسا ذلك من لابرولا مصطلح « السيكلوجية الاجتماعية بتميز خاص كتب بليخانوف

« لفهم تاريخ الفكر العلمي أو تاريخ الفن لبلد ما ، لا يكفي ان نعرف اقتصاده . ولا بد للمرء ان يفهم كيف ينتقل من الاقتصاد الى السيكلوجية الاجتماعية ، التي يستحيل دون الانصراف الى دراستها وادراكها باهتمام ، الوصول الى تفسير مادي لتاريخ الايدولوجيات» (١٨)

هنا تستخدم مفاهيم السيكلوجية الاجتماعية « و « الايدولوجية» بمعان مختلفة

ما هو المعنى الذي يضيفه بليخانوف على مفهوم السيكلوجيا

الاجتماعية ؟ يجب بليخانوف لا يوجد ما يهتم معتنق المادية له في هذه الحالة سوى الوضع النفسي والفكري السائد لطبقة اجتماعية معينة في بلد معين وعصر معين ويفهم مثل لا برولا تحت مصطلح السيكلوجيا الاجتماعية الوعي الواقعي للطبقات أي الوعي المنتشر والسائد بين الجماهير يعتاد الشر أن يجدوا في المعتقدات والمفاهيم والطرائق الفكرية والطرز والانواع والحاجات الجمالية ما يرضون به انفسهم (١٩) ان بليخانوف ينظر الى السيكلوجيا الاجتماعية كوعي جماهيري ، ويولي اهتماما خاصا لجانبه العاطفي وهو في الحقيقة لا يقصر السيكلوجيا الاجتماعية - كما فعل كثيرون من أخلافه - على الجانب العاطفي من الوعي بل يتحدث ايضا عن افكار ونظرات فكرية وان كان يضع الوضع النفسي والفكري لهذه او تلك من الطبقات في المقام الاول

يقدم بليخانوف في كتابه القضايا الرئيسية للماركسية (١٩٠٨) اصلا لمسألة مكان السيكلوجيا الاجتماعية داخل بنية الوعي الاجتماعي هنا يقسم بليخانوف الوعي الاجتماعي الى صعيدين « سيكلوجيا الانسان الاجتماعي و الايديولوجيات المختلفة (١٩) وهو يرى الفارق بين هذين الصعيدين في ان سيكلوجيا الانسان الاجتماعي تتحدد بصورة مباشرة من خلال الاقتصاد اي من خلال النظام الاجتماعي - السياسي القائم فوقه بينما تنعكس في الايديولوجيات المختلفة صفات « سيكلوجيا الانسان الاجتماعي (٢٠)

من المعلوم ان الماركسية قد رفضت اطروحة بليخانوف حول الايديولوجية كانعكاس للسيكلوجيا الاجتماعية ان اصعدا الوعي هي اصعدا لانعكاس الواقع الموضوعي في وعي البشر والصعيد الاعلى للوعي ليس انعكاسا لواقع موضوعي ادنى بل هو انعكاس اعظم واكثر كمالا للواقع الموضوعي نفسه غير ان مبدأ تقسيم الوعي الاجتماعي الى سيكلوجيا اجتماعية وايديولوجيا كصعيدين لانعكاس الواقع قد قبل كأهم أساس لتحليل بنية الوعي وقبل أيضا دون اعتراض المبدأ القائل ان الايديولوجيا والسيكلوجيا الاجتماعية يستنفذان محتوى الوعي الاجتماعي وان السيكلوجيا الاجتماعية تفرق عن الايديولوجيا (الوعي النظري) في كونها الجانب العاطفي للوعي اننا نرى ان هذه الاطروحات لبليخانوف ليست صالحة لان نسلم بها تماما

قبل كل شيء نريد التشكيك بأطروحة بليخانوف حول مدى صلاحية الصفات الخاصة لانعكاس الواقع على المستويين الأدنى والأعلى كمقياس لتقسيم الوعي الاجتماعي الى ايدولوجيا وسيكولوجيا اجتماعية من الطبيعي ان التكوينات الفكرية التي تشكل الايدولوجيا والسيكولوجيا يمكن ان ننظر اليها من منظور أصعدة الانعكاس ، بيد ان هذه بحد ذاتها لا تقدم لنا الاساس الكافي لاعتبار هذا التكوين الفكري ايدولوجيا وذاك سيكولوجيا اجتماعية مثل هذا الاساس يمكن ان تقدمه فقط الوظائف الاجتماعية للتكوينات الفكرية ، ودورها في حياة المجتمع ويبدو لنا ان محاولة بليخانوف التفريق بين الايدولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية داخل بنية الوعي على اساس الصفات الخاصة للانعكاس لم تكن موفقة لان المرء يستطيع تقسيم كل التكوينات الفكرية الى وعي نظري ووعي يومي فيما لو انطلق انطلاقا معرفية - تحليلية ، اي من الصفات الخاصة لانعكاس الواقع ، بغض النظر عما اذا كانت هذه التكوينات حسب محتواها جزءا من الايدولوجيا ام من السيكولوجيا الاجتماعية لدى بليخانوف يعتبر مفهوما السيكولوجيا الاجتماعية و الايدولوجيا تسميات اخرى للوعي اليومي والوعي النظري

بيد ان الايدولوجيا والسيكولوجيا هي في الواقع تكوينات بنوية للوعي الاجتماعي من هنا تطرح نفسها في المادية التاريخية ، بصورة متجددة مسألة المقاييس التي تستخدم لتصنيفها داخل بنية الوعي والحل الصحيح لهذه المسألة يرتبط في رأينا ، بفهم طرق التحليل البنوي للوعي الاجتماعي

يسمح استكمال التحليل المعرفي بالتحليل السوسيولوجي بتحديد المروق بين التكوينات الفكرية وفق دورها في حياة المجتمع فنستطيع تقسيم الوعي الاجتماعي الى مجالاته المختلفة وعلى هذا الاساس تبدو ، في الوعي الاجتماعي تكوينات فكرية هي السيكولوجيا الاجتماعية والايدولوجيا والعلم

لقد ادى اضعاف طابع اطلاقي على التناول المعرفي لبنية الوعي الاجتماعي الى قصر محتواه على السيكولوجيا الاجتماعية والايدولوجيا ، واسقاط العلم كمجال قائم بذاته للوعي وكان بليخانوف قد ادخل العلم - كاعلى صعيد للانعكاس - في الايدولوجيا وكان يرى خصوصية الايدولوجيا (الى جانب انها تعكس صفات سيكولوجيا الانسان الاجتماعي)

في ان فئة بشرية خاصة تتعاطى بها حسب بليخانوف « يشكل الاقتصاد الاساس في تطوير الايديولوجيات ، بمعنى ان المجتمع يجب ان يحقق درجة من الرفاه تمكن فئة من البشر تخصيص قواها للنشاط العلمي والنشاطات القريبة منه (٢١)

عند الاخذ بمفهوم بليخانوف حول بنية الوعي استغنى الباحثة عن اعتبار العلم جزءا من الايديولوجيا بيد انهم وجدوا انفسهم امام مصاعب كبيرة اذا كان الوعي الاجتماعي ينقسم الى سيكولوجيا وايديولوجيا فماذا يحدث للعلم ؟ يتجنب كاك اعطاء اجابة مباشرة على هذا السؤال فهو من جهة يعتبر العلم جزءا من الوعي الاجتماعي ، وهو من جهة اخرى لا يحدد مكانه داخل الوعي الاجتماعي لان العلم من منظور الشكل ، لا يتميز في شيء عن أية نظرية ايديولوجية - فلسفية أو سياسية أو قانونية الح (٢٢)

وعلى كل حال فان العلم يتلقى مجالا خاصا به لدى تقسيم الوعي الاجتماعي الى وعي نظري ووعي يومي يكتب كيله مثلا ان اكثر تسميات الوعي الاجتماعي اهمية على الصعيد النظري هو التقسيم الى ايديولوجيا والى معرفة لا تدخل في نطاقها (كنظريات العلوم الطبيعية) (٢٣) كيف نفرق بين الايديولوجيا والمعرفة من حيث مستواه النظري ؟ من الناحية المعرفية (على الصعيد المعرفي) لا يمكن تحديد أية فوارق بينهما ولقد اصاب كاك عندما كتب ان الايديولوجيا هي نظرية وكل نظرية حتى لو كانت خاطئة وبالاخص حين تكون صحيحة تظهر في شكل مفاهيم ومقولات ، وصيغ وقوانين ، وبراهين منطقية الح محددة بين العلم والنظرية لا يوجد اي فسارق (٣٨)

الشيء الرئيسي ليس بالطبع ايجاد فروق بين مجالات الوعي وتحديد مكانها بالتالي في بنية الوعي المهم هو ان مثل هذه المعرفة تساعد لدى دراسة التكوينات الفكرية نفسها عندما تكون السيكلوجيا الاجتماعية ، كما يقول السوسولوجيون انعكاسا سطحيا للواقع ، فان بوسع الباحثين ان يشكوا في ما اذا كان من المفيد حقا الانصراف للدراسة مثل هذه الظاهرة لهذا السبب يجب على المرء ان ينصرف الى الانشغال بمنهجية بحث بنية الوعي الاجتماعي ، من اجل ايجاد مكان السيكلوجية الاجتماعية والايديولوجيا والعلم فيها

بعد انتشاره في المجتمع ، ينقسم الوعي الاجتماعي الى وعي متخصص ووعي جماهيري ويمكن للمرء ان يعتبر هذا التقسيم تصنيفا جوهريا للوعي الاجتماعي ، اذ ان حملته هم الجماعات البشرية ويمكن استنتاج الوعي قبل كل شيء من انتشار ومحتوى التصورات والآراء التي تؤمن بها الجماهير الكبيرة ، ومن المشاعر التي تملكها ، والعادات والتقاليد السائدة لديها... الخ والوعي الاجتماعي يمثل ، كوعي جماهيري ، تلك القوة الواقعية التي تمارس نفوذها على العملية التاريخية ، بأن تدفع البشر الى الفعالية وهي تشكل مجالا كاملا في حياتهم الفكرية ، وتعتبر موضوع بحث قائم بذاته للعلوم الاجتماعية قال **انجلز**

« عند دراسة القوى الدافعة للتاريخ ، فان ما يهمنا ليس هو الاسباب المحركة للأفراد ، مهما كان شأنهم عظيما ، بل تلك الاسباب التي تحرك جماهيرا كبيرة ، شعوبا كاملة ، وتحرك في كل شعب طبقات كاملة ، دون أن يكون الفعل الذي يترتب عليها ظرفية ، بل فعلا دائما يستهدف أحداث تغييرات تاريخية عظيمة » (٢٤)

وبكلمات أخرى يجب علينا أن ندرس الوعي الجماهيري

ترك كلاسيكيو الماركسية - اللينينية نماذج ممتازة لتحليل الوعي الجماهيري في العصور التاريخية الثورية وتضمن تصريحات واقوال لينين ، في سلسلة من المؤلفات الجديدة ، حول مسائل الوعي الجماهيري والسيكولوجيا الاجتماعية وقد صاغ بورشنيف النتائج التي تم التوصل اليها على أساس هذه التصريحات ، ويكمن أهمها في ان انصراف لينين الى ظواهر وعمليات السيكولوجيا الاجتماعية هو أمر يرتبط الى أعلى درجة بهدف معين فالدراسة بحد ذاتها ليست هامة بالنسبة له الا كمؤشر على وضع القوى الثورية وكشرط حياتي للدفاع عن قضية الثورة وتطويرها (٢٥) وفي مكان آخر يكتب بورشنيف

« عندما ندرس ملاحظات لينين حول السيكولوجية الاجتماعية بمجموعها ، فانا نشاهد ان جميع هذه التاملات تخضع في النهاية لمهمة واحدة ، الا وهي تقييم ظروف النشاط الثوري للحزب بصورة صحيحة ، ومعرفة الازمية النفسية - الاجتماعية التي تستهدفها شعارات الحزب ، وبالتالي دراسة فعاليتها دراسة صحيحة » (٢٥)

وفي الواقع ، فقد وجه لينين الانتباه الى الوعي كقوة واقعية في نشاط البشر وقد كتب ذات مرة

« اذا لم تكن الجماهير مهمة ، وواعية ، وناشطة ، وفعالة ، ومصممة ، ومستقلة ، فانه لا يمكن ، لا في هذا المجال ولا في سواء ، صنع اي شيء على الاطلاق » (٢٦) .

يقول لينين :

« ان احسن الطالع لا تعبر سوى عن وعي وارادة ومعاناة وخيال عشرات الالف الناس . ولكن الثورة تحقق في لحظة نهوضا خاصا وحشدا خاصا لسانر المواهب البشرية عبر وعي وارادة ومعاناة وخيال ملايين البشر الذين يدفعهم الصراع الطبقي العنيف الى الامام » (٢٧)

وقد خص لينين وعي العمال والفلاحين ، والتحولات التي تحدث فيه ، باهتمام كبير

نريد فيما يلي الاشارة الى مبادئ هامين اهلهمما الباحثون الذين حللوا تراث لينين في مجال السيكولوجيا الاجتماعية

اولا : ان لينين لم يستخدم مصطلح سيكولوجيا لوصف الجانب العاطفي من الوعي فحسب ، كما يعتقد عادة ، بل استخدمه ايضا لوصف الوعي الجماهيري الذي يحتوي الى جانب المزاج والمشاعر الاجتماعية على آراء البشر حيال مسائل متنوعة . ان الوعي الجماهيري هو جملة التكوينات الفكرية التي تشترك بها طبقات وفئات اجتماعية كاملة لمجتمع ما واستخدام لينين المتكرر لتعابير مثل مزاج الجماهير و المشاعر الاجتماعية « ليس سببا للزعم بأنه قصر السيكولوجية الاجتماعية على الجانب العاطفي من الوعي ان الامزجة والمشاعر الاجتماعية هي اكثر اشكال ظاهرة الوعي الجماهيري انتشارا ، ومن هنا حتمية استخدام مثل هذه التعابير

وراء الظواهر الخارجية للوعي الجماهيري يختفي دوما جوهره وقد رأى لينين هذا الجوهر في اهلية الجماهير للوعي ، في موقفها المدرك بعمق والمحسوس بواقعية حيال حل المهمات التي يقف المجتمع أمامها وقد قال في تقييم النشاط الثوري للحزب وفي تكوين الوعي الثوري لدى الجماهير الشعبية

« لقد وصلنا الى نقطة هامة من نورتنا ، فقد حركنا جماهير البروليتاريا ، واوصلنا جماهير الفلاحين الفقراء الى حيث يعمون بوعي جمهوريتنا » (٢٨)

عندما يتأمل المرء الوعي الجماهيري من حيث محتواه ، وليس فقط من حيث شكله الظاهري ، فانه سيكتشف استحالة اعتباره جزءا من

المستوى الأدنى (العاطفي) لانعكاس الواقع ، ففيه ترتبط عضوية تكوينات نفسية أصيلة وتصورات وآراء ايديولوجية ولم يقرب لينين بالصدفة مفاهيم السيكلوجيا و الايديولوجيا من بعضها عندما تحدث عن الوعي الجماهيري هكذا تحدث في عام ١٩١٧ ولدى وصفه للموقف السلبي للعمال والفلاحين من الحرب الامبريالية هذه الايديولوجيا ، هذا النمط من التفكير ، هو متاصل الى درجة غير عادية لدى سائر العمال والفلاحين تقريبا، بغض النظر عن مدى وضوحه « (٢٩)

ليس من الممكن مماثلة الوعي الجماهيري مع الوعي اليومي ، كما لا يمكن مماثلة الوعي النظري مع الايديولوجيا والفوارق بين الوعي الجماهيري والايديولوجيا ليست بالدرجة الاولى في صعيد الانعكاس بقدر ما هي في تحديد الوعي الجماهيري بصورة مباشرة لعمل وسلوك كتل جماهيرية كبيرة اي في ظهوره « كدافع واع في حين يجب على الايديولوجيا ، قبل ان تمارس هذه الوظيفة ، ان تنتشر جماهيريا باديء ذي بدء ، وان تغدو هي نفسها محتوى الوعي الجماهيري من الطبيعي انه يمكن النظر الى الوعي الجماهيري والايديولوجيا من منظور عمق عكسها للواقع ، عندئذ يمكن ان نميز فيهما صعيدي الوعي اليومي والنظري هكذا تحول الجماهير الكادحة المؤمنة بأفكار الماركسية - اللينينية في الثورة الاشتراكية ، هذه الافكار الى محتوى لوعيا ومع ذلك فانها تبقى ، برغم اندماجها في الوعي الجماهيري وبحسب منشئها ، نتاج للنشاط النظري ويدخل الايديولوجيون من جانبهم ، عندما يدرسون الوعي الذاتي لطبقة ما ، الاحكام المسبقة لطبقتهم فيه ، اي انهم يضيفون اليه محتويات يمكن اعتبارها من الوعي اليومي ينتج عن ذلك انه لا يجوز مماثلة الوعي الجماهيري مع الوعي اليومي ان الوعي الجماهيري هو الوعي الراهن او الواقعي لفئات اجتماعية كبيرة اما مسألة العناصر السائدة فيه ، وما اذا كانت عناصر من الوعي اليومي ام من الوعي النظري ، فانها ترتبط بطبيعة المجتمع نفسه وبطبيعة العلاقات السائدة فيه ، وترتبط بمحتوى العمل الايديولوجي بين الجماهير الشعبية

ثانيا تسمح تصريحات لينين حول السيكلوجيا الاجتماعية بفهم خصوصية الوعي الجماهيري التي تمتاز بانها تنصب مباشرة على النشاط العملي . قال لينين « يمتاز عصر الثورة بان مزاج وهياج

وقناعة الجماهير يجب ان تظهر ، وهي تظهر فعلا ، في افعال » (٣٠)
وكتب حول نتائج عامين من الثورة الاشتراكية في روسيا « لقد اظهرت
الثورة نماذج لبطولات لا مثيل لها ، وحماسة ثورية ونكران ذات لم
يعرفهما العالم من قبل » (٣١) ويتحقق الوعي الجماهيري في النشاط
العملي للبشر

ان شرح الصفة النوعية للوعي الجماهيري من منظور توجهه العملي
تسمح بفهم السيكولوجيا الاجتماعية ، ومحتواها ، والوظائف التي
تحققها ، بصورة اعمق

قبل كل شيء لا يستنفذ الوعي الجماهيري نفسه في السيكولوجيا
الاجتماعية ، مع انه سيكولوجيا اجتماعية ايضا ان الوعي الجماهيري
هو وضع نوعي محدد تتخذه هذه او تلك من التكوينات الفكرية هذا
الوضع النوعي تكتسبه مثلا المعارف حول الظواهر الفيزيائية والكيميائية
والبيولوجية الخ للعالم ، حين تجد انتشارا كبيرا وتستخدم في
الحياة اليومية وبقدر ما يطبق العلم في الانتاج ويتغلغل في طريقة حياة
الناس وفي حياتهم اليومية نفسها ، فان بعض اصعدته المحددة تكتسب
طبيعة وعي جماهيري ومع ذلك فقد حدث تاريخيا ان اخذت السيكولوجيا
الاجتماعية في البدء طابع وعي جماهيري هذه الصفة النوعية لا تزال
حتى اليوم لصيقة بها قبل كل شيء واذا كنا لهذا السبب نركز اهتمامنا
على السيكولوجيا الاجتماعية فانما نفعل ذلك من اجل ابراز صفاتها
الخاصة وحسب ، دون ان نمثلها مع الوعي الجماهيري

تمثل السيكولوجيا الاجتماعية نتاجا للظروف الحياتية للمجتمع

قال ماركس

« فوق الاشكال المختلفة للملكية ، وفوق شروط الوجود الاجتماعي
تنتصب بنية فورية كاملة من المشاعر والاهام وطرز التفكير والتطلعات
الحياتية المختلفة . ان الطبقة بأسرها تخلق وتصوغ هذه المشاعر
والاهام وطرز التفكير والتطلعات الحياتية من اساسها المادي
والعلاقات الاجتماعية المطابقة له » (٣٢)

هذه الاطروحة لماركس تستأثر بالاهتمام لسببين الاول انها تكشف
المحتوى المتنوع للسيكولوجيا الاجتماعية الذي لا يضم فقط المشاعر
بل كذلك الافكار والنظرات الى العالم ثانيا يبرز هنا دور الطبقة كخالق
للسيكولوجيا الاجتماعية .

تخلق الطبقة وعيها الخاص ، ولكن شروط خلق الوعي ليست متماثلة في المجتمع الطبقي بالنسبة لسائر الطبقات اذ لا تملك سائر الطبقات الوسائل الضرورية لانتاج وعي مطابق لمصالحها وتريد الطبقات السائدة ، التي تملك وسائل هائلة للانتاج الفكري ، وتتصرف بأجهزة خاصة للتأثير الايديولوجي ، ان تفرض وعيها على المجتمع بأسره . ومن غير الصحيح ان اكثر الصفات الخاصة أهمية للسيكولوجيا الاجتماعية تكمن في انها تمثل انعكاسا مباشرا للواقع ، مفترقة بذلك عن الايديولوجيا انها ، على كل حال ، تعكس الوسط الاجتماعي أيضا بصورة مباشرة ولكنها لا تعكسه بصورة مباشرة وحسب ، فمع تطور وسائل الاتصال الجماهيري في المجتمع تشكل السيكولوجيا الاجتماعية بصورة رئيسية نتيجة لتغلغل نظرات الايديولوجيا في وعي الجماهير العريضة ان السيكولوجيا الاجتماعية كوعي جماهيري هي نتاج تأثير النظام الاجتماعي في التدريس والتربية والتعليم ، اي نتاج كل نظام التأثير الفكري على الجماهير

ومحتوى السيكولوجيا الاجتماعية مترابط يميزون فيه ثلاث فئات من الظواهر السيكولوجية الاجتماعية البنية النفسية لفئة اجتماعية معينة ، الظواهر العاطفية والنفسية الاجتماعية للفئة المنخرطة مباشرة في التأثير المتبادل والبنية النفسية هي الطبيعة الاجتماعية (لطبقة أو لامة الخ) التي تمثل جملة الصفات النفسية الدائمة التي تميز فئات اجتماعية معينة عن سواها ، وتشكل صفات مثل الصلابة ، والشجاعة ، والثبات على الهدف الخ عناصر للبنية النفسية ، يضاف اليها تكوينات فكرية مثل العادات والتقاليد والاتجاهات الدوقية الثابتة

وتعتبر التقاليد الاجتماعية أكثر التكوينات السيكولوجية انتشارا وهي تمثل نوع رد فعل البشر على متطلبات المجتمع (الطبقة والامة) ونوع الموقف حيال معايير السلوك الاجتماعي عندما يبدأ الناس ، الذين يشكلون فئة اجتماعية ويجدون انفسهم يعيشون في ظروف متماثلة ، بالقيام بردود افعال من طراز متشابه حيال المتطلبات الاجتماعية ، فذلك يعني ان ثمة عادة قد نشأت في سلوكهم ويؤدي ترسخ التقاليد الاجتماعية المتكونة الى تشكل تكوينات اجتماعية نفسية خاصة مثل الاعراف وفي المجتمع الاول للانسان نظمت الروابط بين البشر عبر هذه الاعراف بصورة رئيسية وتجلت هذه قبل كل شيء في تلك المعايير السلوكية التي حددت سلوك العضو الفرد حيال فخذة وعشيرته ، وحيال

الافخاذ والعشائر القريبة وكان الحفاظ على الاعراف مهمة مشتركة للعشيرة بأسرها

مع تطور المجتمع برزت الضوابط الاجتماعية (الاخلاقية والقانونية) في تنظيم الروابط بين البشر ، وتراجعت الاعراف ، مع ان دورها لا زال هاما حتى في المجتمعات الراهنة ويكمن اهمية الاعراف والتقاليد الاجتماعية ، في انها تثبت التجارب المتراكمة خلال تنظيم العلاقات البشرية ، وتسمح بنقلها الى الاجيال اللاحقة

الى جانب الاعراف تعتبر التقاليد تكوينات نفسية - اجتماعية ايضا. وهي تبدو في السيكولوجيا الاجتماعية كمعايير وضوابط لسلوك البشر الاجتماعي ، ترتبط مع عناصر ثابتة للحياة الفكرية للمجتمع

يريد الباحثون تفسير الصفة النوعية للتقاليد والعادات عن طريق اعتبارها جزءا من مجال السيكولوجية الاجتماعية يكتب سارسينبايف :

« نحن على ثقة من انه يجب اعتبار العادات والتقاليد كمقولات للسيكولوجية الاجتماعية فهي تعكس أولا معايير ومبادئ السلوك الاجتماعي ليس للأفراد ، بل للمجموعات البشرية ، وتكون سماتها وصفاتها وعلامتها الفكرية وثانيا لان التقاليد والعادات تخلق من قبل الجماعات ، بعكس الايديولوجيات التي يضعها الايديولوجيون وينقلونها الى وعي الجماهير وثالثا لا ترتبط التقاليد والعادات فقط بمجال الافكار لدى البشر ، بل ايضا مع مجالات مختلفة للممارسة البشرية وجلوهرها تقوم فسي السيكولوجيا الاجتماعية باكثر مما هي فسي الايديولوجيا » (٣٣) .

يرى سارسينبايف الصفة النوعية للتقاليد والعادات في كونها اذن ظواهر سيكولوجية اجتماعية فقط ومن الصعب ان يوافق المرء على زعم لا تحفظ فيه كهذا ان المؤلف يعتبر التقاليد والعادات ظواهر سيكولوجية اجتماعية ، لانها على حد زعمه ، تعكس المعايير والمبادئ للسلوك الاجتماعي للجماعات والمجموعات البشرية غير ان التقاليد والعادات لا توحد في الواقع الى جانب المعايير والمبادئ ، وكأنعكاس لها في الوعي انها هي نفسها معايير واقعية بل انها معايير ادعاؤها اكثر رسوخا ودعمها اكثر ثباتا والخروج عليها بالتالي اقل حدوثا من سواها من المعايير ويؤكد ماركس واذا ما استمرت هذه (شكل الترسخ الاجتماعي لعلاقات الانتاج المعطاة في الايديولوجيا) لفترة من الوقت ، فانها تترسخ نفسها في صورة عرف وتقليد ... (٣٤) .

ويمكن لطبيعة الاعراف والتقاليد أن تكتسب شكل روابط (مادية وفكرية) وأعمال بشرية بالغة التنوع ولا يجوز النظر اليهما في ترابطهما فقط مع الروابط الخلقية والمبادئ الاخلاقية والمعايير السلوكية. فالتقاليد توجد في الانتاج المادي، والحياة السياسية والخلق الفني، والعلم... الخ. وهي مرتبطة دوماً وبحسب جوهرها بالمجال الذي تظهر فيه ، وبطبيعة العلاقات التي تتوطد اشكال ظهورها في المجتمع ومن الجلي ان التقاليد والعادات لا تقدر أن تكون فقط ذات طبيعة فكرية وحين يأخذ المرء مجال الحياة الفكرية فقط فان التقاليد والعادات لا يمكن هنا أيضاً أن تقصر على مجال السيكولوجيا الاجتماعية أما المقارنة السابقة للاعراف والتقاليد مع الايدولوجيا ، فانها مغلوطة ، لان هذه المقولات ليست مفاهيم أحادية الجانب ففي الايدولوجيا نفسها توجد أيضاً تقاليد هذا لا يعني طبعاً انه لا يمكن مقارنة الاعراف والتقاليد مع المعايير الاجتماعية والراي الاجتماعي

وبخصوص مسألة نشوء الاعراف والعادات فقد ركز ساسينبايف على تمرکز هذه العملية حول هدف محدد

« كانت الاعراف والعادات تملك خلال تكونها التاريخي ، وفي كل الحالات تقريبا ، بداية واعية ، وان كان انتشارها واستخدامها وترسخها قد حمل طابعاً عفويًا على الاغلب أما التقاليد الثورية فلا تنتشر بصورة عفوية ، بل واعية » (٣٥)

من الصعب على المرء أن يوافق على هذه الآراء أيضاً فلدى خلق التقاليد تغلب في رأينا البداية العفوية وليس الواعية ومن غير الممكن أن تكون الامور على غير هذا النحو لان هذه الاشكال أو تلك من الروابط وأنماط النشاط هي التي تتخذ طابعاً تقليدياً ان صنع التقاليد والاعراف هو في جوهره عملية تاريخية طبيعية بالطبع يستطيع البشر أن يطمحوا نحو ترسيخ شكل معين من العلاقات ، والحفاظ على هذه أو تلك من معايير الحياة الاجتماعية ، بيد أنهم لا يضعون لانفسهم ، اثناء ذلك ، هدف خلق تقاليد ، مع العلم بأن نتيجة مثل هذه الجهود قد تكون ، حقاً ، خلق تقاليد جديدة بهذا المعنى المحدد والمحدود ، يستطيع المرء أن يتحدث عن بدايات واعية لخلق وتطوير الاعراف والتقاليد

ويمكن الحديث بنفس القدر عن هذه البدايات حين يدور النضال ضد تقاليد وأعراف قديمة تحولت الى عائق في وجه تطور الحياة

الاجتماعية وعلى المرء ان لا ينظر الى التقاليد والاعراف بمعزل عن الظروف التي هي شكل لها . ولذا فان هدف النضال لا يجب ان يكون تحاوز التقاليد والاعراف القديمة فحسب بل الظروف ذات الطابع التقليدي مع العلم بان تجاوز العلاقات القديمة هو في نفس الوقت قضاء على ما نطابقها من تقاليد واعراف . وحين نربي جيلا جديدا على تقاليد معينة فان ذلك يدعم اعادة انتاج العلاقات التي تشكل التقاليد شكلا لها

ثمة سمة مشتركة للتقاليد والاعراف والعادات الاجتماعية وغيرها من العناصر التي تتكون منها البنية النفسية لمجموعة اجتماعية ما الا وهي استمراريته . وهذه تميزها عن فئة أخرى من العناصر الاجتماعية – النفسية التي تكون الجانب الشعوري للبيكولوجيا – الاجتماعية

وتكمن الصفة الخاصة لهذه الفئة الاخيرة في مرونتها وسرعة تبدلها . وفي قصر حياة الاحاسيس والامزجة الاجتماعية التي تصنعها ومع ذلك فهي تملك من الثبات ما يكفي لاعتبارها تكوينات نفسية – اجتماعية من طراز خاص . وكما يمكن ان يتغير الوضع العياني الذي يولد هذه الامزجة والاحاسيس او تلك فان ظروف الحياة المستمرة نسبيا والتكوين النفسي لفئة اجتماعية ما يدعمان امزجة واحاسيس معينة

وتكون الظواهر النفسية – الاجتماعية الناشئة في مجموعات بشرية تتبادل التأثير المباشر مع بعضها جانبا خاصا من محتوى البيكولوجية الاجتماعية . وتعتبر الموضة والشائعات وحالات الذعر جزءا من هذا المحتوى ، ويتحدد نشوؤها بخصائص التعامل بين البشر انفسهم ، وعبر التقليد والتأثير والعدوى النفسية الخ

وتعتبر الفئات الثلاث المذكورة من الظواهر الفكرية من محتوى البيكولوجيا الاجتماعية فهل هي تستنفذه؟! انها في رايانا ، لا تفعل ذلك ليس فمط لان علائم البنية البيكولوجية للفئات الاجتماعية او الجانب الشعوري للوعي لم يكشف بعد بصورة كاملة ، بل لانه يتم هنا تجاهل جوهر الوعي الاجتماعي الافكار والنظرات والتصورات البشرية . وكما اتضح من شرحنا الموجز للظواهر النفسية – الاجتماعية فان التكوينات المتأصلة في اعراف وتقاليد من جهة ، والمرنة من جهة ثانية والتي تأخذ شكل امزجة واحاسيس وموضات متغيرة ، تعتبر من

مكونات السيكولوجيا الاجتماعية فما هي بنية المحتوى الذي يبرز مع
الاحاسيس والامزجة ليترسخ فيما بعد فسي الاعراف والتقاليد ؟ لدى
عرض موضوع علم النفس الاجتماعي كعلم يدرس السيكولوجيا الاجتماعية
كظاهرة من ظواهر الحياة الفكرية للمجتمع فانه يتم تجاهل هذا المحتوى.
ولا توجد حتى الآن وجهة نظر موحدة حول موضوع علم النفس الاجتماعي
كعلم فهناك من يعتقد ان سيكولوجية الافراد هي هذا الموضوع ويرى
غيرهم موضوع علم النفس الاجتماعي في الخواص النفسية للطبقات
والفئات الاجتماعية المختلفة وهناك من يرى ان هذين الموضوعين
مجتمعين هما موضوع علم النفس الاجتماعي. ويقصر ممثلو سائر وجهات
النظر السابقة محتوى السيكولوجيا الاجتماعية على الطبيعة الاجتماعية
والاعراف والتقاليد والجانب الشعوري للوعي والخواص السيكولوجية
لسلوك البشر ومع ان هناك وجهات نظر مختلفة حول موضوع علم النفس
الاجتماعي فانها تتبنى ، من حيث المحتوى نفس المفهوم حول
السيكولوجيا الاجتماعية

في رأينا ان السيكولوجيا الاجتماعية تشمل ايضا على افكار
وتصورات سياسية وقانونية وأخلاقية الخ وان كانت لا تكون
نظريات ومنظومات فكرية بعد كما هو الوضع في الايديولوجيا بل توجد
على شكل قناعات واتجاهات اعتقادية ومنطلقات اجتماعية اننا نميز في
الايديولوجيا الافكار والآراء وفق محتواها أما في السيكولوجيا
الاجتماعية فان الامر الرئيسي هو قناعات البشر (طبقات وفئات كاملة)
او المدى الذي بلغته هذه الافكار والآراء في امتلاك وعي الجماهير ودرجة
تحولها الفعلي الى مقاييس لسلوكها ان محتوى الافكار والآراء هو أمر
رئيسي بالطبع ولكن الشيء الاكثر أهمية هو امتلاكه جماهيريا مسألة
ما اذا كان قد غدا قناعة راسخة أم لا ، وكيف يظهر ويعاش في السلوك
ويرسخ نفسه في العادات والتقاليد الخ ان المحتوى الرئيسي
للسيكولوجيا الاجتماعية تشكله قناعات الفئات والطبقات الاجتماعية
وسواها من الجماعات البشرية

عندما نراعي لدى دراسة محتوى السيكولوجيا الاجتماعية
قناعات البشر ودرجة وعيهم ايضا فان علم النفس الاجتماعي ، كعلم ،
يكتسب عندئذ صفته النوعية الخاصة التي تسمح بفصله عن علم النفس
الاجتماعي التقليدي الذي وضعه خلال عشرات السنين علماء نفس

واجتماع برجوازيون في الوقت الحاضر يكاد يستعصي على الباحث اثبات مثل هذا الفارق من موضوع البحث نفسه

ان موضوع السيكولوجيا الاجتماعية كعلم يمكن ان يكون ، الى جانب الخواص السيكولوجية وخواص سلوك الافراد داخل الفئة الاجتماعية قوانين انتشار الافكار والآراء بين الجماهير وقانونية تشكل وتغير وتطور قناعاتها وعندئذ يصبح الكشف عن وظائف الظواهر النفسية والاجتماعية والاسس العلمية لتربية الجماهير اكثر مهمات علم النفس الاجتماعي اهمية

وبما ان مسألة موضوع ومهمات علم النفس الاجتماعي تتجاوز اطار هذا البحث فاننا سنعود الى دراسة السيكولوجيا الاجتماعية كمجال للوعي

من الممكن تقديم وصف كامل الى حد ما للسيكولوجيا الاجتماعية كمجال للوعي ، وكشف ارتباطها مع الايديولوجيا والعلم فقط عندما يحدد علم النفس الاجتماعي ونظرية الصحافة ، والاخلاق وعلم الجمال ، والتربية ، وسواها من العلوم الاجتماعية المرتبطة مع الوعي الاجتماعي ، مهماتها تحديدا دقيقا لدى دراستها للظواهر النفسية الاجتماعية. وحتى الفلسفة لا تستطيع ان تتخذ موقفا غير مكثرث من الطريقة التي يفهم بها موضوع علم ما ، مع ان هذا الموضوع يتحدد من قبل العلم نفسه

لم تدرس بعد وظائف السيكولوجيا الاجتماعية دراسة منهجية كافية تسمح بالكشف عن خصوصيتها هذا امر يمكن ايضا حله الى درجة ما من الموقف الذي كان سائدا حتى قبل فترة قصيرة حيال السيكولوجيا الاجتماعية ومن المفاهيم التي تكونت على اساسه وحين نرى السمة المميزة للسيكولوجيا الاجتماعية في غريزية ولاوعي امزجة وافعال البشر ، فان مثل هذا الكيان لن يكون قادرا على تحقيق اية وظائف ايجابية ولكن مثل هذه الوظائف موجودة فما هي ؟

اكدنا عند تحديد مقياس التمييز بين مجالات الوعي الاجتماعي ان هذه تتميز عن بعضها ايضا بالوظائف التي تحققها هذا يصح ايضا بالنسبة للسيكولوجيا الاجتماعية ومع ذلك فان خصوصية هذا المجال لا تكمن في انه يحقق وظيفة خاصة دون غيره من مجالات الوعي ، بل هي تكمن في انه يحقق وظيفة خاصة بالوعي

تظهر وظائف السيكولوجيا الاجتماعية لدى حل المهمات العملية للحياة اليومية ويمكن القول ان السيكولوجيا الاجتماعية متداخلة في النشاط العملي للبشر وفي هذا تتميز عن الايديولوجيا والعلم بصفتها نتاجا للنتاج الفكري الذي يتوضح في نظرية او معرفة وتستهدف وظائف السيكولوجيا الاجتماعية المتداخلة في نسيج النشاط العملي للبشر تحقيق القناعات والمواقف وسواها من التكوينات النفسية الاجتماعية في الروابط الواقعية وفي سلوك البشر هذا ينطبق على وظيفة التأقلم والاتصال وضبط الروابط وسواها من الوظائف التي تخص الوعي الاجتماعي بمجموعه هكذا تحقق السيكولوجيا الاجتماعية تأقلم البشر مع العلاقات الاجتماعية القائمة وتنظم عبر تكويناتها وخاصة العادات والتقاليد الروابط بين البشر وفي معايير السلوك الاجتماعي تتموضع التجربة الحياتية للبشر وتنقل الى الاجيال اللاحقة

ان اكثر وظائف السيكولوجيا الاجتماعية تميزا هي وظيفتها الشعورية الارادية التي تدفع البشر الى الفعالية قال **انجلز** : لدى الانسان الفرد يجب بالضرورة أن تتحول سائر الدوافع الى دوافع ارادية ليدفع للقيام بعمل ما ويمكن قول نفس الشيء عن اية مجموعة من البشر ان القوى الدافعة التي تحدث أعمالا لدى جماعة ما من البشر تعبر عن نفسها في اوضاع شعورية - ارادية للوعي الجماهيري وتبرز الوظيفة الشعورية - الارادية خصوصية السيكولوجيا الاجتماعية بوضوح كمجال خاص للوعي

تسمح لنا العناصر المذكورة بفرز السيكولوجيا الاجتماعية عن المجالات الاخرى للوعي الاجتماعي والنظر اليها كتجل للوعي الجماهيري. بالطبع لا يستنفذ الوعي الجماهيري السيكولوجيا الاجتماعية بأي حال ولكن النظر اليها كوعي جماهيري هو امر جوهري فقط على طريق تفسير التوجه العملي المباشر والانتشار الذي تحظى به الافكار والآراء بين الجماهير الشعبية ، يمكن الكشف عن خواص السيكولوجيا الاجتماعية وعلى هذا الطريق سنجد انها تتميز عن المنتجات الايديولوجية للنتاج الفكري ، التي لا يمكن ان تملكها الجماهير العريضة دفعة واحدة. هذا الفارق يبقى قائما حتى عندما تكون منتجات الانتاج الفكري في مرحلة انتشارها ومن المعروف ان الافكار والآراء التي تكون قيد الانتشار تملكها الجماهير بحسب تجربتها ، وبحسب القناعات ، والاتجاهات

لاعتقادية والتقاليد وسواها من التكوينات النفسية الاجتماعية المتكونة لديها وتختفي الفوارق عندما ترتبط منتجات الانتاج الفكري مع مجموع البنية الشعورية والفكرية القائمة ومع عادات وتقاليد الجماهير ، وتصير عناصر للسيكولوجيا الاجتماعية وبما ان الانتاج الفكري هو عملية دائمة ، فان الفوارق بين السيكولوجيا الاجتماعية وسواها من مجالات الوعي الاجتماعي تبقى مستمرة

٣ - الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع

ففي الايديولوجيا كما في السيكولوجيا الاجتماعية تشترك مجموعات وطبقات اجتماعية كاملة بهذا المعنى لا توجد فروق بينهما ولا تبرز الفروق بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية الا حين نصل الى الوعي المتخصص والوعي الجماهيري ونبحث في طبيعة الحامل الشخصي لهذه التكوينات الفكرية فالسيكولوجيا الاجتماعية تعبر عنها جماهير عريضة من البشر وهي القوة الدافعة لشعوب بأسرها وفي كل شعب لطبقات بكاملها في حين يعبر القسم الناشط من طبقة اي الطليعة عن الايديولوجيا هذه السمة لا تمس بعد محتوى هذا المجال من الوعي ، ولكنها تسمح لنا بأن نفرق حسب الملامح الخارجية الايديولوجيا عن الوعي الجماهيري من حيث ان الاولى هي وعي متخصص. وهناك سمات أخرى ، سندرسها فيما بعد تسمح بتمييز الايديولوجيا بحسب محتواها ، وبتحديد مكانها في الوعي الاجتماعي

هذا الامر الاخير مرتبط بمصاعب كبيرة كما هو الحال في السيكولوجيا الاجتماعية ، وان كانت مصاعبه من نوع آخر فبينما استثنى المرء علم النفس من الوعي الاجتماعي فهدمت الايديولوجيا على الاغلب كشيء مساو له واذا كانت في حالات ما لم تتساو بالوعي الاجتماعي فان مفهوم الايديولوجيا قد استخدم لوصف هذا الجانب او ذاك من جوانبه ، والصق به معنى واسع وضيق وأضيق فصعب هذا التمييز فهم ذلك المجال من الوعي الاجتماعي الذي يمكن لنا ان نسميه الايديولوجيا

لا نريد مناقشة وجهات النظر التي تعتبر ان ثمة تماثلا بين الايديولوجيا والوعي الاجتماعي او التي تبرز الايديولوجيا الى جانب الوعي الاجتماعي ، كظاهرة للحياة الفكرية للمجتمع - مع انها منتشرة تماما في الادبيات التي تعالج مسألة الايديولوجيا والوعي - في الوقت الراهن ثمة مفهوم وطلد نفسه علميا ، وهو يقوم على عدم اعتبار الايديولوجيا

والوعي الاجتماعي تكوينان متعارضان وعلى عدم اعتبارهما الشيء نفسه أيضا بل يعتبر الايديولوجيا أحد العناصر الداخلة في الوعي الاجتماعي

« الايديولوجيا هي ذلك القسم من الوعي الاجتماعي المرتبط مباشرة بحل المهمات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع ، لذا فهو يعكس العلاقات الاجتماعية بهدف تغييرها أو ترسيخها » (٣٦) .

كيف تتحدد الايديولوجيا كجزء أو كعنصر من عناصر الوعي الاجتماعي ؟ هذه عملية فكرية تتميز بالتمركز على هدف معين ، وتظهر نتاجاته في شكل نظريات

« السمة الأكثر تميزا للايديولوجيا هي ... التعميم الذي يدفع بحدودها حتى تبلغ مرتبة المبادئ الأساسية والشاملة ، التي تشكل منطلقا لسواها » (٣٧) .

وتمثل الايديولوجيا متميزة في ذلك عن السيكلوجيا الاجتماعية ، نظاما للأفكار والآراء وتعتبر جزءا من الصعيد النظري لانعكاس الواقع

ان تعريف الايديولوجيا كتكوين فكري يعكس الواقع في شكل نظريات وتعاليم مختلفة لا يقدم الكثير لفهم خصوصية الايديولوجيا لذا يستكمل تعيين الايديولوجيا على الصعيد المعرفي بتعيينها على الصعيد السوسيولوجي ويفهم عدد من العلماء الايديولوجيا بوصفها ذلك المجال من الوعي الاجتماعي الذي يتعين من خلال العلاقات الاقتصادية بوصفها أساسه المادي المباشر انه جزء من البنية الفوقية للقاعدة الاقتصادية ويخضع في تغيره وتطوره لقانونية الروابط المتبادلة بين القاعدة والبنية الفوقية مثل هذا التعريف يملك بالقياس إلى الدراسة المعرفية للايديولوجيا ميزة السماح بفهمها كمجال خاص من الوعي الاجتماعي ، وليس كأحد أصعده فقط

ويمثل التعريف المشهور للايديولوجيا كانعكاس للوجود الاجتماعي، من خلال موشور المصالح الاجتماعية نتيجة اتحاد خاص للتناول المعرفي والتكويني للظاهرة المدروسة هنا يتم الانطلاق عند تعريف الايديولوجيا من انها تنشأ على أرضية العلاقات الاقتصادية القائمة في المجتمع وفي المجتمع الطبقي تظهر العلاقات الاقتصادية في شكل مصالح لطبقات محددة،

فتبدو الايديولوجيا كانعكاس للواقع في مؤشر المصالح الطبقية ، كنظام من افكار وآراء طبقة محددة

يتوافق هذا المفهوم حول الايديولوجيا مع نظرية نشوئها في المجتمع الطبقي ان الايديولوجيا توضع على يد مفكرين وممثلين لطبقة ما يملكون امكانية الانصراف الى النشاط الفكري ويستطيعون التعبير عن المصالح الطبقية في شكل نظريات وتعاليم ومنظومات فكرية ويحلل هؤلاء الايديولوجيون نظريا وضع الحياة الاجتماعية ومكان طبقتهم فيها وهم يعون مصالح طبقتهم قبل ان تجد الطلقة نفسها الطرق العملية لتحقيق هذه المصالح

في التعاليم الايديولوجية تعبر المصالح الرئيسية والعامة للطبقات عن نفسها لذا تبرز التناقضات والمصادمات بين المصالح الطبقية في الصراع الايديولوجي ايضا ان الايديولوجيات التقدمية والحافظة والرجعية التي تصطدم ببعضها ففي مجرى الصراع تعكس في نفس الوقت المصالح المتباينة للفئات الاجتماعية

وتميز العناصر التي ذكرناها الايديولوجيا عن سواها من مجالات الوعي الاجتماعي بيد انها لا تكفي لوحدها فالايديولوجيا لا تنفرد داخل المجتمع الطبقي بحمل طبيعة طبقية ، بل تشاركها في ذلك ايضا السيكلوجيا الاجتماعية ويحتوي الوعي الطبقي على ايديولوجيا وعلم نفس ايضا ولا يمكن اعتبار تحدد الايديولوجيا بالعلاقات الاقتصادية بوصفها اساسها المادي المباشر سمة خاصة بها فهذه تنسحب ايضا على السيكلوجيا الاجتماعية التي تتحدد بدورها الى درجة معينة بصورة مباشرة من قبل العلاقات الاقتصادية وتملك الايديولوجيا صفاتها الخاصة كانعكاس للوجود الاجتماعي وكعصر للنسبة الفوقية للقاعدة الاقتصادية ومع ذلك فمن الصعب ايجاد الصفات الخاصة التي تميز الايديولوجيا عن سواها من مجالات الوعي حين يتابع المرء فقط الصفات الخاصة بمنشئها ، ويعكسها للواقع على المرء ان يستخدم هنا رجوها اخرى للتحليل السوسيولوجي ، مثل المنظورات البنيوية والوظيفية التي تسمح بتحليل محتوى الانواع الايديولوجية للوعي ودورها في حياة المجتمع في مؤلفه الايديولوجيا كشكل للنشاط الفكري للمجتمع » يحلل يادوف الايديولوجيا كظاهرة مركبة ، ويدرسها على الصعيدين

المعرفي والسوسيولوجي وهذا يمكنه من اعطاء سلسلة من تعيينات
الايدولوجيا يكتب يادوف

تمثل الايدولوجيا انعكاسا للوجود من موشور المصالح الطبقية ...
كل - كجملته الاشكال الايدولوجية - تعتبر الايدولوجيا منظومة من
الافكار وآراء طبقة أو فئة اجتماعية محددة ... وكشكل خاص للنشاط
الفكري ، تعتبر الايدولوجيا السلاح النظري للطبقات وفي ذلك تكمن
وظيفتها الاجتماعية الاساسية « (٢٨) » .

ان الدراسة المتمايزة التي تستهدف تفسير خصوصية الايدولوجيا،
تمكننا من فهم هذه أو تلك من صفاتها الخاصة ، وصياغتها في تعاريف
وفي الادبيات الحديثة يوجد عدد كبير من التعريفات للايدولوجيا وان
كانت الحاجة قد نشأت، في العلم لايضاح مفهوم الايدولوجيا بوضع
تعريف لها يشمل سائر التعاريف الموجودة هكذا كتب السوسيولوجي
البولوي جيرزي فيتار في كتابه هل انتهى عصر الايدولوجيا

« الايدولوجيا هي جملة الاراء المنهجية نسيبا ، التي يعتبر
ارتباطها الوظيفي مع مصالح وطموحات فئة اجتماعية سمتها المييزة ،
وتدخل فيها افكار نشأت وانتشرت على ارضية التجربة التاريخية
والشروط الحياتية للفئة المعنية ، من اجل وصف الواقع وتقييمه ، كما
تدخل فيها التوجيهات السلوكية المشتقة من هذه الافكار « (٢٢) » .

هذا التعريف كاف وتام وفي ذلك تكمن قوته وعلى كل حال فان
من الصعب جدا الوصول الى تعريف شامل يستنفذ الايدولوجيا حقا
فالتعريف يجب أن يعبر عن جوهر الظاهرة المدروسة ، لان هدفه هو
الوصول الى معرفة معمقة لها وفي موضوع كالذي نحن بصددده يمكن
ان يكون تحديد الايدولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع (لطبقة أو لفئة
اجتماعية تعريفا مقبولا ومعبرا وهذا التحديد نابع عن تحليل أصل
الايدولوجيا والصفة النوعية التي تميز طريقة عكسها للواقع، وعناصرها.
وتشجع دراسة دور الايدولوجيا في حياة المجتمع على مثل هذا التعريف.
وربما كان الجانب الوظيفي هو الذي يمكننا بالدرجة الاولى من فهم السمة
الجوهرية للايدولوجيا وتعيين مكانها بين سواها من مجالات الوعي
الاجتماعي

اما بخصوص الشخص الفرد فان مصطلح الوعي الذاتي لا زال
مستخدما . وهو يعني وعي الفرد لنفسه ويستخدم هذا المصطلح ايضا

بالنسبة لطبقة ما والمثال على ذلك جملة ماركس حول تحول الطبقة بذاتها « الى طبقة لذاتها وهو يسمح بشرح المحتوى الذي يمكن ان يأخذه تعبير الوعي الذاتي للمجتمع

مع صعود المجتمع البرجوازي تفق الطبقة العاملة موضوعيا في مواجهة البرجوازية ولكنها لا تعرف دفعة واحدة ، تعارض مصالحها مع مصالح البرجوازية ومكانها في المجتمع واهداف ومهمات نضالها الذي لا تزال تخوضه بصورة عفوية ان وعي البروليتاريا في مطالعه هو في محتواه تريديونيوي يمثل القناعة بضرورة الانضواء في اتحادات، وخوض النضال ضد اصحاب المصانع وانتزاع هذا أو ذاك من القوانين الضرورية للعمال من الحكومة الخ (٤٠) وكانت سياسة البروليتاريا ايضا تريديونية تعني طموح سائر العمال المشترك نحو وضع تتخذ الدولة فيه هذا الاجراء أو ذاك لمساعدتهم على التخلص من بعض المصاعب المرتبطة بوضعهم مع الابقاء على الوضع نفسه أي مع الحفاظ على خضوع العمل لرأس المال (٤٠) لقد كانت الطبقة العاملة ذات السياسة التريديونية والوعي التريديوني طبقة بذاتها وكان ينقصها معرفة مصالحها الطبقة الرئيسية ، ومعرفة اهداف ومهمات النضال التي تنبع من هذه المصالح وهي معرفة مكنت العمال ، فيما بعد ، من الانتقال من النضال العفوي الى النضال الواعي بعد ان كان ينقصها الوعي الذاتي الطبقي

نشأ الوعي الذاتي للطبقة العاملة كنتاج طبيعي وحتمي للتطور الايديولوجي للمثقفين الاشتراكيين الثوريين « (٤٠) اما حامل الوعي الذاتي فهو الطليعة ، أي حزب الطبقة العاملة الذي يعبر عن الوعي الذاتي للطبقة ويحمل الوعي الى الحركة العمالية فيعطيه بذلك طبيعة واعية وبفضل نشاط الحزب العمالي تتحول الطبقة العاملة من طبقة بذاتها الى طبقة لذاتها أي تعي مصالحها الرئيسية وأهدافها ومهمات نضالها وتطمح عن وعي لتحقيقها

والحديث عن الايديولوجيا كوعي ذاتي للطبقة تسمح به أيضا الوظائف التي تحققها وفي الادبيات السوسولوجية يتم التمييز بين وظائف للايديولوجيا تتجلى في توصيل التجربة الجماعية ترسيخ الروابط الجماعية وأخرى تخدم كأساس لتوحيد الافعال الفردية

والجماعية ، وتقدم لاعضاء الجماعة المعنية بواعث السلوك المطلوبة ، وتمثل اداة فعالة للتأثير على البشر ، بأن تصوغ وعيمهم بطريقة معينة

ان للايديولوجيا فعلا الوظائف المذكورة ، مع انها ليست مقتصرة على هذا المجال من الوعي ، اذ تحققها ايضا ، والى حد كبير ، المجالات الاخرى للوعي الاجتماعي فتوصيل التجربة الجماعية وايجاد بواعث للنشاط البشري هما ايضا وظائف للسيكولوجيا الاجتماعية وفي نفس الوقت تعطي الايديولوجيا طبقة اجتماعية (وليس لفئة اجتماعية اجمالا) الوعي والشعور بوحدة وترايط مصالح معينة وهي تعطيها القيم الفكرية التي ترسخ الطبقة وتخدمها كدعامة في الصراع الطبقي وتطرح الاهداف المشخصة لعمل الطبقة وتشير الى سبل تحقيقها بكلمات اخرى تعبر الايديولوجيا عن المصالح الطبقة وتدافع عنها وهي تخدم كدليل في الصراع هنا تكمن وظيفتها الخاصة التي تميزها عن سائر مجالات الوعي الاجتماعي الاخرى ، وتجعلها بحق الوعي الذاتي للمجتمع

لدى تحقيق وظيفتها الرئيسية تكشف الايديولوجيا جوهر العلاقات الاجتماعية المعطاة أو تقننه ، وهي اما أن تفصح أو تستر التناقضات الطبقة وفي المجتمع انراهن يبدو ذلك على خير وجه في الايديولوجيا البرجوازية والايديولوجيا الاشتراكية فبينما تطمح الايديولوجيا الاشتراكية الى فضح الجوهر الاستغلالي للرأسمالية ، تعمل الايديولوجيا البرجوازية على طمسه وتتناقض الايديولوجيتان ايضا في مسائل تناقضات المجتمع الرأسمالي وسواها من مسائل الحياة الاجتماعية وتعبر الايديولوجيا البرجوازية عن مصالح طبقة المستغلين السائدة وتهدف الى تخليد الرأسمالية ، في حين تعبر الايديولوجيا الاشتراكية عن المصالح الرئيسية للطقة العاملة والجماهير الكأدحة ، وتعلل ضرورة قلب العلاقات الاجتماعية الرأسمالية واستبدالها بعلاقات اشتراكية

من أجل أن تحقق الايديولوجيا الوظائف الخاصة بها فانها تحتاج الى الانضاج المستمر لهذه الفكرة أو تلك ، والى التطوير المستمر لهذه النظرية أو تلك ، على يد ايديولوجي الطبقة من هنا فان كل نمط ايديولوجي يملك محتوى بالغ التنوع وكما يكتب سادوف ، فان الايديولوجيا هي

« الانعكاس النهج والمعم نظريا للمصالح الطبقة ، والذي يتخذ شكل نظرات سياسية وقانونية واخلاقية وفنية ودينية وفلسفية » (١) .

يميز **فيتار** لدى دراسة محتوى الايديولوجيا اربعة اصناف من النظرات فهي الايديولوجيا تحتوي **اولا** فيما جوهرية يحدث على اساسها تقييم الظواهر الاجتماعية وهي تحتوي **ثانيا** على تصورات عامة حول العالم وقانونية تطوره وهناك **ثالثا** أسس تحدد شروط تحقق القيم المقبولة كشروط الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مثلا وتحتوي الايديولوجيا **رابعا** على توجيهات للعمل تعتبر برامج الاحزاب السياسية وسواها من الوثائق المماثلة جزءا منها (٤٢) لا تستنفذ الاصناف المذكورة بالطبع محتوى الايديولوجيا فهو متباين بحسب انماطها ولعله على كل حال من غير الصحيح اعتبار التوجيهات الخاصة بالسلوك جزءا من محتوى الايديولوجيا لانها اقرب الى مجال السياسة منها الى مجال الايديولوجيا ولا يغير من ذلك انها بحاجة دوما الى تبرير وتعليل ايديولوجي وفي نفس الوقت يسمح ابراز مقولة القيم الجوهرية داخل محتوى الايديولوجيا بوصفها الاساس الذي تقيم به الظواهر الاجتماعية على فهم ادق لخصوصية الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع.

تنهض الايديولوجيا على ارضية العلاقات الاقتصادية وتعتبر بنية فوقية للقاعدة الاقتصادية وتجد روابط البشر داخل عملية انتاج السلع المادية تعبيرها في منظومات افكار وآراء متنوعة يجعلنا احتكاكنا بها نعرف بداخلها على وعي المجتمع لذاته وترتبط طبيعة الوعي الذاتي للطبقات والفئات الاجتماعية ببنية العلاقات الاقتصادية المهيمنة داخل المجتمع

من المعلوم ان **ماركس** وانجلز قد وصفا **ايديولوجيا البرجوازية** « كوعي مزيف » . واكدوا في « الايديولوجيا الالمانية » ان دراسة مسائل الايديولوجيا ممكنة فقط بالارتباط مع تحليل التاريخ البشري ، « لان الايديولوجيا بكاملها تقريبا هي اما مفهوم مغلوط لهذا التاريخ او تجريد كامل عنه . ان الايديولوجيا نفسها ليست سوى احد جوانب هذا التاريخ » (٤٣) .

ان مدا الماركسية حول امكانية دراسة مسائل الايديولوجيا فقط بالارتباط مع تحليل التاريخ البشري لان الايديولوجيا نفسها ليست سوى احد جوانبه لا يجد الاهتمام الكافي ، ولا يستخدم في النضال ضد السوسيولوجيا البرجوازية التي تحاول تشويه مفاهيم ماركس وانجلز حول الايديولوجيا . ويتحدث كلاسيكيو الماركسية عن ان الافكار التي

كانت تسيطر على ألمانيا في أربعينات القرن الماضي كانت أفكار البشر حول أنفسهم وعلاقاتهم ، حول وعيهم لأنفسهم وللشخص ، فهي لم تكن وعي الشخص المفرد فقط بل كانت وعي الشخص المفرد في ارتباطه مع المجتمع بأسره ، الذي كان يعيش فيه (٤٣) . وبكلمات أخرى لقد عبر الأيديولوجيون عن الوعي الذاتي للمجتمع ولكن بنية هذا الوعي ترتبط بالمجتمع نفسه لهذا هدف ماركس وانجلز الى بيان الكيفية التي تنشأ بها الأفكار حول المجتمع ، وركزا بخاصة على تلك الأفكار التي تعطي تصورا **زائفا** عن المجتمع وتحليلهما لنشوء الليبرالية الألمانية هو مثال جيد على صحة ما أراد الوصول اليه

كانت الليبرالية الألمانية في مطالع أربعينات القرن الماضي تمثل حماسة طائشة ايدولوجية حول الليبرالية الواقعية (٤٣) وقد وجد ماركس وانجلز تفسير ذلك في تاريخ البرجوازية الألمانية ، في العلاقات الاقتصادية والسياسية للمجتمع وأظهرا ان البرجوازيين الألمان لم تكن لهم مصالح مشتركة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وقد توافق مع تبعثر مصالحهم تبعثر تنظيماتهم السياسية أيضا

في عصر الملكية المطلقة تلقت السلطة السياسية « استقلالية شاذة بأن ركزت الدولة نفسها كسلطة مستقلة ظاهريا ويؤكد ماركس وانجلز ان وضع الدولة هذا يفسر مجمل الاوهام السائدة في ألمانيا حول الدولة و الاستقلالية الظاهرية للمظرين حيال البرجوازيين والتناقض الظاهر بين الشكل الذي يعبر به هؤلاء المنظرون عن مصالح البرجوازيين وهذه المصالح نفسها (٤٣) بنفس الاسباب يفسر أيضا، كما قال ماركس وانجلز الشكل المشوه الذي اتخذته الليبرالية الفرنسية في ألمانيا وخاصة في فلسفة كانت فلا كانت ولا المواطنون الألمان ، وكان المتحدث باسمهم قد لاحظوا ان في أساس الأفكار النظرية للبرجوازيين مصالح مادية و**ارادة** معينة ومتحددة بعلاقات الانتاج المادية لقد فصل التعبير النظري عن المصالح التي يعبر عنها وحول تعيينات ارادة البرجوازية الفرنسية ذات البواعث المادية ، الى تعيينات ذاتية **بحنة للارادة الحرة** ، للارادة بذاتها ولذاتها ، للارادة البشرية ، وجعل منها بهذه الطريقة تعيينات ايدولوجية مفهومية وبدهيات أخلاقية (٤٣) . وبقيت الليبرالية السياسية وهما من الاوهام،

عندما وحدث المصالح المحلية الممزقة وصار لها طابعاً مشتركاً الى حد ما وسار المواطنون الالمان تقريباً كالبرجوازيين الفرنسيين في ١٧٨٩ ان ايدولوجي البرجوازية الالمانية ، التي كانت تجمع نفسها لم يفهموا ارتباط الليبرالية بالمصالح الطبقية الفعلية مع انها انبثقت عنها ، ولا يمكن ان يكون لها وجود واقعي الا معها (٤٣)

يمكننا تحليل نشوء الليبرالية الالمانية ، كنتاج ايدولوجي نموذجي ان نفهم لماذا اسمى ماركس وانجلز الايدولوجيا «وعياً زائفاً» غير ان تحليلهما لا يقتصر على التدليل على ان المفهوم الزائف للتاريخ هو ايدولوجيا. فقد دلا على ان مثل هذا المفهوم يتحدد بالعلاقات والمصالح الطبقية السائدة في المجتمع التي تظهر كعلاقات اجتماعية وكما تكون العلاقات الاقتصادية كذلك تكون النظريات وهذا امر لا تنضح فقط من المثال الذي سقناه حول الليبرالية الالمانية بل هو مميز لنشوء عدد كبير من الافكار والآراء السياسية والاخلاقية وغيرها ويمكن للمرء ان يشير هنا الى منازلة ماركس وانجلز مع افكار وآراء الاشتراكية الالمانية الحقيقية كان الاشتراكيون الحقيقيون ايدولوجيو البرجوازية الصغيرة والمعبون عن مصالحها وقد طمسوا التناقضات بين اصحاب الملكية الخاصة والبروليتاريين الذين جردوا من اية ملكية ، وهذا ما تظهره نظريتهم حول الملكية الحقيقية وكما يشير ماركس وانجلز فان هذه النظرية فهمت الملكية الخاصة الواقعية الراهنة **كوهم** فحسب ، ونظرت الى التصور المجرد المنبثق عن هذه الملكية الحقيقية **كحقيقة وواقع** لهذا الوهم اي انها ايدولوجية بقضتها وقضيضها انها تعبر فقط بوضوح اكبر وتحديد اكثر عن تصورات البرجوازيين الصفار الذين تتوجه مطامعهم الخيرة ورغباتهم الورعة الى الفاء حالة انعدام الملكية ايضاً (٤٣) وينتج الوضع المتناقض للبرجوازيين الصفار مثل هذه الاوهام والضلالات المنتشرة في السيكلوجيا الاجتماعية ، وفي الايدولوجيا ايضاً

ثمة امكانية واقعية لظهور وعي وهمي داخل العلاقات المادية لاي مجتمع يقوم على الملكية الخاصة وكما اشار ماركس في «رأس المال» ، تأخذ الروابط الاجتماعية للمنتجين في ظروف انتاج السلع التي تشكل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج اساسها شكل روابط بين اشياء هذا التسيؤ لعلاقات الانتاج ينشأ نتيجة لواقع ان روابط الانتاج بين البشر

لا تتحقق بصورة مباشرة بل عبر تبادل الاشياء في السوق ، عبر بيع وشراء السلع وهذا ينتج وهما مثل وهم صنمية السلعة وينشأ لدى البشر تصور بأن الاشياء نفسها السلع تملك بطبيعتها خواصا غامضة معينة

تطمح الدولة في المجتمع الاستغلالي وهي نتاج للتناقضات الطبقية وطبيعتها التي لا تقبل المصالحة الى الانفصال عن المجتمع وإلى وضع نفسها فوقه وهي تنجح في ذلك بقدر ما يكون تعبيرها عن مصالح الطبقة السائدة اقتصاديا أي أكثر كمالات ان وهم استقلال الدولة والبنية القوية اجمالا ، يخلق أيضا امكانية لنشوء الاوهام

ويرتبط تحول هذه الامكانية الى واقع بالعلاقات الاجتماعية السائدة، التي تشترط تقسيما للعمل تنفرز فيه فئات خاصة تتعاطى الانتاج الفكري الذي يخدم مصالح الطبقة السائدة ولدى شرح اسباب سيطرة مفهوم مثالي للتاريخ ومناهج تاريخية مطابقة له في أربعينات القرن التاسع عشر في ألمانيا وانفصال افكار الطبقة السائدة عن هذا المفهوم وانفصالها قبل كل شيء عن العلاقات التي تنبثق عن مرحلة معطاة لنمط الانتاج وتتحول الى القوة المحددة للتاريخ يشير ماركس وانجلز مباشرة وبالارتباط مع نشاط الايديولوجيين ، الى ان هذا المنهج التاريخي يفسر ببساطة بالوضع الحياتي للايديولوجيين وبعملهم وبتقسيم العمل اجمالا (٤٣)

بهذه الصورة تتحدد الطبيعة الوهمية للايديولوجيا عبر الروابط الواقعية بين البشر في المجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى تقسيم العمل السائد بداخله في مجتمع كهذا يتلقى النشاط الايديولوجي قسما خاصة تمكنا من فهم طبيعة نتاجاته بصورة افضل بعكس ذلك يختفي الاساس لظهور وعي وهمي في المجتمع الذي تصبح فيه الروابط البشرية انسانية حقا ، تتحقق بصورة مباشرة ، وتظهر في صيغة واضحة

ويتحدد الوجود الفعلي للايديولوجيا بالحاجة الى تمثيل مصالح هذه الجماعة او تلك ويمكن للايديولوجيا أن تكون بحسب طبيعتها صحيحة او زائفة ولكن ذلك ليس هو ما يمنحها صفاتها الخاصة النوعية فهي تكتسب هذه الصفات من خلال الدور الذي تلعبه بصفاتها وعيا ذاتيا للمجتمع

يبرر مصالح الشر بمثلا لقد تطابقت في زمن شوء الرأسمالية المصالح الطبقة للرجوازية مع مصالح المجتمع ولكن بقدر ما تطورت الرأسمالية بقدر ما نما تناقض المصلحة الرجوازية مع المصالح الاجتماعية وتحول الى صراع ان الرجوازية تعيش اياما ليست لها وقد غدت عائقا للتطور التقدمي للمجتمع لذا فهي تحتاج الى ايدولوجيا تظهر مصالحها الطبقة الخاصة وكنها مصالح المجتمع بأسره بغض النظر عن روابطها الفعلية

اما مصلحة الطبقة العاملة فهي منذ نشوئها المصلحة الاجتماعية لان العمال لا يستطيعون تحرير انفسهم من الاستغلال والاضطهاد ، دون تحرير سائر الطبقات المضطهدة في المجتمع لذا وجد نظريو هذه الطبقة انفسهم امام مهمة وضع علم يكشف قوانين تطور المجتمع وقواه المحركة وظروف تغيير العالم وقد وضع ماركس وانجلز في مواجهة المفهوم المثالي المفهوم المادي للتاريخ وفي مواجهة الايدولوجيا البرجوازية العلم ان كلاسيكا الماركسية لم يسميا نظريتهما ايدولوجيا وان كان ذلك لا يعني ان النظرية التي وضعها لم ترتبط بمصالح ونضال الطبقة العاملة فهي ترتبط عضويا بالطبقة العاملة وشاؤها وهي سلاحها النظري

لا تستطيع البروليتاريا أن تحرر نفسها ان لم تحرر المجتمع ولكي تحرر المجتمع ، يجب عليها أن تعي مكانها فيه ، ودورها التاريخي العالمي وأهداف ومهمات نضالها بكلمات أخرى ان مصالح الطبقة العاملة تخلق الحاجة الى الايدولوجيا والماركسية تمنح الطبقة العاملة مثل هذا الوعي الذاتي ، وهي ايدولوجيتها

للماركسية اذن وظائف العلم ووظائف الايدولوجيا وفيها ترتبط سمات العلم بسمات الايدولوجيا فهي تظهر كعلم ، حيث تكشف قوانين التطور الاجتماعي . وحين تكشف عن قيم ومبادئ ومعايير نشاط وسلوك البشر ، فانها تكون ايدولوجيا

على المرء أن ينظر الى الماركسية في طورها ان ايدولوجية الطبقة العاملة كان يمكن أن تنشق عن العلم فقط لذا وجب على ايدولوجيي الطبقة العاملة ان يبدؤا بوضع علم المجتمع وبقدر ما تطور الصراع الطبقي للطبقة العاملة ، وحدثت ثورات بوليتارية وبررت مهمات بناء المجتمع

الاشتراكي بقدر ما تنامت الحاجة الى تطوير الماركسية كايديولوجيا وتطلبت معالجة مسائل استراتيجية وتكتيك الصراع الطبقي ، والتنظيم الحزبي ودوره والروابط المتبادلة بين الجمهور - والطبقة - والحزب اهتماما كبيرا بعدما آلت مهمة تطوير الماركسية كعلم وكايديولوجيا الى لينين الذي فهم الوظيفة المزدوجة للماركسية ، وطالب بتطوير « الايديولوجية البروليتارية ونظرية الاشتراكية العلمية، اي الماركسية» (٤٤)

سنلخص الآن ما ذكرناه سابقا حول الايديولوجيا بصفاتها وعيا ذاتيا للمجتمع الايديولوجيا هي قبل كل شيء الوعي الذاتي لطبقات مفردة وتعريف الايديولوجيا بصفاتها الوعي الذاتي للطبقة صحيح بالنسبة لكل مجتمع فيه طبقات

وحين نعرف الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع فاننا نفكر بأن المجتمع ككل يمكن ان يملك مثل هذا الوعي الذاتي على كل حال لا تملك سائر المجتمعات مثل هذا الوعي والمجتمع الذي تهيمن فيه القوى الاجتماعية على الانسان لا يملك وعيا لذاته والقفزة من عالم الضرورة الى عالم الحرية تدل على ان المجتمع قد حصل على وعيه الذاتي

٤ - العلم كنتاج فكري عام للتطور الاجتماعي •

في تعيين ماركس للعلم كنتاج فكري عام للتطور الاجتماعي تثبت لخصوصية نشوء العلم كمجال خاص للوعي الاجتماعي اذا كانت الايدولوجيا تنمو على اساس العلاقات الاقتصادية لخدمة مصالح طبقية ، فان قاعدة تطور العلم هي انتاج السلع المادية وقد تعين تطور العلم تاريخيا من خلال حاجات القوى المنتجة للمجتمع فبقدر ما نمت هذه الحاجات وبقدر ما امن الانتاج الشروط الضرورية لتنفيذ الابحاث العلمية، تطور العلم وقد نمت الحاجات الى العلم في ظل الرأسمالية بصورة خاصة حيث طرحت حسب كلمة لماركس للمرة الاولى مشاكل عملية كان من غير الممكن حلها الا علميا في الرأسمالية بلغ تطور التجربة والمراقبة وحاجات الانتاج حدا تطلب استخدام العلم وجعله ضروريا

كتب ماركس ان راس المال لا يخلق العلم ولكنه يستغله ويستولي عليه في سياق عملية الانتاج (١٥) هذا يعني ان العلم لا يسمو من علاقات الانتاج بل هو نتاج عام للتطور الاجتماعي وان كانت علاقات الانتاج تلعب دورا هاما في استخدامه وتطوره

يعتبر الانتاج قاعدة التطور الاجتماعي ويقدم تطور الانتاج الادوات والوسائل الضرورية للسيطرة النظرية على الطبيعة وقد ارتبطت المعرفة والتجربة دوما مع العمل نفسه بصورة مباشرة وفي الرأسمالية يحدث فصل العلم كعلم تطبيقي في الانتاج ، بواسطة العمل مباشرة ويخلق الانتاج الرأسمالي للمرة الاولى وبدرجة كبيرة الوسائل المادية للبحث والمراقبة والتجربة ويتطور مع الانتاج الرأسمالي ، العامل العلمي تطورا واعيا للمرة الاولى ويطبق ويخلق بدرجة لم تكن العصور السابقة تملك اي تصور عنها

تبرز خصوصية العلم كنتاج فكري عام للتطور الاجتماعي في انه ،

بصورة رئيسية الشكل الاعلى للمعرفة وعامل بالغ الاهمية في التطور الاجتماعي

ويمثل العلم كشكل اعلى للمعرفة ، منظومة من المعارف الموضوعية المعلقة نظريا وهي نتاج لانعكاس الواقع الذي يجد البشر فيه **العام** وراء الظواهر والوقائع المتفرقة **والضروري** وراء العرضي ويكشفون الارتباطات والروابط الاكثر جوهرية أي القوانين والقانون هو شكل عمومية الواقع التي ستطبع العلم وحده كشفها ويفسر هذا بأن جوهر الاشياء ليس مكشوفاً بصورة مباشرة ان أي علم سيكون شيئاً نافلاً، لو ان شكل ظهور الاشياء وجوهرها تلازما تلازما مباشراً (٤٦)

ويمثل العلم الشكل الاعلى للمعرفة لانه بعكس المعارف اليومية وما قبل العلمية ، يكشف جوهر الاشياء ويتميز العلم عن سلسلة من الاشكال الادنى للمعرفة بصفات منها مثلاً الطبيعة المنهجية أي تحويل المعارف العلمية الى نظام معين للمفاهيم المعلقة نظريا

ان جوهر العلم هو معرفة القوانين الموضوعية الواقع والقوانين التي يكشفها العلم تشكل محتواه الرئيسي واكتشاف القوانين ممكن فقط على أساس جمع ودراسة الوقائع ، وتعميمها ، وربط الاطروحات المستنتجة منها الخ ولا يقتصر محتوى العلم فقط على القوانين التي يصوغها بل يتعداها الى الوقائع والمعطيات التجريبية والاختبارية التي تمثل الارضية الواقعية للنتائج والاستنتاجات العلمية والوقائع لا تتحول الى عناصر للمعرفة العلمية الا عندما تعمم تنقطع عن ان تكون مادة خام والعلم يحتوي على نظريات عن سيرورة العالم ، واستنتاجات من المعطيات التجريبية وقوانين مكتشفة وبفضل تعميم المعطيات الى نظريات تفسر تفسيراً معيناً وتستخدم كأساس لاستنتاجات لاحقة ، يصبح العلم منظومة معرفية ذات بنية منطقية حول موضوع بحثه

من الطبيعي انه ليس كل ما هو من محتوى العلم يعتبر معرفة موثوقة فهناك مثلاً الافتراضات العلمية التي لا بد للبحث من ان يقرر مدى موثوقيتها

الى جانب العناصر المذكورة تعتبر جزءاً من محتوى العلم بعض الطرق الخاصة في دراسة الوقائع وبعض المقولات الخاصة التي يحتاجها العلم من أجل بحث وتنهيجه مادته

لا تستنفذ العناصر التي ذكرناها بأي حال محتوى العلم .

ولدى دراسة العلم كظاهرة اجتماعية ثمة عنصر بالغ الأهمية ، ولكنه لا يعتبر جزءا من محتوى العلم إلا وهو علم المنهج انهم يعترفون بأهميته للعلم ولكنهم يعبرونه جزءا من الفلسفة وليس من العلم بحجة ان المبادئ الفلسفية تلعب دورا منهجيا هاما مثل هذا الموقف نابع عن مفهوم معين للروابط المتبادلة بين التكوينات الفكرية تؤثر بحسبه الافكار والآراء والتصورات على بعضها بعضا دون أن تنتقل من مجال للوعي الى سواه أي دون أن تتداخل ببعضها ويبدو لنا ان العلم لا يستخدم هذا المبدأ الفلسفي أو ذاك في شكله الخام بل هو يتمثله ويحوّله الى حد عناصره

يسمح لنا محتوى العلم أن سببا أيضا بالتعريفات المستقبلية في الطبيعة والمجتمع لان العلم يكشف قوانين واتجاهات التطور فيهما وتمكننا الخصائص التي ذكرناها من فهم العلم كأعلى شكل لمعرفة الواقع العلم هو منظومة من معارف البشر الموضوعية - الواقعية المجربة عمليا حول الطبيعة والمجتمع والفكر تعبر عن نفسها في صورة مفاهيم وتعريف وصيغ وبصورة أساسية في قوانين انه منظومة من المعارف تتطور باستخدام الفرضيات العلمية وسواها من أشكال التفكير (٤٧)

يتعاطى العلم المعرفة الحقيقية فالطموح نحو معرفة الحقيقة والبحث عنها شكلان خصوصية العلم ويسمحان بفرقه عن بقية مجالات الوعي في الايديولوجيا يمثل المقياس لقيمة سائر مبادئها مسألة ما اذا كانت تمثل مصالح طبقية مع انها لا تقف في نفس الوقت موفقا لا مبال من موضوع الحقيقة والايديولوجيون الذين يضعون بالتوافق مع مصالح طبقاتهم النظريات والعقائد يستطيعون الطموح بوعي نحو الحقيقة ، أو بالعكس تزوير الحقيقة عن وعي هنا يرتبط كل شيء بالمصالح وثمة حكمة تقول لو كانت البدهيات الهندسية تمس المصالح البشرية ، لحاول المرء بالتأكيد دحضها (٤٨) بهذه الحكمة التي اطلقها الفيلسوف الانكليزي هوبز اوضح لينين خصوصية الايديولوجيا. بعكس الايديولوجيا ، يكمن مقياس قيمة الفرضيات العلمية ليس في تمثيلها لمصالح طبقية ، بل للحقيقة ، محددة في النهاية بحاجة تطور القوى المنتجة. لهذا السبب بالضبط يستطيع المرء اعتبار العلم نتاجا فكريا عاما للتطور الاجتماعي

وتكمن خصوصية العلم أيضا في انه عامل هام في التقدم الاجتماعي.

فمن المعروف ان التقدم الاجتماعي يقاس بدرجة سيطرة الانسان على قوى الطبيعة وعلى علاقاته الاجتماعية والمؤشر على درجة السيطرة على قوى الطبيعة هو مستوى تطور الانتاج والقوى المنتجة وهذه يتوقف تطورها ، بدرجة كبيرة على وضع العلم واستخدامه في عملية الانتاج وكما يشير تاريخ تطور الانتاج في السنوات المائة الاخيرة فان العلوم الطبيعية قد شملت الطريق لتقدم القوى المنتجة وفي المجتمع الحديث يتحول العلم بصورة متزايدة الى قوة منتجة مباشرة للمجتمع وهذه المسألة الاخيرة غدت موضوعا لنقاش واسع في الادبيات السوسيولوجية والاقتصادية سيما أننا من تعميق فهمنا للوظيفة الاجتماعية للعلم وبالتالي للخصوصية كمجال خاص للوعي الاجتماعي

يفهم تحول العلم الى قوة انتاجية مباشرة كشيء لنتائجه في أدوات العمل وفي قدرات ومهارات المنتجين ويبدو لنا ان هذا المفهوم ليس كاف ، لانه يراعي فقط التأثير النهائي للعلم على القوى المنتجة ، دون ان يكشف الرابطة المتبادلة بين العلم والقوى المنتجة في عملية الانتاج نفسها هكذا يستنتج المرء ان العلم ربما كان يستطيع التأثير على تطور القوى المنتجة بأن تظهر هذه كقوة ظاهرة له ، في حين ينظر الى القوى المنتجة كمجموع لأدوات الانتاج والبشر فقط ولكن اذا لم يعتبر المرء القوى المنتجة كمجموع هذه العناصر فقط بل نظر اليها ايضا كرابطة فعالة للبشر مع الطبيعة ، كنشاط منصب على هدف بمساعدة أدوات عمل فانه يصبح عندئذ بالإمكان ان نعتبر الامكانيات الفكرية للانسان ، العامل الفكري ، الذي هو وفي درجة معينة من تطور الانتاج العلم نفسه ، جزءا من القوى المنتجة والعلم كعامل فكري ، يدخل في القوى المنتجة بصفته عنصرا للبناء وهذا بالضبط ما يحوله الى قوة منتجة مباشرة

ويذهب عدد من علماء العلم الى مدى أبعد لدى التصدي لهذه المسألة فيقولون اننا لا نستطيع ان نتحدث عن تحول العلم الى قوة منتجة مباشرة الا اذا تحول من عنصر فكري الى عنصر مادي للقوى المنتجة والعلم هو نوع من النشاط الفكري والمادي وهو لا يصبح عنصرا للقوى المنتجة الا كنشاط مادي وحسب

ان وجهات النظر السابقة حول طريقة فهم العلم كقوة منتجة مباشرة تشير الى الاعتراف بالدور الهام الذي يلعبه العلم في الانتاج ، مع ان المفهوم الذي يشرح الكيفية التي يحقق بها العلم وظائفه يختلف عن

مفهوم العلم نفسه حول هذه المسألة فاذا نظرنا الى العلم كعامل خارجي بالقياس الى القوى المنتجة ، فان حجج مؤيدي وجهة النظر هذه لن تقنعنا مهما كانوا واثقين من الدور الذي يلعبه العلم كقوة منتجة مباشرة اما الاطروحة حول تحول العلم الى عنصر مادي للقوى المنتجة فهي ايضا تعطي صفة اطلاقية لنسبة الفوارق بين الظواهر المادية والفكرية وهي تفعل ذلك الى درجة تنقلص فيها الفوارق الى الصفر ويتحول معها العلم من عامل فكري الى عنصر مادي للقوى المنتجة

بيد ان هذه الفوارق تبقى قائمة في الواقع والحال ان تحقيق لتوصيات العلمية في شكل منتجات مادية كما يحدث في مخابر المعاهد العلمية والمخابر وورش وحقول التجارب لا تحول هذه المنتجات الى نتائج للعلم والنشاط العلمي لا يصبح نوعا من النشاط المادي ، مع ان العلماء يستطيعون الانشغال بكلا النشاطين

لقد طرح ماركس نفسه وحل ، مسألة تحول العلم الى قوة منتجة مباشرة كتب ماركس

« عندما تصبح عملية الانتاج مجالاً لتطبيق العلم ، فان العلم من ناحيته يصبح عاملاً ، او كما يقولون ، وظيفة لعملية الانتاج وكسل اكتشاف يصبح الاساس لاختراع جديد او لاستكمال جديد لاساليب الانتاج » (٤٨)

لقد وصف ماركس عملية الانتاج كمجال لتطبيق العلم كحقل للاستخدام الفعلي للقوى وأكد انها تصبح بهذا المعنى علماً تجريبياً ، علماً مادياً - خلافاً يتجسد في موضوعات (في أشياء) القضية الهامة هي اذن وجود تأثير متبادل بين العلم وعملية الانتاج يتداخل فيه الجانبان ببعضهما الى حد ما ، دون ان يفقدا خصوصيتهما فالعلم يبدو كوظيفة لعملية الانتاج في شكل معرفة ، وليس كنشاط مادي ، وعملية الانتاج تبدو كعلم مشييء في شكل نشاط مادي

تؤدي المصاعب التي تبرز في فهم الرابطة المتبادلة بين ما هو فكري وما هو مادي ضمن العمليات الواقعية الى اخطاء في تفسير الظواهر الفكرية الاخرى كالراي الاجتماعي مثلاً فالمرء لا يضم تحت هذا المفهوم فقط الاحكام التي تعبر عن رابطة معينة للشر حيال الحقائق والاحداث والافعال ، بل يقصد به - ايضاً - الافعال العملية التي يتجسد الراي بها بذلك يلغى اي فارق بين احكام البشر ونشاطهم ، وروابطهم الواقعية .

يوجد في أساس مثل هذا التصور مفهوم معلوط للرابطة بين ما هو فكري وما هو مادي يعبر عن نفسه في ان هذين الجانبين الداخليين في رابطة متبادلة ليسا في الواقع متساويين فالجانب المادي هو الجانب المحدد (بكسر الدال) وما هو فكري (العلم الراي الاجتماعي... الخ) لا يستطيع ان يظهر ولا يظهر فعلا الا للحظة في الظاهر المادية ، الا كالحقبة للعمليات الموضوعية للنشاط الاجتماعي وللروابط بين البشر العلاقات المادية وعلاقات البنية الفوقية ولكن العلاقات المادية لا يمكن ان تصح لحظة فيما هو فكري لان هذا بتحقيقه وتجسده في العمل والعلاقات ينقطع عن ن يكون شيئا فكريا ويصبح عنصرا في الممارسة الاجتماعية في عملية الحياة البشرية الواقعية ومن خلال ذلك يلعب دورا كبيرا في المجتمع

ثمة جملة معروفة تعبر عن الدور الاجتماعي للعلم المعرفة من أجل الاستكشاف والاستكشاف من أجل العمل ويسمح تحول العلم الى قوة منتجة مباشرة بالقول ان العلم يصبح فعلا ويقصد بالعلم هنا العلوم الطبيعية مع ان العلوم الانسانية هي ايضا عامل هام في التقدم الاجتماعي

نظم العدم الاجتماعي الى جانب السيطرة المتزايدة للبشر على قوى الطبيعة اي تطور الاناج مسوى الحرية الاجتماعية للبشر ايضا ، وروابطها مع وسائل الانتاج ودرجة انخراطهم في حل مسائل الحياة الاجتماعية الى جانب عاصر أخرى تميز حياة الانسان في الانتاج والمجتمع على وجه الاجمال في تاريخ المجتمعات الطبقية ارتبطت سيطرة البشر على الطبيعة دوما بنضال الجماهير الشعبية ضد الاضطهاد وعبودية الانسان للقوى الاجتماعية العفوية وتتطلب تقدم الانسانية تأمين حرية الفرد والمجتمع على طريق اعادة صياغة العلاقات الاجتماعية وفق المبادئ الاشتراكية وهذه عملية تتطلب عملا واعيا للبشر في أساسه معرفة قوانين تطور المجتمع من هنا تنبع الحاجة الى العلوم الانسانية

ان دور العلم في المجتمع يتعاظم بمقدار ما يتغلغل في وعي الجماهير، ويصبح ملكا للكادحين لقد فصلت الرأسمالية العلم عن العمل المباشر والمعرفة عن المنتجين اما الاشتراكية فهي توحد العلم مع الكادحين وتحمله الى الحياة والوجود اليوميين المتعددي الوجوه للبشر خالقة بذلك امكانات لا حدود لها لتسريع التقدم الاجتماعي

هـ - تداخل وتكامل مجالات الوعي الاجتماعي .

يرتبط تمييز مجالات خاصة الاجتماعي تاريخيا بفصل الانتاج الفكري الى فرع خاص للنشاط ولا وبالاحتاجات الاجتماعية ثانيا وتحدد الفروق بين مجالات الوعي بصورة سية عمر وظائفها الرئيسية التي تمارسها في احياء الاجتماعية وعلى اساس هذه الوظائف يصبح ممكنا وضع بعض المقاييس التي تسمح لنا باعتبار هذا او ذاك من التكوينات الفكرية تابعا للعلم للايديولوجيا او للسيكولوجيا الاجتماعية بالنسبة للعلم يعتبر الطموح نحو المعرفة الموضوعية مميزا وبالنسبة للايديولوجيا يعتبر التوافق بين الآراء والنظريات والتعاليم التي تعبر عنها وبين مصالح الجماعات هو العامل المميز في حين تمتاز السيكولوجيا الاجتماعية بتوجهها الشعوري - الارادي وفعاليتها

هذه المجالات الثلاثة للوعي الاجتماعي ترتبط مع بعضها ارتباطا وثيقا لا يظهر فقط في التأثير المتبادل بل ايضا في التمازج والتكامل المتبادلين ابان تحقيق وظائفها ويبدو التمازج المتبادل في ان عناصر أحد مجالات الوعي تصبح أحيانا عناصر لمجالات فاندولوجية الطبقات التقدمية نحو مثلا وبصورة دائمة نحو الاستناد الى العلم بأن تقتبس اساليب بحثه ونتائجه وتسمى السيكولوجيا الاجتماعية التي دمج الايديولوجيا فيها وجعلها محتوى لها أما تكامل مجالات الوعي فهو يظهر في ان كل مجال يحقق وظائف معينة خاصة بالمجالات الاخرى الى جانب وظيفته الرئيسية التي تمنحه خصوصية فتحقق الايديولوجيا وظيفة معرفية ويحقق العلم وظيفة ايدولوجية مع ان الوظيفة المعرفية ليست الصفة الخاصة للايديولوجيا والوظيفة الايدولوجية ليست الصفة الخاصة للعلم

ويكمن المبدأ العام للتأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية من جهة في ان الايديولوجيا تنقل الى رؤوس الجماهير المريضة ، وتصبح عنصرا في وعيهم الواقعي ومن جهة أخرى تؤثر

السيكولوجيا الاجتماعية ، بدمج الايديولوجيا فيها وتعميم التجربة الفنية للجماهير الشعبية ، من خلال محتواها على تطور الوعي الذاتي للمجتمع هذا المبدأ يشتمل على أكثر الصفات الخاصة عمومية ، التي تميز الترابط المتبادل لهذين المجالين في الوعي ، دون أن يعكس السمات المميزة لارتباط الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية لهذا المجتمع الشخص أو ذلك ، ولطبقاته

في الادبيات العلمية عولج الارتباط بين الايديولوجية الماركسية والسيكولوجية الاجتماعية للطبقة العاملة بصورة مفصلة فالايديولوجية البروليتارية تنبثق من العلم وتنقل الى الطبقة العاملة وفي نفس الوقت تشكل السيكولوجية الاجتماعية ارضية صالحة لاكتساب الايديولوجيا الموضوعية والطبقة العاملة تنجذب حسب كلمة لينين ، بصورة عفوية نحو الايديولوجيا التي تطابق حاجاتها ومصالحها ويجد الحزب الثوري في صفوف الطبقة العاملة نزوعا غريزيا نحو الاشتراكية يدفع ايدولوجيها الى الصياغة العلمية لنظرتها الطبقة الى العالم

وترتبط مسألة العلاقة المتبادلة بين الايديولوجية والسيكولوجيا الاجتماعية ارتباطا وثيقا مع المسائل السياسية للروابط المتبادلة بين الجماهير والاحزاب لهذا السبب كانت في الحاضر والماضي موضوعا للصراع الايديولوجي داخل صفوف الطبقة العاملة ، الذي تم خوضه منذ مطلع القرن العشرين في الاشتراكية الديمقراطية الروسية فلم يفهم بليخانوف الذي طرح في مؤلفاته مسائل السيكولوجيا الاجتماعية ، جدلية التأثير المرتد (المنعكس) للايديولوجيا على السيكولوجية الطبقة وقد انتقد لينين مفاهيم بليخانوف والاستنتاجات المترتبة عليها بالنسبة لنشاط الحزب بين الجماهير ، وأشار الى ان الايديولوجيا يجب أن تتوافق مع سيكولوجية الطبقات وان تستند اليها ، دون ان تنبثق من الحركة العفوية للعمال بل من العلم **والج على ان اكثر مهمات الحزب اهمية تكمن في تحويل الحركة العفوية للعمال الى حركة واعية . ولا يستطيع الحزب ان يحقق ذلك دون نقل الايديولوجية الماركسية الى وعي الجماهير العريضة .**

وبالطبع فان الروابط المتبادلة بين الايديولوجيا الماركسية والسيكولوجيا الاجتماعية للكادحين لا تستنفذ سائر امكانات الروابط القائمة بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية بوصفهما مجالين للوعي

الاجتماعي وكما سبق وقلنا ، فان الرابطة بينهما تكتسب طبيعتها المميزة بحسب المجتمع وطبيعة الطبقات نفسها ويعرف التاريخ امثلة كثيرة حول نشوء الآراء الايدولوجية لطبقة ما من سيكولوجيتها وهناك مثال مشهور على ذلك هو « التولستويوية » فالنظرات الايدولوجية لتولستوي تعكس ، كما قال لينين **التناقضات في سيكولوجية الفلاحين** في عصر تغفلل الرأسمالية العاصف في روسيا وقد عبرت هذه التناقضات عن نفسها في الربط بين الاحتجاج العنيف ضد الاضطهاد الذي تمارسه الدولة البوليسية وبين العجز السياسي والانجذاب الديني وتجلى التعبير عن هذه السيكولوجية في ايدولوجية الكاتب الروسي العظيم كتب لينين

« ان تولستوي عظيم بقدر ما يعبر عن الافكار والمشاعر التي برزت بين الملايين من جماهير الفلاحين في فجر الثورة البرجوازية بروسيا » (٤٩) .

وكانت السمة المميزة لسيكولوجية الفلاحين الروس في ذلك العصر هي التشاؤم والخيبة فقد كانت طبقة الفلاحين ترى انهيار العالم القديم (النظام القديم) دون ان تعرف نوع النظام الجديد الذي سيحل محله مع انها كانت تحس بالآلام والمصائب المرتبطة به ولقد عاش تولستوي آلام الفلاحين ، وكان يرى العالم بأعينهم ، ولا يجد مخرجا فعليا من الازمة وفي وعيه اتخذت السيكولوجية الفلاحية شكل استنفاء تام عن العنف حيال الشرور ، وعبرت عن نفسها في أطروحته حول الكمال الاخلاقي الذاتي والتحدد المسبق للقدر الانساني

السمة المميزة لسيكولوجية البرجوازية الصغيرة هي ثنائيتها وتناقضها وترددتها في آراء وأفعال البشر ، التي تتأرجح دوما بين حدين فتنتقل من أحدهما الى الآخر بصورة مبالغية وبالعكس والسمة الاخرى المميزة لسيكولوجية البرجوازية الصغيرة هي الانانية القومية والتحجر القومي ويمكن بالطبع لمحتوى الايدولوجيا نفسها ان يتغير تحت تأثير السيكولوجية البرجوازية الصغيرة والامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. وكل انماط الايدولوجيا السابقة للاشتراكية تملك لدى نشوئها اشياء كثيرة مشتركة ، تتجلى بشكل خاص في ان التأثير المتبادل بين الايدولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يحدث معزولا عن العلم وهو ما ينعكس في محتوى الوعي الذاتي والوعي الجماهيري ايضا للطبقات . وتخلق

الاشتراكية نوعا جديدا من هذا التأثير المتبادل تشترك فيه سائر مجالات الوعي الاجتماعي : السيكولوجيا الاجتماعية ، والايديولوجيا ، والعلم اما اساس هذا التأثير المتبادل فهو النشاط الواقعي العملي للبشر ، بما في ذلك النشاط الفكري - العملي ، المنصب على تشكيل وعي البشر

ابان اقامة المجتمع الاشتراكي يحدث تغير في وعي سائر الطبقات والفئات الاجتماعية ويتطلب تغيير وعي طبقة الفلاحين بذل جهود كبيرة ومضنية ويحدث ترسيخ السيكولوجيا الجديدة على ارضية التبدلات الاشتراكية في الصناعة والزراعة وتلعب هنا التبدلات السياسية دورا هائلا في تغيير سيكولوجية الكادحين فقد سمع المضطهدون لعدة مئات من السنين ان الطبقات المالكة دون سواها والاقلية المميزة في المجتمع ، يمكنهما ان تقودا الدولة في شروط الاشتراكية وظروفها يتأكد الكادحون بتجربتهم الحسية انهم يستطيعون قيادة سائر شؤون الدولة وتصريفها

ثمة ، في الاعمال التي تدرس التأثير المتبادل للمجالات المختلفة للوعي الاجتماعي ، عناصر بالغة الاهمية حول هذا الموضوع ومع ذلك فان دراسة التأثير المتبادل لا تزال تعاني من نظرة احادية الجانب ، تعبر عن نفسها بصورة رئيسية في التصور المبسط للعلاقة بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية ، الذي يقود بدوره الى مفهوم المستويين الاعلى والادنى لانعكاس الواقع هكذا يكتب كولبانوفسكي

« الايديولوجيا هي الصعيد الاعلى للانعكاس ، وهي تملك نفوذا هائلا يحكم السيكولوجيا الاجتماعية (والفردية) ، ويؤدي الى اعادة صياغتها جوهريا اما السيكولوجيا الاجتماعية التي تعكس مباشرة التغيرات العميقة في الاقتصاد وروابط البشر الاجتماعية المتبادلة ، فهي تخدم الايديولوجيا كموضوع للتحليل والتعميم » (٥٠) .

كما نرى تتلقى الايديولوجيا هنا في التأثير المتبادل دور المبدأ الفاعل ، بينما تتحول السيكولوجيا الاجتماعية الى موضوع منفعل « للتحليل والتعميم

على نفس الصعيد يرى الكسييف التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية وهو يكتب

« يمكن تأثير السيكولوجيا الاجتماعية على الايديولوجيا اساسا في ان المشاعر والامزجة الاجتماعية السائدة في طبقة ما ، والتي تمتاز

بشيء من الثبات ، تعطي للأشكال الأيديولوجية لونا شعوريا مطابقا لها
بكلمات أخرى ان السيكولوجيا الاجتماعية تمارس نفوذها قبل كل شيء
على شكل التعبير الأيديولوجي « (٥١)

هنا يتقلص التأثير المتبادل للأيديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية
الى تأثير متبادل بين الشعور والمحتوى في الوعي الاجتماعي حيث تعطي
السيكولوجيا للمحتوى شكل التعبير فقط ومن الجلي ان وجهي التأثير
هذين ليسا متماثلين من حيث القيمة ما دام تأثير محتوى السيكولوجيا
الاجتماعية على الأيديولوجيا لا يقام له وزن

فضلا عن ذلك يتحول الوضع غير المتساوي لمجالات الوعي الى قانون
يستخدم لتصنيف السيكولوجيا الاجتماعية تحت الأيديولوجيا انما
سنتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل لان هذه المسألة تمس جوهر
التأثير المتبادل بين مجالات الوعي الاجتماعي

تشكل سيكولوجية الجماهير في المجتمع الطبقي تحت تأثير
الأيديولوجيا التي كان وزنها كبيرا على الدوام في الوعي الاجتماعي
واذا ما اخذنا المجتمع الاشتراكي فان تأثير الأيديولوجيا على السيكولوجيا
الاجتماعية كان هنا ايضا كبيرا في مختلف مراحل البناء الاشتراكي
فالأيديولوجيا ، والعلم ايضا يملكان تأثيرا بعيد صياغة السيكولوجيا
الاجتماعية والحال ان تأثير العلم تنعظم أثناء ذلك مع التعاطف العام
لاهميته في حياة المجتمع

بيد انه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار ان السيكولوجيا الاجتماعية
ايضا التي تتضمن التجارب العملية للجماهير الشعبية في بناء
الاشتراكية ، تحتوي على تصورات علمية وتلعب دورا متزايد التأثير على
الأيديولوجيا ولا يمكن تقليص مسألة التأثير المتبادل بين الأيديولوجيا
والسيكولوجيا الاجتماعية الى مجرد مسألة تصنيف هذا المجال من الوعي
تحت ذاك

هذه المسألة الأخيرة تبرز فقط حين نفهم السيكولوجيا الاجتماعية
كشيء عفوي وغير منظم وحين يزعم ان غريزية ولاوعي الامزجة والافعال
تشكلان السمة المميزة للسيكولوجيا الاجتماعية يجب على الأيديولوجيا
ان تنظم وتنهج عندئذ مجالا لا يمكن الا بصعوبة اعتباره وعيا ولكن حين
يفهم المرء السيكولوجيا الاجتماعية والأيديولوجيا بالطريقة التي توجدان بها

في ظروف المجتمع الاشتراكي ، فانه لن يمكننا عندئذ حصر دور الايديولوجيا في تنظيم المحتوى الراهن للوعي الجماهيري ، بل يجب توسيع هذا الدور ليشمل تحويل محتوياتها الخاصة الى قناعات جماهيرية ان قوة الايديولوجيا لا تكمن في كونها معرفة نظرية معينة ومعرفة اهم مبادئ وأسس الايديولوجيا يمكن ان يكون واسع الانتشار ، ومع ذلك فان الايديولوجيا لا تحقق وظائفها الا عندما تصبح افكارها ومبادئها قناعات للجماهير العريضة ، ومحل تفكيرها وقيمتها ، اي عندما تبدأ الايديولوجيا بتحديد محتوى السيكولوجيا الاجتماعية

تبعاً لما ذكرناه ، فان التأثير المتبادل بين السيكولوجيا الاجتماعية والايديولوجيا هو أكثر تعقيداً بكثير مما يبدو للوهلة الاولى وينتج فهمها المبسط من الدراسة الاحادية الجانب للظواهر المبحوثة وهي تظهر مرة اخرى ان التحليل المعرفي يجب ان يستكمل بالتحليل السوسيولوجي وليس من الممكن اعادة التأثير المتبادل بين الوعي الذاتي للمجتمع والوعي الجماهيري الى التأثير المتبادل لمستويين من انعكاس الواقع ان السيكولوجيا الاجتماعية تعتبر دون شك الارضية الخاصة التي تتطور الايديولوجيا فوقها ، كما تمنح هذه لعناصر السيكولوجيا الاجتماعية طبيعة وعي أكثر نفوذاً وفي نفس الوقت يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار ان التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يحدث أولاً على أساس اقتصادي وسياسي وثقافي معين ، وان العلاقات الاجتماعية التي تؤثر ببعضها تعين أيضاً التأثير المتبادل للتكوينات الفكرية ويجب ان نراعي ثانياً انه يقف دوماً خلف التأثير المتبادل للايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية النشاط الفكري - العملي للبشر المنصب على انتاج افكار وآراء ، وعلى حملها الى وعي الجماهير العريضة ، وصياغة السيكولوجيا الاجتماعية وينتج من ذلك ان القضية ليست ، هنا أيضاً ، مسألة نفوذ هذه الفكرة على تلك وبالعكس ، بل هي مسألة التغلغل الهادف لهذا الوعي ، والتغير الذي يصيب ذلك ويجب ثالثاً مراعاة ان الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يخضعان ، اiban تأثيرهما ببعضهما ، لنفوذ العلم الذي يخضع بدوره لتأثيرهما ان سائر مجالات الوعي الاجتماعي توجد في علاقة تأثير متبادل مع الوجود الاجتماعي وفيما بينها وليس التكامل المتبادل الذي يبرز لدى تحقيق هذا المجال او ذاك لوظيفته الاجتماعية سوى السمة الجوهرية للتأثير المتبادل لمجالات الوعي الاجتماعي.

تشمل المبادئ المصاغة آنفا حول التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية التأثير المتبادل بين العلم والايديولوجيا ايضا ويمكن ايضاح ذلك بمثال الترابط المتبادل بين الفلسفة من جهة والعلوم الطبيعية والانسانية من جهة ثانية

تعتبر الفلسفة في علاقتها مع العلوم الطبيعية والانسانية نهائية عامة وعلى أساس الصفات الخاصة للبحث العلمي يجد كل عالم بغض النظر عن موضوع اختصاصه واجها بمسائل فلسفية ومضطرا لاتخاذ هذا الموقف الفلسفي او ذلك فعند دراسة القضايا المادية تهيمن على العالم الافكار المادية وقد قال لينين ان العلم ينجب المادية بصورة عفوية فهو حسب طبيعته مادي غير ان انجاب العلم للمادية لا يعني ان العالم يتشبع في عالم الواقع حتماً بأفكار المادية التاريخية - الطبيعية وانه يمكن ان سقط تحت نفوذ نظرة غير علمية الى العالم

ان تعقيد وتناقض عملية المعرفة يؤديان غالبا الى ازمة في هذه او تلك من مجالات العلم ومادية العلوم الطبيعية لا تستطيع ان تجد مخرجا واقعيا من مثل هذه الازمة والمثال المعروف على ذلك هو ازمة الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين وقد اشار لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي الى ان مادية العلوم الطبيعية ليست قادرة على تفسير اسباب الازمة وتجاوز المصاعب المعرفية الناشئة واثبت ان المادية الجدلية وحدها قادرة حقا على مساعدة العلماء وفي الواقع فان المخارج من الازمة قد اكتشفت من منظورات المادية الجدلية ، التي عللت بصورة موضوعية الاكتشافات الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وكانت ثورة حقيقية في العلوم الطبيعية

يضع الفلاسفة البرجوازيون المثاليون آمالهم في الصعوبات التي تواجهها المعرفة العلمية وهم يفسرونها من مواقع النظرة المثالية الى العالم ويفرضونها على العلماء والعلماء الذين يعتنقون مفهوما تاريخيا وطبيعيا يواجهون مصاعب جمة في مقاومة ضغوط الفلسفة المثالية للمجتمع البرجوازي هذا يفسر التناقضات في مقولاتهم الفلسفية التي تؤثر على النشاط العلمي وعلى مفهوم الوظائف الاجتماعية للعلم وعلى مسؤولية العالم في المجتمع المعاصر

في مثل هذه الحالة تساعد الفلسفة المادية العلماء وكما يدل تاريخ العلم ، فان العلوم الطبيعية قد اقترنت دوما بالفلسفة المادية وتظهر الاهمية المنهجية للفلسفة بالنسبة لسائر العلوم في سلسلة من العوامل فالفلسفة تضع

● **اولا** الشروط الاولى النظرية العامة للنشاط المعرفي البشري ما هي طبيعة بنية العالم ؟ هل يمكن للانسانية ان تعرف عالمها ؟ ما هي امكانات ووسائل مثل هذه المعرفة ؟ ما هي الحقيقة وما هي مقاييسها ؟ ان الحل الملل نظريا لمسائل من هذا النوع يقدم الشروط الاولى العامة لمقدرة البشر المعرفية

● **ثانيا** تدرس الفلسفة المادية اكثر قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والفكر عمومية وهي تكشف اكثر روابط وعلاقات السواقع عمومية وتصوغ على اساس معرفتها مبادئ معينة لاكتشاف المعرفة - الديالكتيك الذاتي وهي تعلل مثلا مبادئ مثل التحليل المشخص للظواهر، ودراستها في سياق نشوئها وتغيرها وتطورها ، وفي ترابطها أيضا وتطالب بتفحص عملي للاستنتاجات النظرية الخ ان العالم الذي يدرس الظواهر الفعلية للواقع ، يستطيع ان يفيد من المبادئ الفلسفية ولا تضمن معرفة هذه المبادئ النجاح في البحث العلمي ، لان هذا يمثل عملية خلاقة تفيد فيها المبادئ الفلسفية العالم ، حين تفقد فعلا قناعة راسخة لديه وتتغفل حقا الى المعرفة المتخصصة حول المجال المدروس عندما لا يحدث هذا الذوبان بين المبادئ الفلسفية والمعرفة المتخصصة ، فان العالم قد يعرف شيئا حول أسس هذه النظرة الى العالم او تلك ، ويتصرف في نفس الوقت بما يتناقض وهذه الاسس

● **ثالثا** تصوغ الفلسفة المبادئ المرتبطة بالنظرة الى العالم لدى مختلف العلوم ان العلم يتوغل أكثر فأكثر في مجالات من الواقع لم تبحث من قبل وبالارتباط مع ذلك تنشأ الحاجة لحل عدد كبير من القضايا الفلسفية في مجالات علمية جديدة كالسبرانية والسيميوتيك مثلا مثل هذه التضاي لا يمكن حلها الا بالجهود المشتركة للفلاسفة والعلماء ، والنتائج المكتسبة يجب ان تكون ملكا مشتركا للعلوم والفلسفة

لا تملك الفلسفة نفوذا على العلوم المتفرقة من خلال وضعها للشروط الاولى النظرية العامة لمعرفة الواقع فحسب ، بل تمارس نفوذها بصورة

رئيسية من خلال امتلاك العلوم الاخرى لها بوصفها منهجا معرفيا عاما ومعالجتها لمسائل فلسفية باللغة الحيوية بالنسبة للعلوم الاخرى

وتؤثر العلوم من جانبها في الفلسفة هذه الحقيقة متأصلة في وعي علماء العالم سواء فيما يخص تاريخ العلم ام تاريخ الفلسفة ، الذي يدل على ان الفلسفة المادية تستند الى تطور العلم بوصفه الاساس الذي يمكنها من معالجة مسائل النظرة المادية الى العالم وحسب الصيغة المعروفة لانجلز يجب على المادية ان تأخذ بعد كل اكتشاف عظيم في العلوم الطبيعية شكلا جديدا هذا يعني ان فهم القوانين والمقولات التي تعبر عن روابط وعلاقات الواقع الجوهرية ، يتعمق بصورة مستمرة ، وان المبادئ الراهنة للمعرفة تتحدد ، وان مبادئ جديدة تكتشف وتبرر الخ وفي سلسلة من الحالات تصبح مقولات العلوم المتفرقة مقولات عامة وتندمج في الفلسفة مثل مفاهيم « الاعلام و المنظومة و الوظيفة وبالتالي لا تغفل الفلسفة فقط في العلوم بل تصبح معارف العلوم المختلفة من محتوى الفلسفة حين ترتفع الى تعميمات تتضمن نظرة الى العالم

يتحقق التكامل والتمازج المتبادل لمجالات الوعي كما أسلفنا من خلال النشاط الفكري - العملي للبشر ان النشاط العلمي والايديولوجي والسياسي - الجماهيري ، بل وكل نظام التربية والتعليم في مجتمع ما يستهدف الحفاظ على التأثير المتبادل بين مجالات الوعي الاجتماعي وتحقيقه

مراجع الفصل الثالث

- ١ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية ص ٤٠٤ وما يليها
- ٢ - انتسيفيروفا مسائل العلاقات النفسية موسكو ١٩٦٦ ، ص ٤٤٩
- ٣ - نقطة انطلاق هذه النظرية هي الاطروحة التي تقول ان نمط الوجود الرئيسي لما هو نفسي يتجلى كنشاط ، عملية كاملة روبنشتاين الوجود والوعي الطبعة الخامسة ، برلين ١٩٦٨ ، ص ١٩٦
- ٤ - ليونتييف مشاكل تطور ما هو نفسي برلين ١٩٦٧ ، ص ١٨٥
- ٥ - نفس المرجع : ص ١٧٩
- ٦ - نفس المرجع ص ١٨٠
- ٧ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية ص ٣٦ ، هامش
- ٨ - لينين ما العمل المؤلفات ، الجزء الخامس ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٤٢٣
- ٩ - يمكن للمرء ان يعتبر العلم « نظاما مقعدا وديناميكيا للاعلام ، وضعه الانسان لاختيار وتحليل ونشر المعلومات لاكتشاف حقائق جديدة وامكانات استخدام تطبيقية جديدة » . دوبروف العلم . ص ٢٣
- ١٠ - بروكوب : المادية التاريخية . براغ ١٩٦٥ ، ص ٤٧٩
- ١١ - لينين : مهمسات روابط الشباب في المؤلفات ، الجزء ٢١ ، برلين ١٩٥٩ ص ٢٨٣ وما يليها
- ١٢ - نفس المرجع ص ٢٨٠
- ١٣ - ماركس : نقد فلسفة الحق لدى هيجل . مقدمة . الاعمال ، الجزء ١ ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٣٨٥
- ١٤ - شورايفيلوف اسس تطور الادراك الاجتماعي الشيوعي . روستوف ١٩٦٦ ، ص ١٣
- ١٥ - كيله بنية الادراك الاجتماعي موسكو ١٩٦٤ ، ص ١٧
- ١٦ - بارانوف حول بنية الادراك الاجتماعي فيستنيك ، ١٩٦٠ ، ص ٧٤
- ١٧ - بليخانوف : حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ . برلين ١٩٥٦ ، ص ١٩٠
- ١٨ - بليخانوف المفهوم المادي للتاريخ برلين ١٩٤٦ ، ص ١٧
- ١٩ - بليخانوف القضايا الرئيسية للماركسية برلين ١٩٥٨ ، ص ٨٤ .
- ٢٠ - بليخانوف نفس المرجع
- ٢١ - بليخانوف : حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ . ص ١٩٥ .
- ٢٢ - كاك : قضايا الادراك الاجتماعي ص ٩١
- ٢٣ - نفس المصدر
- ٢٤ - انجلز لودفيج فويرباخ ... ص ٢٩٨

- ٢٥ - بورشينييف التاريخ والسيكولوجيا الاجتماعية موسكو ١٩٦٦ ، ص ٦٢
- ٢٦ - لينين حول طبيعة وأهمية جدلنا مع الليبراليين الجزء ١٨ ، برلين ١٩٦٢ ص ١١٨
- ٢٧ - لينين : التطرف اليساري الجزء ١٣ ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٨٣
- ٢٨ - لينين حول دور ومهام النقابات الجزء ٣٢ ، برلين ١٩٦١ ، ص ٤٤
- ٢٩ - لينين خطاب حول الحرب الجزء ٢٥ ، برلين ١٩٦٠ ، ص ١٦
- ٣٠ - لينين تكتيكات الجزء ٩ ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٥٨
- ٣١ - لينين : الى العمال والجنود العمر في بتروغراد الاعمال ، الجزء ٣ ، برلين ١٩٦١ ، ص ٥٢
- ٣٢ - ماركس الثامن عشر من برومير ماركس - انجلز المؤلفات الجزء ٨ برلين ١٩٦٠ ، ص ١٣٩
- ٣٣ - سارسينيايف العادات والتقاليد والتطور المآ ٢٨ ، ١٩٦٥ ، ص ٨٤
- ٣٤ - ماركس رأس المال ، الجزء الثالث ، ص ٨٠٢
- ٣٥ - سارسينيايف العادات والتقاليد والتطور المآ ٢٨ - ٢٩ ، ١٩٦٥ ، ص ٨٤
- ٣٦ - كيله وكوفالسون أشكال الإدراك الاجتماعي ص ١١
- ٣٧ - كالك المرجع السابق
- ٣٨ - يادوف الايديولوجية كشكل للروح الاجتماعية لينينغراد ١٩٦١ ص ٢٠
- ٣٩ - فيتار الايديولوجيا فارصوفيا ١٩٦٦ ، ص ٩٦
- ٤٠ - لينين ما العمل ، ص ٢٨٦
- ٤١ - يادوف المرجع السابق
- ٤٥ - فيتار المرجع السابق
- ٤٣ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية ص ١٨ ، هامش
- ٤٤ - لينين التحريف السياسي ووجهة النظر الطبقة المؤلفات ، الجزء ٥ ، ص ٣٥
- ٤٥ - مجلة كومونيست ، ١٩٥٨ ، الدفتر ٧ ، ص ٢٢
- ٤٩ - لينين : ليو تولستوي كمرآة للثورة الروسية المؤلفات ، الجزء ١٥ ، ص ٢٠١
- ٥٠ - كولبانوفسكي اشكال الإدراك الاجتماعي ص ٢٢٦
- ٥١ - الكسيف القضايا الفكرية الراهنة للسيكولوجيا الاجتماعية موسكو ١٩٦٢ ص ٢٢

الفصل الرابع

أنماط الوعي الاجتماعي



١ - التناول التاريخي العياني وأنماط الوعي الاجتماعي

تحدثنا فيما سبق وبصور عامة عن أهمية التناول التاريخي - العياني لدراسة الوعي الاجتماعي مثل هذا التناول ضروري بسبب الحاجة الى دراسة القانونية المميز للوعي الاجتماعي وفي سبيل استخدامها عمليا في ظروف الاشتراك تملك معرفة القانونية المميز للوعي أهمية استثنائية لان الحاجة الى التوجيه الواعي لتطور الحياة الفكرية للمجتمع لا تقل بأي حال عن الحاجة الى توجيه التطور الاقتصادي والاجتماعي وسواهما من مناحي الحياة الاجتماعية

ويسمح التناول التاريخي - العياني لدى بحث القانونية الخاصة والمميزة للوعي الاجتماعي بترجمة المفاهيم العامة التي عالجتها الفلسفة الماركسية مثل الوعي الاجتماعي الايديولوجيا السيكلوجيا الاجتماعية ونوع الوعي الخ الى لغة الوقائع الاجتماعية العيانية والى حقائق للوعي تكون محتوى المفولات الفلسفية وهذه الترجمة ضرورية حتما لاجزاء دراسات ميدانية حول ظواهر الوعي. وفي الدراسات الميدانية سيتعامل الباحث مع التعبيرات المادية للوعي التي لا يمكن تطبيق المفاهيم الفلسفية عليها بصورة مباشرة ان المفاهيم السوسيولوجية واسعة جدا واستخدامها في الدراسات الميدانية صعب للغاية ولكن التناول التاريخي - العياني سمح لنا بوضعها في مستوى يمكننا من صياغة وتحقيق برامج للبحث الميداني أي في مستوى التعيينات العملية

وبملك التعيين العملي للوعي الاجتماعي وعناصره المكونة أهمية خاصة لدى بحث قوانين التطور الخاصة بالوعي الاجتماعي ولكنه مع ذلك ليس سوى الجانب الشكلي من الموضوع أي انه شرط فقط للدراسة نفسها الامر الجوهري الذي يجب علينا الوصول اليه هو كشف قوانين التطور الخاصة بالجانب الفكري من حياة المجتمع ، من خلال بحث الوعي

الاجتماعي وحسب الافكار ومنظومات الآراء الموجودة في مجتمع ما ، فانه لن يكون بوسع المرء حين لا ينصرف الى الوعي الجماهيري الواقعي ، ان يكون أي تصور حول الوعي الاجتماعي واتجاهات تطوره وعلى هذا بالضبط التناول للاقترب التاريخي - العياني لدى دراسة الحياة الفكرية للمجتمع

ويحتم التناول التاريخي - العياني دراسة المسائل الأكثر تخصصا ، والهامة في نفس الوقت وتكمن واحدة من هذه المسائل ، بالنسبة للمجتمع الاشتراكي في تفسير أسباب استمرارية مخلفات الماضي في وعي البشر ، واكتشاف طرق التغلب عليها وفي الظروف الراهنة غدا من الضروري ، لحل هذه المسألة معرفة ما كان يمثل وعي المجتمع القديم ، وماذا كانت عليه اوضاع الجماهير الاجتماعية ، وعاداتها وأعرافها وتقاليدها ، بل وكل بنيتها النفسية وعلى المرء ان يأخذ ما لا يزال موجودا من العالم القديم بعين الاعتبار وتأثيره على وعي البشر في الاشتراكية الذي يتجلى في الجملة القائلة « ان الاموات لا زالوا يمسكون بالاحياء » . ومن المهم أيضا تحليل جملة العلاقات السائدة في المجتمع الاشتراكي لمعرفة العلاقات التي تنتج افكارا وآراء جديدة ، وتلك التي تقطن الافكار القديمة. ويجب أيضا دراسة فاعلية النشاط الفكري - العملي في ترسيخ الوعي الاشتراكي وتجاوز بقايا انماط الوعي السابق للاشتراكية

يوجهنا التناول التاريخي - العياني اذن نحو بحث وعي مجتمع معطى وشرح بنيته وقوانين تطوره الخاصة ، أي نحو بحث نمط معين من الوعي الاجتماعي

وتعتبر طريقة انتاج السلع المادية أساسا للتفريق بين الانماط التاريخية للوعي الاجتماعي وتحدد طريقة الانتاج سائر جوانب الحياة الاجتماعية ، بما في ذلك الحياة الفكرية للمجتمع وهي التي تمنع الوعي الاجتماعي سماته المميزة من هنا تتطابق أنماط الانتاج المادي المعروفة تاريخيا مع أنماط معينة من الوعي الاجتماعي وبالنسبة للتشكيلات الاجتماعية الطبقية (مجتمع ملاك العبيد ، المجتمع الاقطاعي والمجتمع الرأسمالي) فانه سيكون غير كاف مراعاة الاساس العام فقط لتفريق أنماط الوعي الاجتماعي ، لان ذلك سيبرز أنماط الوعي السائدة فقط ، أي المنتجات الفكرية للطبقات السائدة اقتصاديا وسياسيا . ويجب على

الباحث ، عند دراسة وعي مثل هذه التشكيلات ، مراعاة الاساس الخاص الى جانب الاساس العام لتفريق أنماط الوعي ، وهو البنية الطبقيّة للمجتمع وهذا يسمح بكشف الخصائص العامة لوعي الطبقات المضطهدة والمضطهدة في عصور تاريخية مختلفة ، والوصول الى الاشكال العامة التي برزت ايدولوجيتها وسيكولوجيتها الاجتماعية فيها وفي نفس الوقت تحول مراعاة البنية الطبقيّة دون الصاق سمات وعي الطبقات السائدة الخاصة بوعي الطبقات المضطهدة

لا يكفي أن ندرس أنماط الوعي الاجتماعي في تبعيتها لأنماط انعكاس الواقع هذا ما يظهر من الطريقة التي يصف بها **شورافلوف** أنماط الوعي. فهو يرى الفروق بين وعي كل من المجتمعات ذات الطبقات المتناحرة في أن

« الوعي الاجتماعي لمجتمع ملاك العبيد كان ذا طبيعة ميثولوجية ، وكان وعي المرحلة الاقطاعية في علاقته بالعالم دينيا ، في حين كانت للوعسي السائد في المجتمع البرجوازي طبيعة صنية » (١)

عندما ينظر المرء الى الفروق في أنماط الوعي بهذه الطريقة ، فانه يؤكد العام في وعي المراحل المذكورة بأكثر مما يؤكد الخاص ، فالطبيعة الميثولوجية والدينية والصنية للانعكاس تصنع جميعا وعيا وهميا زائفا ، لا يمتاز في مرحلة ما عنه في أخرى الا بمظهره الخارجي فقط ان الصفات الخاصة لطريقة الانعكاس لا تسمح بفهم تلك الفروق في محتواها ، بل تظل مقتصرة على شكلها فقط لقد كان للوعي الديني في المجتمع الاقطاعي طابع ديني ، ولكن ذلك لا يعني ان هذا الوعي « كان دينيا في علاقته بالعالم فقد كانت المصالح الدنيوية للبشر ، وروابطهم الواقعية ببعضهم وحيال العالم ، تعبر عن نفسها من خلال الغلالة الدينية التي تغلف الوعي.

تتمايز الانماط التاريخية للوعي عن بعضها بحسب المحتوى والبنية وخصوصيات التطور وغيرها من السمات ويوجد بين وعي مجتمع ملاك العبيد والمجتمع الاقطاعي والراسمالي فروق في المحتوى وبما ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج قد شكلت الاساس لهذه المجتمعات ، فانه يوجد في محتوى أنماط الوعي التابعة أشياء كثيرة مشتركة ونحن سنعتبرها، لهذا السبب ، نمطا خاصا للوعي بالقياس الى وعي المجتمع الاول ، او المجتمع الشيوعي

رأينا فيما سبق ان ليونتييف يعلل ، لدى دراسة السيكلولوجيا

الاجتماعية مدا التناول التاريخي بصورة مقنعة وهو يستخدم لدى كشف محتوى الوعي وبدرجة كبيرة مفهوم المعنى الذي يصف به الروابط والعلاقات الموجودة موضوعيا في الاشياء والظواهر « فالمعاني هي الشكل الفكري لتمحور التجربة الاجتماعية ، وللممارسة البشرية وهي تشكل لهذا السبب محتوى الوعي الاجتماعي (٢) الذي لا يلبث الوعي الفردي بدوره ان يأخذ به فيما بعد و المعاني هي بالنسبة للفرد الانعكاسات المعقدة للواقع التي صنعتها البشرية ، والتي ترسخت في شكل مفاهيم ومعارف ومبادئ سلوكية

ويستند ليونتييف الى التصريحات المعروفة لماركس وانجلز حول ان انتاج الوعي كان بالاصل مندمجا مباشرة بالنشاط المادي للبشر وبعلاقاتهم، ليمر في وعي المجتمع الاول البدائي (ابان مراحل تطوره المبكرة ، ثلاث خصائص او سمات تكمن **أولاهها** في ان مجال المعاني اللغوية لتلك الفترة كان يوجد الى جانب المجال الاكثر اتساعا للاحاسيس الغريزية والسيولوجية ههنا كما كانت لا تزال توجد الى جانب روابط البشر الاجتماعية مع الطبيعة علاقات غريزية كثيرة. ويرى ليونتييف **الخاصة الثانية** في انه حتى **المجال** الضيق لما صير الى وعيه لم يكن قد تم وعيه بشكل كامل بعد (٣) في المرحلة المبكرة من التاريخ البشري **الخاصة الثالثة** فهي ان البشر « لم يكونوا يعون روابطهم مع الجماعة (٣)

مع تطور نظام المجتمع البدائي تغير - ايضا - محتوى وعيه فنعكست المعاني اللغوية التي تشكلت خلال العمل ، روابط البشر مع الطبيعة وفيما بينهم ومع ذلك فقد بقيت خصوصية وعي المجتمع البدائي كنمط خاص للوعي مستمرة طوال تاريخ هذا المجتمع فجعلت الملكية العامة روابط البشر مع أدوات ومنتجات الانتاج متماثلة لذا انعكست هذه الروابط بصورة متماثلة ايضا في وعي الجماعة ووعي الفرد وكان لنتاج العمل المشترك معنى مشتركا بالنسبة للجماعة ككل ، ولكل عضو فيها ومن هنا فان نظام المعاني اللغوية ، الذي تجسد فيه مدلول الظواهر بصورة موضوعية - تاريخية وشكل وعي الجماعة كان هو نفسه ايضا شكل الوعي الفردي للظواهر ، وتماثل مدلول الظاهرة التي تمت معرفتها من قبل الفرد مع مدلولها بالنسبة للجماعة ككل هو الذي ترسخ في معان لغوية هذا التوافق بين المدلول والمعنى هو اهم صفات الوعي البدائي ، كما يكتب ليونتييف

أفسح التمايز المفقود بين المعنى والمدلول في الوعي المكان لبنية وعي جديد بقدر ما تهاوى المجتمع البدائي وهذه البنية الجديدة للوعي مميزة بعلاقات أخرى لمحتويات المعاني والمدلولات المكونة أساسا للوعي ويصف ليونتييف هذه البنية بأنها غير مدمجة (٣) وهو يتابع كيف ينتج التقسيم الاجتماعي للعمل والملكية الخاصة لوسائل الانتاج علاقات غريبة بين مدلول ومعنى النشاط الشري مع الفصل بين المنتج ووسائل الانتاج ، مع هذا الاغتراب الذي ظهر في أشكال كثيره اقلع نشاط البشر عن أن يكون بالنسبة لهم ما هو في الواقع فعلا و «نتيجة» لاغتراب الحياة الشرية نقطع النتاج الموضوعي للنشاط الشري عن يتطابق مع بواعثه وبكلمات أخرى ان المحتوى الموضوعي للنشاط لم يعد متوافق مع محتواه السلبي أي مع ما يعنيه النشاط للناس

للانسان (٣)

هنا تثبت واحدة من أكثر خصائص الوعي في المجموعات الطبقية التناحرية أهمية وفي الواقع فان العامل يخلق مثلا في ظروف الرأسمالية من خلال عمله قيما معينة ويستطيع ان يعرف على الأهمية الاجتماعية لما أنتجه بيد ان ظروف الحياة مرتبطة بطريقه لا تمكن معها من الانتاج ارضاء لحاجات اجتماعية بل هو ينتج في سبيل أحر العمل فحسب فالاجر هو بالنسبة له الدافع الذي يدفعه الى العمل والذي يحدد لفعاليته العملية مدلولها ان المعنى الاجتماعي لنتاج عمله غريب عن المعنى الذي يملكه هذا النتاج بالنسبة له نفس هذا الاغتراب يميز وعي البرجوازي الذي ستنفذ الانتاج بالنسبة له معناه في حني الر متعارضا بذلك مع المدلول الموضوعي للمنتجات الذي تحدد بارضا حاجات الشعب

نتج سيطرته علاقات الملكية الخاصة في المجتمع انفسا في الفعالية الخاصة للشر وفي عالم الأشياء المحيطة بها وهي تسج ايضا تمزق الوعي هذه العلاقات تتوضع أيضا في الوعي البشري وبعبء ذلك عن نفسه من الناحية النفسية في انفصام بيته العامة ويفترب المعنى والمدلول اللذين يعرض فيهما الانسان عالمه وحياته الخاصة عن بعضهما (٣)

هذه الخاصة تنطبق مل كل شيء على الوعي الاجتماعي ومدلول ظواهر العالم يتجسد في معان تكون محتوى الوعي الاجتماعي ولكن

الانسان الفرد يجب ان يعكس الواقع من خلال مؤشر الدولات - المعارف،
والتصورات ، والمبادئ ، والمعايير ، والقيم الخ الموضوعة اجتماعيا
وهو يتبنى بالضرورة محتوى الوعي الاجتماعي في المجتمع الطبقي تعتبر
الايدولوجية السائدة هي ايدولوجية الطبقات السائدة ، وهذه تبناها
الجماهيم بصورة رئيسية غير ان ايدولوجية الطبقات المستغلة السائدة
تمثل وعيا زائفا والدولوات التي تضع محتوى ايدولوجية الطبقات
المستغلة غريبة عن المعنى الواقعي للروابط الاجتماعية الموجودة يعبر
ذلك عن نفسه بأوضح الصور في عدم تطابق التصورات والآراء
الايدولوجية التي تنشرها الطبقات المستغلة في صفوف الكادحين مع
المصالح الموضوعية لهؤلاء ويدعي الايدولوجيون البرجوازيون ان مفاهيم
الحرية و المساواة و الديمقراطية تتضمن اسمى القيم وتعتبر
عن مصالح المجتمع بأسرد ولكن محتوياتها تتوافق في الواقع مع مصالح
الطبقة السائدة دون سواها فتتخلص الحرية عمليا الى حرية رجل
الاعمال وتمسخ المساواة الى مجرد مساواة صورية امام القانون
وتصبح الديمقراطية مجرد شكل للسيطرة السياسية للبرجوازية

ان ازاحة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتحرير الفعلي للعمل
يؤديان الى اعادة اندماج « وعي البشر ، والى بروز نمط جديد من الوعي
وبنية وعي مطابقة له في هذا النمط الجديد من الوعي يتم تجاوز
التفكك والتناقض بين محتوى النشاط الموضوعي ومعنى هذا النشاط
بالنسبة للانسان وبالنسبة للعامل في المصنع الاشتراكي يتوافق النتاج
الموضوعي لفعاليته مع بواعثه لان العامل ينتج لنفسه وللمجتمع بأسره
ويتلقى العمل في الوعي الاجتماعي (ووعي الفرد على السواء) معنى جديدا
نوعيا ، وهو (العمل) يبدأ بالتطابق مع محتواه الموضوعي ومن خلال
ذلك تنشأ في الوعي علاقة جديدة بين المدلول الموضوعي للعمل ومعناه
بالنسبة للفرد

« وتميز البنية المتغيرة للوعي قبل كل شيء بهذه العلاقة الجديدة
بين المعنى والمدلول ، دون أن يعني ذلك العودة الى تطابق بسيط
ان الوعي البشري ينمجم مجددا في بنيته » (٣) .

تمكننا دراسة ليونتييف السوسيولوجية للوعي التي تشمل محتواه
وبنيته من أن نفهم فهما ماديا معمقا اطروحة هيفل حول تطور الوعي من
وضع الوحدة ، الى التمزق الى وحدة جديدة لجوانبه المختلفة . في

أدبياتنا تفسر هذه الأطروحة عادة على صعيد تحليل أشكال (أو أنواع الوعي فيقال مثلا ان وعي المجتمع البدائي لم يكن متميزا الى أشكال مختلفة وان الوعي يتحررا في المجتمع الطمعي الى اشكال معرولة عن بعضها ليتوحد في الاشتراكية من جديد

في الواقع يحدث داخل المجتمع الطمعي على اساس تنوع الروابط الاجتماعية ومع ترسخ الانتاج الفكري كفرع خاص للعمل انقسام للوعي الاجتماعي الى انواع مختلفة ولكنه من غير الصحيح ان هذا الانفصال مميز لعلاقاتها المتبادلة فالتصورات والنظرات السياسية والقانونية والاخلاقية والفلسفية . الخ التي تكون بمحملها ايدولوجية طبقات معينة تترايط دوما مع بعضها ونسنع ترابطها من الحاجة الموضوعية للدفاع عن المصالح الطبقية وتريرها ومن الضروري ان يوجد في نفس النوع من الوعي محتوى فكريا ماسا بساين المصالح الطبقية المختلفة وهذا سيؤدي ملا الى تعارض النظرات السياسية لطقة ما مع نظرات سواها من الطبقات ويمكن للمرء ان يقول بهذا المعنى ان نوع الوعي السياسي لطقة ما يقرب من نفس نوع الوعي السياسي لطقة اخرى غير ان هذه الروابط خارجية لا تعبر عن جوهر تمزق الوعي في المجتمع التناحري الذي يكمن في ان التسميم الطمعي للمجتمع قد مزق الوعي الاجتماعي الى وعي طبقات مختلفة وترسخ ازدواجية محتوى الوعي الى محتوى موضوعي وآخر زائف من خلال مصالح الطبقات المستغلة اما بخصوص انواع الوعي في ارتباطها مع تفسير خصوصية انماطه المختلفة فان السؤال عن الاساس الموضوعي الذي تظهر فوقه ويمنحها خصوصيتها يكتسب اهمية من الدرجة الاولى وقد اسار ماركس وانجلز الى هذه النقطة بالضبط

« ان تاريخ كل المجتمعات السابقة قد تحسرك داخل تناقضات اجتماعية اتخذت في العصور المختلفة صيفا مختلفة وبفض النظر عن الشكل الذي اتخذته فان استغلال جزء من المجتمع بواسطة جزء آخر هو الحقيقة المشتركة لسائر القرون الماضية ليس مستغربا اذن ان الوعي الاجتماعي لكل القرون ، بالرغم من كل التنوع والاختلاف ، قد تحرك في صيغ مشتركة معينة ، في اشكال وعي لن تحل تماما الا بالاختفاء الكامل للتناقض الاجتماعي » (٤)

ان المجمع الطبقي سيخلي مكانه لمجمع غير طبقي وسيكون نمط وعي جديد بنية مطابقة . فما هي خصائص هذا النمط من الوعي ؟ قبل

الاجابة على هذا السؤال ، سنقول بضع كلمات اخرى في وصفه

ستمر التشكيلة الاجتماعية الشيوعية في طورها بمرحلتين الاشتراكية والشيوعية بالتوافق مع ذلك نتحدث عن الوعي الاشتراكي الذي ينشأ في ظروف الرأسمالية ويتطور مع البناء الاشتراكي ، كما نتحدث عن الوعي الشيوعي الذي يترسخ مع انتقال المجتمع الى مرحلته العليا مثل هذا التقسيم للوعي الى نوعين يبدو مع ذلك غير صحيح تماما من المحق أن نسمي النظام الاقتصادي الذي يقوم على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ولم يتطور بعد بصورة كافية بالنسبة للنظام الشيوعي الكامل اشتراكية ولكن عند وصف الوعي ، فان الوضع يصبح اكثر تعقيدا

ان الوعي لا يعكس الحاضر فقط بل هو يتنبأ على اساسه بالمستقبل ويتضمن حتما تصورات حول المثل والاهداف والمهام والمعايير السلوكية التي تتطابق ومرحلة التطور الاعلى لهذا السبب اعتبر كلاسيكيا الماركسية الوعي المتكون للبروليتاريا والمتعارض مع تصورات ونظرات البرجوازية ، وعيا شيوعيا (٥) وتقسيم الوعي الجماهيري الى وعي اشتراكي وشيوعي يقتضي تقسيم الايدولوجية الماركسية - اللينينية الى اشتراكية وشيوعية ، وهذا ليس ممكنا وليس من قبيل الصدف اننا نعتبر المحتوى نفسه ايدولوجية اشتراكية مرة وشيوعية مرة اخرى

٢ - الوعي الاشتراكي كنمط خاص للوعي الاجتماعي

تتمثل الصفة سوعية المميز لوعي المجمع الاشتراكي في انه يعبر
الوحد الاحمائي بافكار ونظرات ومثاعر وامزجة تشترك فيها سائر
طبقات وفئات المجمع وتتحلى هذه الصفة بأوضح الصور حين يقارن
المرء المجمع الاسراكي مع المجمعات الطبقية التناحرية حيث تملك كل
طبعة اندىواوحيبا وسيكولوحيبا الخاصة وسمان محسوى وعي
لطبقات رئيسية لهذه المجمعات سبب تضارب مصالحها فيتفتت
وعي المجمع الى انواع من الوعي الطبقي الممان برغم ان وعي الطبقة
السائد مدعي انه يمثل وعي المجتمع بأسره

ويتمثل الوعي الاحمائي في الرأسمالية وعي الرجوازية بالدرجة
الاولى صحيح ان لكل طبقة وعيها الخاص ولكن الرجوازية تنجح
بفضل امتلاكها اوسائل الانماج الفكري والمادي في فرض افكارها
ونظراتها وامزجتها وآرائها على المجتمع وهذا امر تتعزز عبر مجمل نظام
العلاقات الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج

يعبر وعي الرجوازية السائد في الرأسمالية تعبيرا حيا عن الطبيعة
الطبقية سوعية الاجتماعية وتعكس الاخلاق الرجوازية والسياسة
الحقوق الفلسفة وسواها من انواع الوعي الرجوازي الواقع من وجهة
نظر الصفة المسعلة وهي تدافع عن الملكية الخاصة لوسائل الانماج
اسكار الاضطهاد الاجتماعي والقومي ومحمل نظام العلاقات
حماية الرأسمالية وتتعارض وعي الرجوازية بالطبع مع وعي الطبقة
عاملة ونذر الصراع فيما بينهما بدوره على الطبيعة الطبقة للوعي
الاجتماعي في سمية

وعني انصار الاشتراكية اقامة علاقات اشتراكية في مجالات الحياه
تصادية والاجتماعية والسياسية وسواها فيصل وعي الطبقة العاملة
الى مرتبة قيادة داخل الوعي الاجتماعي ولا تلقي الوحدة الاجتماعية -
السياسية والفكرية للمجتمع الاشتراكي مسألة الطبيعة الطبقة للوعي

الاجتماعي ، الذي يعكس الواقع من مواقع الطبقة العاملة بوصفها اكثر طبقات المجتمع تقدما ويعكس في نفس الوقت الوجود الاجتماعي ايضا من منظورات الفلاحين التعاونيين والمثقفين الكادحين هؤلاء الذين تتوافق مصالحهم الجوهرية مع مصالح الطبقة العاملة والطبيعة الطبقية للوعي الاجتماعي لا تعبر عن نفسها ، في الاشتراكية ، بتعارض وعي الطبقة العاملة مع وعي الفلاحين التعاونيين والمثقفين بل بتعارضه مع **مخلفات الماضي** في وعي البشر ومع الوعي البرجوازي الذي يمثل العالم القديم ان الوعي الاجتماعي للمجتمع الاشتراكي متحد طبقيا بمعنى انه يعبر عن الاشتراكية ، ويدافع عنها كنظام اجتماعي هو من صنع الطبقة العاملة ، ويتعارض مع نظام الرأسمالية وتجسده البرجوازي

والوعي الاشتراكي هو وعي لكل الطبقات والفئات وعي شعبي عام وهذه هي صفته النوعية المميزة وهو يتصف بانفتاحه المتزايد من الاحكام المسبقة والاهام والاطفاء التي تميز وعي سائر المراحل التاريخية المنصرف للمجتمع البشري وتخلق الاشتراكية ظروفا للنشاط البشري تجعل الروابط بين البشر تتخذ شكلا واضحا ومفتوحا هنا في الاشتراكية ، تنتفي الارضية التي تعيش عليها الصنمية (الفتشية السلبية والحقوقية والدينية وغيرها

مع تحرره من الاهام والاطفاء وتبنيه للافكار والتصورات التقدمية التي تلازم الاشتراكية يتلقى الوعي الاجتماعي نوعية جديدة في الماضي كان محتما ان ينطبع الوعي بطابع افكار ومشاعر النزعة الفردية، والانانية الطبقية والقومية المتزمتة التي ينتجها نظام الملكية الخاصة بتدميرها للعلاقات الشرية وتغذيتها للشك المتبادل بين الناس اما في الاشتراكية فان الوعي يتميز بصفات مثل النزعة الجماعية والوطنية والاممية والانسانية وهذه السمات تكون جوهر المحتوى الجديد نوعيا للوعي

وتبرز نوعية الوعي الجديدة في نظرة الشعب الى الملكية العامة والدولة كقيم ايجابية وفي الاحترام الذي يلقاه الانسان العامل في الماضي لم تكن للجماهير الكادحة علاقة ايجابية بالدولة ، لانها كانت في سائر مجتمعات التناحر الطبقي اداة لاضطهاد واستغلال الجماهير في مجريات الثورة الاشتراكية تخلق الطبقة العاملة دولة جديدة وتستخدمها كأكثر الادوات اهمية في بناء الاشتراكية وهي تعي ان انتصار النظام

الحديد ليس ممكنا دور هذه الدولة والاسهام الفعال لسائر الكادحين في قيادتها ودون انخراطهم في نشاطها

هذا التحول في الموقف من الدولة كان واحدة من أولى واهم التغيرات في الوعي الاجتماعي للمجتمع الحديد المتطور

وفي الوعي الاجتماعي للعصور الماضية لم يكن هناك علاقة ايجابية بالعمل فقد كان العمل في مجال الانتاج المادي يعد امرا ذميمة وفرضت انضباطية العمل بالجوع والاكراه لقد ترك الموقف السلبي من العمل غير الحر خلال التشكيلات الاجتماعية الثلاث - العبودية والاقطاعية والراسمالية - آثارا عميقة في وعي الجماهير وسيكولوجيتها المترسخة في عادات وأعراف وتقاليد والثورة الاشتراكية تزيل هذا الموقف السلبي حيال العمل ويأخذ المرء في مجتمع الاشتراكية بالعمل لنفسه ولمجتمعه. والفارق بين الموقفين من العمل ينعكس في الوعي فارقا نوعيا يميز الوعي الاشتراكي عن وعي العصور السابقة ان الوعي الحديد يصح مصدرا للنشاط الخلاق للجماهير

وهناك دراسات سوسيولوجية ميدانية كثيرة حول علاقة الانسان بالعمل وموقفه منه . ونود هنا أن نسوق مثالا معبرا حول دراسة جرت في مصانع لينينغراد بقصد معرفة موقف العمال من العمل وقد كانت الاجوبة على الشكل التالي ، مع العلم بان الدراسة شملت ٢٦٦٥ عاملا

- ١ - يكون العمل الجيد ، حيث يكون المرء مفيدا (اجابة ٦١٧ عاملا)
 - ٢ - لا يجوز أن ننسى الاجر ، ولكن المعنى الرئيسي للعمل يكمن في فائدته الاجتماعية (اجابة ٨٣٠ عاملا)
 - ٣ - الاجر هو الشيء الرئيسي ، ولكنه يجب على المرء ان يفكر بغاية عمله (اجابة ٨١٩ عاملا)
 - ٤ - كل عمل جيد ، حين يكون اجره جيدا (اجابة ٣٩٩ عاملا)
- ان الاجابات هي خير دليل على الوعي الجديد الذي تخلفه الاشتراكية حيال العمل .

وتفتح الاشتراكية مجالات واسعة لتطبيق قانون تعبير العمل الذي يدعم رابطة العمل الفكري والجسدي في النشاط الشري ويسمح بتطوير شامل للشخصية وهذا يؤدي الى نمو الدوافع الاخلاقية والفكرية حيال العمل وزيادة عناصر الابداع العلمي - التقي فيه . وفي نفس

الوقت يزيد تأثير قانون تغيير العمل المتطلبات المطروحة على محتوى وطبيعة العمل وتنظيمه

مع تغير العلاقة بالعمل بصفته التزام اجتماعي لاجزاء المجتمع سغير أيضا سلوك الشر حيال الملكية الاجتماعية فلا ينظر إليها كمجرد ثروة « للدولة غريبة عنا بل هي تصبح ملكيتنا ملكية الكادحين أنفسهم وكل اعتداء على الملكية العامة يصبح بالنسبة للوعي الاجتماعي اعتداء على المجتمع نفسه

ان التغير يصيب العمل والملكية العامة والدولة في جوهرها الاجتماعي ويجعلها تبدو في الوعي كقيم ايجابية وهذا يعني ان الوعي الاجتماعي قد اكتسب حفا نوعية جديدة

وتعتبر مرحلة الثورة الاشتراكية بأكملها مرحلة تربية ذاتية للمجتمع، ولتنظيفه من أحوال العالم القديم وترتبط التربية الذاتية عضويا مع تربية الجماهير بواسطة الطليعة المنظمة من الطبقة العاملة اي الحزب فدون عمل الحزب الايديولوجي الذي يتحقق من خلال الدولة ومنظماتها وأجهزتها يصبح من غير الممكن احداث التغير الجذري في حياة المجتمع الفكرية ويكمن دور الحزب في وضع الايديولوجيا العلمية التي تعتبر جوهر الوعي الاجتماعي وفي نقلها الى عقول الجماهير الشعبية

ويتكون الوعي للحديد في صراع حاد ضد الايديولوجيا والسيكولوجيا البرجوازية والبرجوازية الصغيرة وقد اشار لينين مرات عديدة الى تعقيد وصعوبة النضال لتغيير سيكولوجية ملايين البشر

« ان عادات النظام الرأسمالي قوية جدا واعادة تربية الشعب ، الذي دبر مئات السنين بهذه العادات ، هي عمل صعب يتطلب وقتا طويلا » (٦)

وتمتاز بصعوبة خاصة تربية الجماهير بروح العمل الاشتراكي ، وخلق موقف صحيح لديها حيال الملكية الاجتماعية

« ان خلق انضباطية جديدة للعمل ، وأشكال جديدة للارتباط الاجتماعي بين البشر ، وطرق جديدة لتقريب البشر من العمل ، هو مهمة تستغرق سنوات وعقودا » (٧)

٣ - بنية الوعي في المجتمع الاشتراكي

الوعي في المجتمع الاشتراكي هو تكوين فكري متماسك الاجزاء لا يمكن أن نفرز بداخله وعي الطبقات كتكوين بيوي خاص لان مصالحها مماثلة ولان وحدد فكرية واحماعية - سياسية تنشأ فيما بينها ان التكوين البيوي الخاص في الوعي الاحماعي هو وعي الجماعات الاشتراكية

يمثل المجتمع الاشتراكي منظومة من الجماعات تدور فيها حياة الانسان الفرد هذه الجماعات مختلفة التركيب تنفذ وظائف مختلفة وتملك افكارها وامزحتها وتقاليدها وتحدد عالمها الفكري من خلال الظروف العامة لحياة المجتمع ولذا يحد الوعي الاجتماعي تعبيره فيها غير ان الوعي يتوسع في كل جماعة بسوع الشروط الخاصة التي تعيشها. والتي تمنحها صفاتها الخاصة

يتحرر الوعي في المجتمع الاشتراكي من الاحكام المسقة والاورهام والاطفاء التي كانت لصيقة بسائر انماط الوعي في العصور الماضية وهذا ينعكس في بنيته وبشكل خاص في ان بعض انواع الوعي السابقة لا توجد فيه اما التغير المميز الذي يصيب بنية الوعي الاجتماعي فيمكن في ان سائر انواعه تأخذ بتحقيق وظائف معرفية وتشتمل بالتالي العلوم المطابقة لكل فرع من المعرفة فالوعي السياسي والحقوقى شسملان على علم الدولة والحقوق والوعي الاخلاقي على علم الاخلاق والفن على علم الجمال الح في الماضي اقتصرت انواع الوعي على تحقيق مهمة ايدولوجية بالدرجة الاولى ولم تتضمن العلم

ويعبر تعبير بنية الوعي الاجتماعي في الاشتراكية عن نفسه ايضا في التبدل الذي يصيب الرابطة المتبادلة بين الوعي العلمي - النظري والوعي اليومي في وعي المجتمع الاشتراكي يرجع الوعي العلمي - النظري بينما كان الوعي اليومي هو السائد في وعي التشكيلات الاجتماعية السابقة. وهذا يفسر بأن أغلبية الجماهير الكادحة كانت في الماضي غير معلمة .

ولم يكن بوسعها بالتالي أن تشترك في المعارف النظرية للمجتمع وكانت النظريات الفلسفية والسياسية وسواها من المنظومات الفكرية بعيدة عنها ، ومن الصعب عليها تمثلها لبعدها عن المعارف العلمية ، التي كانت امتيازاً مقصوراً على الأقلية المميزة اجتماعياً حتى في هذه الأيام يعيش في العالم الرأسمالي ملايين الناس دون تعليم وتلق في وجوههم مسالك الحصول على المعارف النظرية والعلمية بعكس ذلك تستهدف **الثورة الثقافية** ، التي تجري في البلدان الاشتراكية التربية الجذرية للشعب واكتساب الشعب للمعارف العلمية والقيم الفكرية للمجتمع

أن بناء وتوطيد الاشتراكية هو في نفس الوقت بداية الانتقال الى الشيوعية فالاشتراكية تتطور بالضرورة الى الشيوعية ويترتب على ذلك تطور وعي المجتمع الاشتراكي الى وعي للمجتمع الشيوعي وهو ما يحدث تغيراً آخر في بنيته فتطور الوعي الاشتراكي يمكن أن يتحقق فقط على أساس إقامة الوجود الشيوعي خلال صراع حاد وحاسم ضد بقايا القديم في وعي البشر وضد الايديولوجية البرجوازية الراهنة أن التغيرات التي تحدث في الوعي الاجتماعي تسمح بتمييز وعي المرحلة الثانية ، الشيوعية عن وعي المرحلة الاشتراكية الاولى وستمتد الفروق بين نمطي الوعي الى المحتويات أيضاً لذا يجب الانصراف الى شرحها وتفسيرها وللأسف فإنه يتم غالباً اللجوء الى أكثر الطرق بساطة ، دون أن يكون الطريق الصحيح أن مبادئ الاشتراكية توسع لتشمل الشيوعية أيضاً ثم يشرح كيف ستصبح في مستقبل الأيام يقول ستيبانيان مثلاً

« أن الوعي الاشتراكي للجماعات ، الذي تطور في صراع حنيف بين الاشتراكية الصاعدة والرأسمالية المحتضرة ، يتطلب إخضاع المصالح الشخصية للمصالح الاجتماعية وهذا يتحقق باستخدام أساليب الاقتناع والاكراه أيضاً في حين يقوم الشيوعي الشيوعي على ارتباط متناسق للمصالح الشخصية والاجتماعية » (٨)

أن ستيبانيان لا ينتبه الى أن الارتباط المتناسق للمصالح الشخصية والاجتماعية (وليس إخضاع واحدة منها للآخرى) هي المبدأ السائد في الاشتراكية أيضاً أما عملية الإخضاع ، فهي لا تحدث الا عندما ينشأ تضارب بين المصالح الشخصية والاجتماعية ومثل هذا التضارب يمكن أن ينشأ في الشيوعية أيضاً

لكشف الفروق بين وعي المجتمع الاشتراكي ووعي المجتمع الشيوعي

يجب علينا ان ندرس تلك التغيرات العميقة في وعي البشر التي تحدث خلال بقاء الشيوعية وان نعلمها في الوقت الراهن تعمل الاشتراكية من اجل خلق نظرة علمية الى العالم لدى مواطنيها في هذه العملية يجب على كل انسان ان يحصل على معارف كافية في مجال الماركسية - اللينينية وفي المجالات العلمية وعليه ان يرفع أيضا مستواه الثقافي العام كيف يؤثر حل هذه المهمة على بنية الوعي الاجتماعي ؟ الا يعني ذلك ان الوعي النظري يغدو قياديا في حياة البشر وان الوعي اليومي يختفي ؟ ثمة من يقول بوجهة النظر هذه وعلى كل حال فان مهمة تقريب الوعي النظري والوعي اليومي من بعضهما تطرح كمهمة واقعية ولكنه ليس من الممكن ان نحاول رفع الوعي اليومي الى سوية الوعي النظري وان نتجاوز الوعي الاول بهذه الطريقة. الشيء الهام هو ان يعكس الوعي النظري الواقع من حيث جوهره بينما يعكس الوعي اليومي الظواهر ، ويعرضها كما تبدو للعين غير المدربة ولن تنتهي في يوم من الايام حاجة البشر الى تركيز اهتمامهم على الظواهر على الروابط المباشرة التي يتعاملون من خلالها مع الواقع اليومي والى كشف جوهر الاشياء أيضا وفي الاشتراكية تعبر الحاحات اليومية للشر وشروط حياتهم المباشرة عن نفسها في الوعي اليومي هذا النوع من الوعي يرتبط بصورة ترداد وثوقا مع الوعي النظري وهو يؤثر عليه ولكنه لا يمتصه وهذا لن يحدث في المستقبل أيضا لان التوغل الى جوهر الاشياء يشترط بالضرورة انعكاسها من الجانب الخارجي للظاهرة ومن حانب التصورات المكتسبة في الحياة اليومية ومع ذلك فان العلاقة المتبادلة بين الوعي النظري واليومي ستتغير لمصلحة الاول

يمثل الوعي اليومي مجالا للعلم وبصورة رئيسية أيضا مجالا للايديولوجيا وبخصوص العلم ثمة توافق في الآراء حول تطوره الشامل وأهميته المتعاظمة في الوعي الاجتماعي للشيوعية اما مستقبل الايديولوجيا فهناك خلافات في الراي حوله

في المجتمع الطبقي تعتبر الايديولوجيا وعيا طبقيًا وبما انه لا يوجد في الشيوعية طبقات فان الايديولوجيا نفسها ستتلاشى نحن لا نوافق على هذا الراي فاختفاء الطبقات والمصالح الطبقية لا يعني اختفاء المصالح عموما ان مصالح المجتمع ستبقى وستبقى معها الحاجة الى صياغتها والتعبير عنها والى تبرير الاساليب والطرق لتحقيقها وشرح مثل البشر ومعنى حياتهم في كل مرحلة من التطور التاريخي

وهذه مهمات ستقوم بها الايديولوجيا التي ستفقد شكلها التاريخي وطبيعتها الطبيعية للذين لازماها خلال عدة آلاف من السنين انها ستفقد ارتباطها الطبقي لتكتسب بدلا منه ارتباطا انسانيا عاما ولكنها ستحافظ على خصوصيتها كوعي ذاتي للمجتمع ان العلم يعكس الواقع ويصوغ القوانين ولكنه لا يطرح مهمات ولا يبرر المثل والاهداف وهذا ما تفعله الايديولوجيا بالاستناد الى العلم والى القوانين التي يكتشفها ان العلم والايديولوجيا هما وعي او بالاحرى الوعي الذاتي للمجتمع الذي لا يمكن أن يستغني عنهما في انة مرحلة من تطوره التاريخي

ما هي التغيرات التي سصيب أنواع الوعي المعروفة للمجتمع الاشتراكي ؟ في المؤلفات التي تدرس آفاق تغير الوعي الاجتماعي تقسم أنواع الوعي في العادة الى ثلاث فئات مختلفة المصير وتكون المجموعة الاولى من العلم (وهو يعتبر غالبا شكلا خاصا للوعي وليس مجالا خاصا له والفلسفة والفن والاخلاق هذه الانواع لا تتلاشى في سياق التطور نحو الشيوعية بل هي تتطور تطورا شاملا وينتسب الى الفئة الثانية الوعي السياسي والحقوقي وبما انه لا يوجد في الشيوعية سياسة وحقوق فان التكوينات المرتبطة بهما كالوعي السياسي والحقوقي ستتلاشى اما الفئة الثالثة فتتكون من أنواع الوعي الزائف التي ستختفي تماما بوصفها من مخلفات الماضي مع انتصار الشيوعية

هذا التصور حول تغير أنواع الوعي الاجتماعي صحيح بصورة عامة ولكنه ليس مرض لانه يترك انطبعا بأن محتوى وأشكال تعبير وعي المجتمع الشيوعي ستكون افقر منها في العصور السابقة ان معرفة مصير أنواع الوعي الاجتماعي تتطلب دراسة من نوع آخر ونحن على ثقة من ان وعي المجتمع الشيوعي لن يكون اكثر فقرا من وعي العصور السابقة، بل سيكون بعكس ذلك اكثر غنى وتنوعا وأغنى محتوى

ان غنى وتنوع وامتلاء محتوى الوعي الاجتماعي للشيوعية ستحدد بغنى وتنوع الروابط الاجتماعية للبشر ان تاريخ البشر الاصلي بدا مع الشيوعية فبعد أن كانت جهود البشر تنصب على تأمين السلع المادية الضرورية للحياة وكانت الحياة الفكرية للبشر لا تمثل بالنسبة للمجتمع هدفا بذاته ، يصبح ، في الشيوعية ، ليس فقط تطوير الحياة المادية ، بل والفكرية أيضا شرطا لا بد منه مع ان الانتاج المادي لا ينقطع عن ان يكون اساس المجتمع والحال ، ان هدف الشيوعية الرئيسي هو التطوير الشامل للحياة الفكرية للبشر وهذا يشترط التطوير الشامل للشخصية.

مراجع الفصل الرابع

- شورافلوف المرجع السابق
- ليوسيف مسائل تطور ما هو نفسي ص ١٨٦
- ٢ - نفس المرجع
- ٤ - ماركس - انجلز البيان الشيوعي ، المؤلفات ، الجزء ٤ ، برلين ١٩٥٩ ص ٤٨٠
- ٥ - ماركس - انجلز الايديولوجية الالمانية ص ٧٠
- ٦ - لينين تقرير مجلس مفوضي الشعب الاعمال الكاملة ، الجزء ٢٧ برلين ١٩٦٠ ص ٥١٧
- ٧ - لينين من تحطيم نظام عمره مئات السنين الى خلق نظام جديد . الاعمال الجزء ٢٠ برلين ١٩٦١ ، ص ٥١١
- ٨ - سيبانيان : مسائل فلسفية . ١٩٦٤ ، الدخر ٤ ، ص ٦٦ .

الفصل الخامس

اوضاع الوعي الاجتماعي

من الضروري دراسة الوعي الاجتماعي على صعيد اوضاعه المشخصة، لتأثيره على حياة البشر ككل موحد ، وليس بحسب الاجزاء المكونة له وتتعترف الفلسفة الماركسية بوجود رابطة متبادلة وثيقة بين انواع ومجالات الوعي ، وتعترف أيضا ، بنفس القدر ، بوجود قوانين تطور داخلية للوعي ، اي بكيئته ولكن ادبياتنا لا تراعي بما فيه الكفاية التماسك الداخلي للوعي الاجتماعي ويدل على ذلك حقيقة ان دراسة الرابطة المتبادلة بين انواعه لا تتجاوز تحليل الروابط بين هذه او تلك من فئاته وتبقى فعالية الوعي الاجتماعي ككل غير مشروحة او مفسرة

وليس هناك من شك في ان شرح آلية عمل الوعي الاجتماعي تعترضه صعوبات كبيرة وهذا يرتبط بتنوع مستوياته ، وأصعده ، وأنواعه ومجالاته ، وبيروزه داخل المجتمعات الطبقيّة المتناحرة كوعي خاص بالطبقات في مجتمع من هذا الطراز تملك كليه الوعي معنى مزدوجا فهي من جهة كليه وعي طبقات متفرقة بما يميزه من وحدة الوعي النظري واليومي ، ووحدة الايدولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية والنظرات والآراء السياسية ، والاخلاقية والفلسفية وسواها وهي من جهة ثانية كليه وعي المجتمع عموما بهذا المعنى ، ان وحدة الوعي للمجتمعات الطبقيّة جد نسبية الا ان وعي الطبقات المختلفة يمكن ان يتوافق مرحليا في مراحل تاريخية متفرقة ، لان مصالح الطبقات قد تتطابق عندئذ يمثل وعي المجتمع تكوينا بالغ التعقيد ، وان كان يملك ديمومة وكليه نسبيتين وعلى سبيل المثال كان وعي المجتمع البرجوازي في عصر الرأسمالية المبكرة (فجر الرأسمالية) تكوينا كليا نسبيا ومع تطور الرأسمالية تغير الوضع بمقدار ما تعرفت الطبقة العاملة والجماهير الكادحة عموما على مصالحها الرئيسية وأدركت تناقضها مع مصالح البرجوازية وبالتطابق مع هذه البنية الاجتماعية المتكونة للمجتمع البرجوازي انقسم وعيه أيضا الى تكوينات فكرية ذات طبيعة طبقية متعارضة

ويظهر وعي المجتمع البرجوازي ، شأنه شأن سواه من التشكيلات

الاجتماعية التناحرية ، كوعي طبقي ممزق ومتصارع داخليا هذا يبرهن على اهمية وضرورة تحليل الوعي الطبقي قبل كل شيء ، وان كان لا يؤدي الى الاستغناء عن دراسة الوعي الاجتماعي ككل موحد ويملك وعي المجتمعات ذات الطبقات المتناحرة ، في كل زمن ، وبرغم التناقضات التي تمزقه ، صفات نوعية محددة وعندما يريد المرء كشف مثل هذا المجتمع وإعادة تشكيله ، يجب عليه ان يعرف خصائص وعيه ، والروابط المتبادلة لوعي طبقاته ، وهيمنة اتجاهات تطور معينة فيه الخ

وتكتسب مسألة كلية الوعي الاجتماعي اهمية خاصة في الاشتراكية، حيث تخلق وحدة اجتماعية للمجتمع بأسره ، وتتوافق المصالح الرئيسية للطبقات التي لا تزال قائمة ، وتنشأ على ارضية التوافق وحدتها السياسية والايديولوجية ان الوعي الاشتراكي يعمل ككل موحد ومنسجم.

ويمكننا مفهوم الوعي الاجتماعي كظاهرة موحدة ، تتحدد بمصالح من يحملونها ، من الكشف الاعمق والاشمل لدوره في حياة المجتمع ويعبر الوعي الاجتماعي عن نفسه ، بصفته تكوينا متماسكا ، في كل مرحلة من مراحل وجوده الفعلي بأوضاع معينة يتخذها وهذه تعطي ، بحسب رأينا ، تصورا مشخصا حول الوعي الاجتماعي كتكوين فكري ذي طبيعة كلية

ان مبدا دراسة الوعي الاجتماعي ككلية معينة لم يجد تعليله الكافي بعد في الادبيات التي تدرسه ، ولم يدخل مصطلح « وضع » الوعي بعد الى لغة الاستخدام العلمي ، لذا فاننا سنكتفي باثارة هذه المشكلة فحسب

مفهوم « اوضاع الوعي الاجتماعي »

في الادبيات التي تدرس مسائل الوعي الاجتماعي ، كثيرا ما يصطدم المرء بزعم يقول ان مصطلح « وضع الوعي » قد وضع وصاغ معناه فلاسفة وعلماء نفس برجوازيون ، ولا يجوز استخدامه الواقع ان هذا المصطلح واسع الانتشار في علم النفس والفلسفة البرجوازيين ، ولكنه ليس من اكتشافهما فقد استخدمه ارسنطو وغيره من فلاسفة الماضي ، وتستخدمه اليوم نظريات علم النفس في الاتحاد السوفياتي

يملك مصطلح « وضع » معان مختلفة وهو يستخدم في علم النفس في البلدان الاشتراكية لوصف العالم الداخلي للشخصية ، وبخاصة مشاعرها وميولها ولواعجها الخ ويفهم تحت كلمة الوضع النفسي لانسان ما نشاطه النفسي من جهة ، ومعاناته الداخلية من جهة اخرى

ويستخدم علماء النفس مصطلح « وضع » لوصف الوعي الفردي وان كان لا زال يستخدم ايضا لدى تحليل الوعي الاجتماعي بهذا المعنى استخدمه ايضا بليخانوف

« لا توجد حقيقة تاريخية واحدة لا تدين باصلها للاتصاد الاجتماعي . ولكن من الصحيح ايضا انه لا توجد حقيقة تاريخية واحدة لم يسبقها وضع معين للوعي ، ولم يوافقها او يحل محلها وضع معين للوعي » (١) .

ان المرء يصف بهذا المفهوم مصفوفة من ظواهر علم النفس الاجتماعي، وخاصة الامزجة

في رأينا يجب استخدام مصطلح « وضع » بالنسبة لظواهر السيكولوجيا الاجتماعية ، ولاشكال التعبير الاخرى عن الوعي الاجتماعي. ونحن تؤكد ذلك ، لان الوعي الاجتماعي ، عموما وفي اشكال ظهوره الخاصة ، اما ان يقيم شيئا ، او يختبره او يعاينه ، اي انه يتخذ اوضاعا معينة . وهذه تؤثر على بواعث السلوك لدى البشر ، وعلى القرارات

العيانية التي يتخذونها ، فتدفعهم الى القيام بفعالية ما والسوسيولوجيا ، هذا العلم الذي يدرس الدور الناشط للوعي الاجتماعي في حياة المجتمع تجابه ايضا مسألة اوضاعه هذه

عندما ندرس الوعي الاجتماعي على صعيد نظرية المعرفة فحسب ، فان السؤال عن اوضاعه لا يطرح نفسه اصلا وهذا مفهوم لان الوعي الاجتماعي يدرس عندئذ في روابطه مع الوجود الاجتماعي ، وينظر اليه كانعكاس له وعلى صعيد الدراسة السوسيولوجية ينطلق الباحث من مفهوم الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي ويتعامل مع الوعي كنتاج ونتيجة معينة ، ويركز اهتمامه على الرابطة المتبادلة للوعي مع نشاط البشر المنصب على تغيير واعادة صياغة الوجود الاجتماعي وتعتبر هنا اوضاع الوعي موضوعا للدراسة بوصفها اشكالا خاصة للظواهر تتميز عن بعضها بعمق تأثيرها على سلوك البشر ، وبإيجابية أو سلبية التأثير . وبطوله أو قصر مداه

وتسمح الدراسة التاريخية - العيانية للوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي بالاستنتاج التالي لا تؤثر الافكار السياسية والحقوقية والاخلاقية الخ ولا التصورات والاحاسيس متفرقة وبصورة مباشرة على نشاط البشر ، بل الذي يحدث التأثير هو **اندماجها** ، أي تلك التكوينات التي تنشأ نتيجة للتأثير المتبادل بين الافكار والآراء والتصورات والمشاعر المختلفة وهذه التكوينات هي أوضاع الوعي الاجتماعي

ان وضع الوعي الاجتماعي ليس في العادة مجموع هذه أو تلك من الافكار والنظرات والتصورات والمشاعر ، بل حسالة من حالات هذه العناصر يسيطر فيها بعضها داخل الوعي ويطلع محتواه بأسره بطابعه الخاص والواقع ان وعي مجتمع معين يكون في الحالات العادية مطبوعا بأفكار معينة (قانونية ، فلسفية أو سياسية الخ) وقدم وعي مجتمع العصر الوسيط مثالا على ذلك ، فقد كانت الحياة الفكرية بأسرها مطبوعة بطابع الايدولوجية الدينية التي قدمت للوعي الاجتماعي للطبقة السائدة الاتجاه والصبغة المعينة (٢) وفي عصر الثورات البرجوازية المبكرة في أوروبا الغربية احتلت الايدولوجيا السياسية مكانا مهيمنًا في الوعي الاجتماعي فصبغت الوعي بصبغتها ، واثرت على اوضاعه الشخصية .

ان تضيق الوعي وتوجيهه تحت نفوذ افكار ونظرات وتصورات ومشاعر مهيمنة يشكل الصفة النوعية المميزة لوضع الوعي الاجتماعي وتسمح هذه الصفة بالتمييز بين الافكار والمشاعر المهيمنة في زمن معين داخل الوعي الاجتماعي ، وبين محتواه - الافكار والنظريات وسواها من التكوينات الموجودة فيه - واشكال تعبيره المشخصة

ان عزل محتوى الوعي الاجتماعي ووضاعه ، وتحديداه بدقة هام جدا لدى تحليل نشاطه ولا نستطيع القول ان نفس محتوى الوعي يملك دوما تأثيرا واحدا على سلوك ونشاط البشر ويتضح ذلك حين نقارن اوضاع النهوض والتدهور الاجتماعي بعضها ببعض فالوعي الاجتماعي يملك عادة في فترات النهوض طبيعة تفاؤلية ، في حين يمتاز تدهور الحياة الفكرية بمسحة تشاؤمية. هذان القطبان المتعارضان لاشكال التعبير عن اوضاع الوعي يملكان في الواقع عتبات وسيطة كثيرة ، يتجلى تأثيرها على الحياة الاجتماعية في ان وضع النهوض يدفع البشر الى القيام بسلوك فعال ، بينما يدمر التدهور معنوياتهم ويدفعهم الى السكون ان دور الوعي ، الذي يمر باوضاع مختلفة ، ليس واحدا ، مع ان محتواه يمكن ان لا يتغير قط

الوضع هو التعبير المنسجم عن الوعي الاجتماعي ويمكن الانسجام في هيمنة افكار وآراء وتصورات ومشاعر معينة على الوعي الاجتماعي بأسره ، ومنحه بالتالي نوعية معينة وهو ، اي الانسجام ، لا يعني بأي حال الوحدة القائمة على عامل واحد باعتبارها علاقة نوعية ممكنة للوعي فعلاية الوعي تتجلى في وجود صفة نوعية معينة ، لا تستثنى من الفروق بين جوانبه المختلفة ، ولا من الروابط المتناقضة لهذه الجوانب

في مجتمع الطبقات المتناحرة تعتبر كلية اوضاع الوعي جد نسبية ، مع انه يمكن لوعي الطبقات المختلفة ان يتوافق هنا أيضا في مراحل تاريخية موقته ، وان يظهر وعي المجتمع عموما اوضاعا معينة مشتركة مثل هذه الاوضاع ممكنة أيضا ، عندما تنجح الطبقة السائدة في فرض ايدولوجيتها على الطبقات الأخرى هكذا تنظم الطبقات السائدة في المجتمع الطبقي « انتاج وتوزيع افكار عصرها بحيث تصبح افكارها الافكار السائدة للعصر » (٣) وهي تنقل الوعي الاجتماعي الى وضع معين هو ، في المجتمع الطبقي ، تكوين متناقض ، وان كان يملك صفة نوعية مميزة

وتوجد أيضا أوضاع عامة للوعي حين تكون ثمة فواصل طبقية حادة له ان المجتمع الطمعي هو كل اجتماعي ترتبط فيه الطبقات مع بعضها ويتبادل فيه وعبها التأثير وتمكننا كلية اوضاع الوعي الاجتماعي من وصف جانبها النوعي في حين يصف انتشار الافكار والآراء والتصورات والمشاعر والامزجة السائدة في الوعي الاجتماعي الجانب الكمي لأوضاع الوعي الذي يجب ان يولى الاهتمام عند شرح خصائص اوضاع الوعي ان الافكار والنظرات المهيمنة في ايدولوجية ما لا تنتشر في نفس الوقت بين الجماهير ولا تشكل دليلا للعمل بالنسبة لها وحين لا تجد الانتشار الجماهيري وتستحوذ على عقول الجماهير فان السيكلوجية الاجتماعية لا تستحوذ بدورها على الجماهير عند دراسة الاوضاع العيانية للوعي يجب قبل كل شيء الانتباه الى مدى انتشارها جماهيريا

وتعبر الصفة النوعية لأوضاع الوعي الاجتماعي عن نفسها أيضا في انها تصطبغ عادة بصفة شعورية الامر الذي يظهره انتشار الامزجة الاجتماعية في وقت من الاوقات

ليست الامزجة الاجتماعية علامة خارجية على وجود أوضاع الوعي فقط فكل شيء مما يعبر عن نفسه في الوعي الاجتماعي يمر حاجات ومصالح البشر ويستدعي روابط شعورية - ارادية حيال ظواهر وحقائق الواقع ويؤدي الى أنواع معينة من المعاناة وهذه لا تصبغ فقط وبساطة أوضاع الوعي بصفة شعورية بل تعبر أيضا عن جوهره وتمركزه على هدف معين واستعداداته للعمل أو فقدان هذا الاستعداد بكلمات أخرى انها تعبر عن موقف الجماهير العريضة ومن الاهمية بمكان مراعاة الامزجة الاجتماعية لدى دراسة خصائص أوضاع الوعي

تسمح التعمينات المعطاة حول مفهوم وضع الوعي بفهم الاوضاع كشكل تعبير مميز للوعي الاجتماعي وفي الواقع فانه من الصعب انكار وجود عوامل مهيمنة في الوعي الاجتماعي تمنحه طابعا وتوجهها معينين وصفة شعورية وليس من الممكن أيضا انكار ان اكتساب الوعي الاجتماعي لنوعية معينة يجعله قادرا على السيطرة على البشر عن طريق دفعهم الى هذا النشاط أو ذاك

ان المفاهيم المستخدمة على نطاق واسع مثل الجو الفكري و روح العصر و اتجاهات الفكر « تعكس ، الى حد ما ، الاوضاع الموجودة في المجتمع للوعي بوصفها اشكالا يعبر الوعي الاجتماعي عن نفسه من خلالها ومع ذلك فانها لم تكن حتى الآن موضوع دراسة علمية ، ولم ينظر اليها كتكوينات بنوية خاصة للوعي الاجتماعي وربما كمن احد أسباب هذا التقصير في قصر حياة وسرعة تغير اوضاع الوعي ان ذلك ليس بالمبرر الكافي لعدم دراسة اوضاع الوعي الاجتماعي ، خاصة وان استمراريته ومدى وجودها يتوقفان على العوامل التي انجبتها هكذا يمكن للرأي الاجتماعي ، وهو واحد من اكثر اوضاع الوعي الاجتماعي انتشارا وجاهيرية ، ان يعيش فترة قصيرة فقط ، عندما تجد المسائل ، التي تكون بصدها حلا سريعا ولكن عندما تبقى المسائل معلقة ، فان الرأي الاجتماعي حولها يمكن ان يبقى لفترة طويلة ، ان يستمر

من هنا نعتقد ان اوضاع الوعي الاجتماعي لا تتطابق مع الانواع الاخلاقية والفلسفية والجمالية وسواها من انواع الوعي ، كما لا تتطابق مع الايدولوجيا والعلم والسيكولوجية الاجتماعية كعناصر لمحتوى بنية الوعي الاجتماعي ان الوعي الاجتماعي يتخذ ، من خلال تأثيره على سلوك الفئات والطبقات الاجتماعية عموما ، اوضاعا تتميز بصفات نوعية وكمية ونحن نعتبر اوضاع الوعي عناصر في البنية الديناميكية للوعي الاجتماعي.

أوضاع بنية الوعي الاجتماعي وسبل معرفتها

تنجم ضرورة تحديد مكان أوضاع الوعي الاجتماعي داخل بنيته من دراسة محتوى مفهوم وضع الوعي ويعمل ذلك بالنتائج التالية

● **أولا** ان ترتيب أوضاع الوعي هام لفهم العمليات الواقعية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع والتحليل الذي ينصب على الأوضاع المشخصة للوعي الاجتماعي سمح لنا بفهم أفضل لمجرى الأحداث وسلوك هذه أو تلك من الطبقات وهذا أو ذاك من الأحزاب السياسية الخ ويقدم لنا كلاسيكو الماركسية - اللينينية أمثلة رائعة على مراعاة أوضاع الوعي لدى دراسة ظواهر الحياة الاجتماعية. فقد تابع كارل ماركس مثلاً في مؤلفه ١٨ برومير الويس بونابرت مراحل تطور الثورة الفرنسية من ١٨٤٨ واصفا أوضاع وعي المجتمع ككل من جهة ومختلف الطبقات بفئاتها المتنوعة وبالاخص الطبقة البرجوازية. وهو يرى مثلاً ضعف أحزاب النظام البرجوازية وافلاسها في الصراع مع السلطة التنفيذية في أحد أوضاع الوعي وهو الخبل البرلماني (٤) وينسب لينين في أعماله هل سيحافظ البلاشفة على سلطة الدولة و رسالة الى الرفاق وسواها من الأعمال التي كتبت عشية الثورة أهمية كبيرة جداً لموقف ومزاج الطبقات في الصراع الثوري فكتب في الرسالة الى الرفاق ان الوقت قد نضج في روسيا للانتفاضة المسلحة. وتكونت أيضاً الشروط الموضوعية والذاتية الضرورية لذلك وقد اعتبر لينين مزاج الجماهير من العوامل الذاتية وتابع تغيراته من نيسان الى تشرين ١٩١٧ وأشار الى انه قد وصل مستوى يمكن معه للانتفاضة المسلحة ان تكون ناجحة (٥)

● **ثانياً** ان دراسة أوضاع الوعي هامة لفهم عمليات انعكاس الواقع في أذهان السر وترتبط بأوضاع الوعي وإلى درجة كبيرة الأشكال التي تنعكس بها العلاقات الاجتماعية ومصالح البشر وقد عرف بليخانوف ذلك بصورة صحيحة، عندما عالج مسألة تطور الحقوق . كتب بليخانوف :

« ان المصالح التي نحميها الحقوق ، لا تبث الى الحياة من خلال وعي البشر ، وبالتالي فان محتوى الحقوق لا يتعين عبر الوعي البشري ، بل يعين عبر وضع الوعي الاجتماعي ، وفي عصر معطى ، ذلك الشكل الذي يأخذه انعكاس المصلحة المعطاة في اذهان البشر بدون مراعاة وضع الوعي الاجتماعي ، لن يكون بوسعنا مطلقا شرح تاريخ الحقوق » (٢١)

ويمكن ان نقول نفس الشيء حول الفن والادب والاخلاق وسواها من ظواهر البنية الفوقية الاجتماعية

● **ثالثا** ان العمل الايديولوجي ، الذي يجب على النشاط العملي للبشر ان يحققه على افضل وجه ، يجب ان يقام على مراعاة الاوضاع المعطية للوعي الاجتماعي وعليه ان يعمل على ابراز اوضاع معينة للوعي ، تلازم النشاط الفعلي للبشر ولكي يخلق المرء وضعا مناسباً للوعي الاجتماعي ، فان عليه ان يعرف قوانين تكوينه ، وخاصة تلك التي تعبر عن الارتباط بين العناصر الايديولوجية والسيكولوجية الاجتماعية للوعي وبين الوعي النظري والوعي اليومي ايضا ومن المعروف ان ثمة افكارا معينة يمكن ان تجد انتشارا في المجتمع ومع ذلك فانه لا يترتب عليها دوما وضع مناسب للوعي الاجتماعي ان الافكار تعين اوضاعا للوعي وتغدو دليلا للعمل الفعلي ، فقط عندما تشمل ايضا مجال السيكلولوجية الاجتماعية ، ويعرفها البشر ، ويعانونها ان وضع الوعي هو ، كما ذكرنا ، موقف فكري ومن مهمات احزاب الطبقة العاملة ان تخلق مواقف فكرية اجتماعية

● **رابعا**: يرتبط نجاح النضال ضد الايديولوجية البرجوازية من وجوه متعددة ، بالتصور الصحيح لوضع الوعي الاجتماعي ومن المعروف ان الايديولوجيين البرجوازيين يطلعون علينا باستمرار بتصورات جديدة » ، دون ان يكون لمعظمها أي تأثير على وضع الوعي الاجتماعي وهي تختفي من مسرح الحياة الايديولوجية بالسرعة التي تظهر بها والحال اننا لا نستطيع ان تقع فعلا على مواضيع الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، ونخوض هذا الصراع باكبر قدر ممكن من الفاعلية ، الا اذا عرفنا حقا اوضاع الوعي في هذين النظامين

● **خامسا** : ان تحديد المكان الذي تحتله اوضاع الوعي يجعلنا نفهم آلية تأثير التكوينات الفكرية على سلوك البشر ، والدور الفاعل للوعي في

حياة المجتمع وأوضاع الوعي هي صلة الوصل بين الوعي كعملية انعكاس للواقع والفعالية العملية للبشر لتغيير هذا الواقع وبالارتباط مع ما قاله لينين حول الشعور كرابطة مباشرة بين الوعي والعالم الخارجي نستطيع القول ان أوضاع الوعي هي بدورها روابط مباشرة ، ولكن ليس في عملية انعكاس العالم الخارجي بل في عملية تغييره وبقدر ما تمثل المعرفة وتغيير العالم جوانب لعمل البشر بقدر ما تكون أوضاع الوعي صلات وصل بين الوعي والحياة الواقعية للبشر أي لممارستهم الاجتماعية ان الوعي الاجتماعي بمروره عبر أوضاع معينة يلعب ، بوصفه قوة فكرية فعالة دورا كبيرا في المجتمع

بعض الفلاسفة ينكرون وجود أوضاع للوعي وبالتالي دورها في سلوك البشر فينكر كوفالسون مثلا الدور الفعال الذي يلعبه وضع الوعي الجماهيري الذي سمي به الرأي الاجتماعي يكتب **كوفالسون :**

« وللاسف ينظر كثير من الفلاسفة والعلماء عندنا الى الرأي الاجتماعي بصفته وضعاً للوعي وقوة فكرية وهم لا يلاحظون التناقضات التي يتورطون بها فلو كانت أوضاع الوعي قادرة حقا على لعب دور قوة واقعية ، لما احتاجت الاخلاق مثلا ان تلجأ الى الرأي الاجتماعي من أجل فرض معاييرها وإذا كان الوعي قوة فعلية ، فلماذا اذن لا يفرض الوعي الاخلاقي نفسه بقواه الخاصة ، وهو امر غير ممكن ، كما يبدو **بجناد ؟! » (٧)**

لماذا يعتبر ذلك غير ممكن أليس وعي وشعور الضمير البشري قوة فكرية تدفع البشر الى التقيد بالمعايير الاخلاقية ؟ هذه حقيقة لا يمكن نكرانها وتؤكدنا ايضا التجربة الاخلاقية للبشر المعقدة فسي النظريات الاخلاقية ان من الصعب الوقوع على نظرية اخلاقية لا تعالج دور الضمير البشري في الحفاظ على المعايير الاخلاقية ومن الطبيعي انه لن يتبع سائر الناس وحتى في الاشتراكية معايير ضميرهم لذا يجب على المجتمع ان يستخدم الرأي الاجتماعي ليتمكن من تحقيق مطالبه لدى افراده ولكن بقدر ما ينمو الضمير الواعي للبشر بقدر ما تتضاءل استخدام المجتمع لقوة الرأي الاجتماعي مع العلم بأن هذا يبقى رغم ذلك حافظا للمعايير الاخلاقية

حسب رأي كوفالسون لا يعتبر الرأي الاجتماعي بوصفه وضعاً للوعي قوة اجتماعية فهو لا يتجاوز حدود الوعي ولا يستطيع ان يلعب دورا هاما في حياة البشر يقول كوفالسون :

« ليس من الصعب ان نفهم ان الراي الغريب لا يصبح ممسكاً
بالنسبة لنا ، ولا يدفعنا لآخذه بعين الاعتبار ، الا اذا اقترن بقوة ما ،
بقوة السلطة وسلطة القوة » (A)

ان كوفالسون على حق في رايه ، فالبشر يخضعون للراي الاجتماعي
لانه يمثل قوة السلطة و سلطة القوة

ويقول كوفالسون

« ان الراي الاجتماعي لا يملك كوضع للوعي مشكل هذه القوة
الفعلية ، بل مظهرها فقط وبما ان اعمال فعلية تترتب في العادة على
الراي الاجتماعي ، فانه يتجاوز اطار الوعي ، لانه لا يتضمن فقط تقييماً
للعمل المدعى من منظور الاخلاق ، بل كذلك روابط واقعية معينة تكون
بالتوافق مع هذا الوعي ، واعمال فعلية معينة تتجلى فيها الرابطة مع
الانسان الذي قام بعمل الخير أو الشر » (A)

لتفسير الدور الفعال للتكوينات الفكرية ، بما فيها الراي الاجتماعي ،
لا يحتاج المرء الى مماثلة ما هو فكري مع العمل الفعلي للبشر مثل هذه
المماثلة تؤدي الى ازالة سائر الفوارق بين التكوينات الفكرية والممارسة
الاجتماعية للبشر بين الذاتي والموضوعي عندما يتشكل محتوى الراي
الاجتماعي ايضا من روابط واقعية ونشاط فعلي للبشر فانه ينقطع عن
ان يكون ظاهرة فكرية صحيح ان الروابط الواقعية والسلوك العملي
للشخص بوصفان كراي ولكن الراي اعتبر حتى في العصور القديمة من
مجالات الوعي

يطرح المفهوم الذي عرضناه سلسلة من الاسئلة هل يستطيع المرء
ان يتحدث فعلاً عن دور الظواهر الفكرية في حياة المجتمع ؟ واذا كان
يستطيع أين يعبر هذا الدور عن نفسه ؟

نحن نتمسك بزعمنا حول ممارسة الوعي الاجتماعي لتأثير هام على
المجتمع من خلال الاوضاع التي يتخذها ونعرف جيداً ان الافكار بذاتها
ولذاتها لا تحقق اي عمل كان ، بل تحتاج من اجل ذلك للجهود الفعلية
للشخص وقد غدت اطروحة ماركس حول تحول الافكار الى قوة مادية ،
حين تستحوذ على الجماهير ، مشهورة بما فيه الكفاية ومع ذلك فاننا
لا نريدها ان تفهم حرفياً فالافكار تنتشر وتحرك فئات بشرية كبيرة
للقيام بأعمال معينة وهذه (الفئات) تمثل ، حين تنشط متفرقة او
مجمعة ، قوة مادية واقعية والفكرة التي تدفع البشر نحو الفعل هي

أيضا - بتعبير مجازي - قوة مادية ، لا تفقد اثناء ذلك طبيعتها الفكرية وتتضمن افعالا وروابط بشرية ان اوضاع الوعي بما فيها الراي الاجتماعي تشكل الجانب الذاتي للروابط الواقعية وللفعالية البشرية اللتان تلعبان دور القوة المحركة

ان فرز اوضاع للوعي الاجتماعي وبشكل خاص اعتبار الراي الاجتماعي وضعاً للوعي ، يهاجمان من مواقع أخرى أيضا فيرفض جروشين مثلا ان يكون هناك الى جانب التقسيم التقليدي للوعي الاجتماعي - الى اشكال ومستويات (أصعدة) - تقسيم جديد يضيف اوضاع الوعي فقط من أجل فهم خصائص الراي الاجتماعي (٩)

ويعتقد جروشين أولا ان دراسة الوعي الاجتماعي وفق اشكاله واصعدته تغطي تماما دوره الفعال في المجتمع ولا تترك مجالا للحديث عن اية اوضاع للوعي غير ان فعالية الوعي لا تعبر عن نفسها الا من خلال اوضاعه ، وخاصة الراي الاجتماعي وقد سبق ان اشرنا الى ذلك

ويعارض جروشين ثانيا فرز وابرار اوضاع الوعي لانها ليست جوهر قائما بذاته الى جانب الحواهر الأخرى المتمثلة في اشكال واصعدة الوعي يقول جروشين ان وضع الوعي هو **محصلة** لسائر الجواهر الأخرى (٩) والمؤلفات التي يستند اليها لا تنظر الى وضع الوعي كجوهر قائم بذاته ان جوهر مسألة اوضاع الوعي الاجتماعي ينحصر في انه لا يوجد اوضاع للوعي تقوم الى جانب أنواع الوعي السياسية والأخلاقية والجمالية وسواها والى جانب مجالات وأنماط الوعي بل تتجسد سائر هذه التكوينات في اوضاع معينة وتمر بأوضاع معينة

ان سائر العناصر السابقة تسمح بالتحدث عن أصعدة وأنواع ومجالات وأنماط وعن اوضاع معينة للوعي فما هي السبل الموجودة لمعرفة هذه الاوضاع ؟

تصلح السبل والطرق والاساليب التي وضعتها الفلسفة الماركسية حول دراسة محتوى الوعي الاجتماعي وبحث بنيته لدراسة اوضاع الوعي أيضا لذا فاننا نحتاج فقط للتعرض الى العناصر ذات الاهمية في بحث اوضاع الوعي

لمعرفة اوضاع الوعي تكتسب اهمية بالغة مسألة الطريقة التي نشأت بها والعناصر التي بعثتها الى الحياة وهذه باظهارها اوضاع معينة

الوعي ، تفسر ، من وجوه عديدة ، تعيين محتسوى وضع ما ، وزخمه ونفوذه السلبي او الايجابي الذي يمارسه على البشر الخ

يرتبط وضع ما للوعي ، في السياق النهائي ، بالعلاقات المادية للمجتمع وتعتبر هذه التبعية عن نفسها عبر البنية الاجتماعية والنظام السياسي ومنظومة التنظيمات الاجتماعية وغيرها من العناصر وعلى المرء أن ينتبه لمجمل تأثير هذه العناصر ، حين يدرس اوضاع الوعي وقد اشار لينين لدى شرح مسألة تكون المواقف لدى الجماهير الى « ان الخط الثابت للحزب ، وحزمه الذي لا يلين هما ايضا عنصر من عناصر الموقف ، خاصة في الفترات الثورية الحاسمة » (١٠) هنا يؤكد لينين بالحاج على ضرورة التكوين الواعي للامزجة الجماهيرية وسلوك الحزب وموقفه نفسه يحددان الى حد كبير ، ومن وجوه كثيرة ، مزاج الجماهير العريضة.

ترتبط الصبغة النوعية لاطواع الوعي ، في الغالب ، بالعنصر المسيطر ضمن الوعي الاجتماعي ويجب التركيز ، لدى دراسة هذا التكوين الفكري ، على اكتشاف هذه العناصر المهيمنة على الوعي عندئذ يتمكن المرء من فهم وتصنيف المحتوى الايديولوجي والسيكولوجي لاطواع الوعي. وفي العادة ينطلق المرء من الافكار والآراء السياسية والقانونية والاخلاقية والفلسفية وسواها من الافكار المهيمنة داخل الوعي الاجتماعي ، للوصول الى محتوى اوضاع الوعي وهو يصنفها ايضا كوعي اخلاقي ، وروح مواطنة الخ

و روح المواطنة كأحد اوضاع الوعي الاجتماعي ليست سوى معرفة المواطنين لكونهم جزء من كل واحد (دولة ، أمة او مجتمع) وهي تعبر عن نفسها في افكار ومشاعر الوطنية والاممية ، وبالشعور بالانتماء لجماعة معينة الخ وسيطرة هذه الافكار والمشاعر في الوعي الاجتماعي تطبعه بصبغة معينة ، وتتمتع بأهمية خاصة ، وتتغلغل في الوعي بأسره ، وخاصة في مرحلة حروب التحرير القومي وعصر الثورات هكذا تتحقق في عصرنا حركات التحرر القومي في بلدان كثيرة من آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية تحت راية القومية وقومية الامم المضطهدة والتابعة توحد الجماهير في النضال ضد الامبريالية ، ومن أجل الاستقلال القومي ، وتبدو « كروح مواطنة » تهيمن على وعي الشعوب التي تحرر نفسها

تستطيع النظرات الفلسفية ايضا ان تكسب الوعي وضعاً معيناً .

وقد اشار انجلز الى ان الثورات البرجوازية في اوروبا قد سبقتها ثورات فلسفية في مثل هذه العصور حددت قضايا النظرة الى العالم كل الجو الفكري للمجتمع ولا يجوز للمرء أن يربط بالطبع مثل هذا الوضع للوعي الاجتماعي بالعصور السابقة للثورة فقط ففي روسيا مطلع القرن العشرين لم تبرز قضايا النظرة الى العالم قبل ثورة ١٩٠٥ الديمقراطية - البرجوازية بل بعد هزيمتها وكان السبب في ذلك كامنا في الشروط التاريخية - العيانية لتطور روسيا في تلك المرحلة ان النظرة الى العالم تتسبب بتكون وضع معين للوعي الاجتماعي في هذه المرحلة التاريخية أو تلك

الى جانب النظرات الفلسفية يؤثر العلم ايضا على اوضاع الوعي الاجتماعي وفي الظروف الراهنة ينمو نفوذ العلم على سائر جوانب الحياة الفكرية بصورة مضطردة ويتغير دوره ومكانه في حياة المجتمع ويتحول بصورة متزايدة الى قوة انتاجية مباشرة والى قوة اقتصادية وأخلاقية.. واجتماعية ويفدو العلم قوة اجتماعية لان الوعي الاجتماعي اجمالا يكون قد وصل الى مستوى معين بدا العلم يهيمن بداخله هذا يحدث ايضا في الوعي الاشتراكي

ويستطيع المرء ان يصنف اوضاع الوعي الاجتماعي ليس فقط وفق الافكار والآراء المهيمنة فيها بل ايضا بحسب آليات عملها وصيغتها الشعورية وتتميز اوضاع الوعي في وظيفتها بحسب استمراريته قبل كل شيء فمهما ما يعيس فترة قصيرة كالرأي الاجتماعي في حين تستمر اوضاع اخرى لفترة طويلة مثل الاعراف والتقاليد والمعايير الاجتماعية التي تمثل تركيزا لاوضاع منصرمة قصيرة الاجل وتؤثر على الدوام بالاوضاع الجديدة المشابهة لها وتتميز اوضاع الوعي ايضا بزخم ظهورها وما اذا كانت تمر بمرحلة صعود أم هبوط

وتقوم الصبغة الشعورية التي تميز اوضاع الوعي الاجتماعي اساسا لتقسيم هذه الاوضاع التي هي طابع الحياة الفكرية للمجتمع ان الوعي الاجتماعي يمكن ان يكون مشبعا بالتفاؤل او التشاؤم ان يخضع لعذاب الضمير او يشحن بالغضب الخ باختصار ان اوضاع الوعي يمكن ان تمتاز حسب اكثر العناصر اختلافا ولكن اكثرها اهمية هي العناصر المرتبطة بالمحتوى فهي تسمح لنا بتصنيف اوضاع الوعي حسب الافكار السياسية والقانونية والاخلاقية الخ المهيمنة فيها .

لدى بحث أوضاع الوعي الاجتماعي وتنميتها يجب الانطلاق دوماً من أنها تمثل تكوينات كلية يجب دراسة سيرورتها في سائر مجالات الوعي على سبيل المثال يجب على من يدرس الوضع المتأزم للوعي البرجوازي المعاصر أن يدرسه في مجالي الأيديولوجيا والوعي الجماهيري وسنحاول فيما يلي عرض صورة لازمة هذا الوعي البرجوازي

تتجى أزمة الوعي البرجوازي في رفضه للمكتسبات التقدمية للفكر السياسي. - الاجتماعي الذي وصلت اليه البرجوازية حين كانت لا تزال طبقة ثورية هذا ينطبق أيضاً على الفلسفة حيث تحللت البرجوازية من المفاهيم المادية وتسلمت بالمثالية كما ينطبق أيضاً على علم الاجتماع حيث رفضت تلك المفاهيم الاجتماعية المتميزة بروح ثورية - نقدية والمعلقة للمثل السياسية - الاجتماعية وينطبق على علم الجمال الذي شهد إفراغاً لسائر مفاهيمه الأساسية ورفضاً لاتجاهاته الواقعية وتتجسد الأزمة أيضاً في مجال الأخلاق وفي الاتجاهات المختلفة للتفكير السياسي وسائر مناحي الحياة الفكرية للمجتمع في الحياة الفكرية للمجتمع الرأسمالي ثمة عملية ناشطة لاعادة تقييم القيم من مواقع البرجوازية التي صارت اليوم بمطامحها الاقتصادية والسياسية طبقة رجعية

وأدت عملية اعاده تقييم القيم بالضرورة الى ان البرجوازية قد فقدت الافق التاريخي وملها الاجتماعية انها تنكر للتقاليد التقدمية التي خلقتها وتسلب المفاهيم الجمالية والفلسفية والأخلاقية وسواها من مفاهيم الوعي الاجتماعي محتواها الموضوعي في معاليم الرأسمالية وضع ايديولوجيو البرجوازية وعللوا مثلاً سياسية - اجتماعية تجسد في المطلب المعروف للحرية والمساواة والإخاء وفي الظروف الراهنة لم تعد البرجوازية تستطيع نحاح أفكار هامة تستخدمها كسلاح في معركتها حول عقول البشر في عصر صعود الرأسمالية كانت أفكار البرجوازية مشعة بوجه الاجمال بالايمان بالتقدم التاريخي وتحمل طابعا تفاؤليا بيد ان ايديولوجيتها مشعة اليوم بعدم الايمان بالمستقبل وبالإمكانات الخلاقة للبشر وهي متشائمة الى أبعد حد

كان حلول التشاؤم محل التساؤل مشروطاً في كل بلد برجوازي بظروف تطوره التاريخية المشخصة وبالكوارث الاجتماعية التي حلت به

ويكتب جوركو الذي درس وتابع التحول الذي اصاب اميركا من التفاؤل الى التساؤم ان التفاؤل كان الوضع الاكثر تميزا لمجتمع الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وقد وصل الى ذروته في مرحلة الازدهار خلال العشرينات ثم انهيار مرة واحدة مع انهيار البورصة في ١٩٢٩ وحولته السنوات الاربع التالية الى درجة لم يعد بالامكان معها التعرف عليه هذه الكارثة التي هزت الولايات المتحدة جابهت التفاؤل القدم بوضع من القلق والخوف و خلقت مزاجا جديدا تماما تجلى في التساؤم (١١) وانعكس الوضع الجديد على امزجة مختلف الفئات والطبقات وتجلى اثره في الادبيات الفنية والفلسفية والاخلاقية وفي الفن ايضا

احتلب اليوتوبيات الرجعية حول الرأسمالية التي تزييف العلاقات الواقعية مكان الافكار التقدمية الآفلة في وعي المجتمع البرجوازي المعاصر. فقدس الرأسمالية كنظام اجتماعي تحققت فيه الحرية الشخصية الكاملة، وسخفي منه الفوارق الطبقيّة وصارت الرأسمالية تعرض كمجتمع تعمل الدولة فيه لصالح السعّب فقط بعد انقطاعها عن أن تكون النظام التقليدي للاستغلال والاضطهاد لقد صارت رأسمالية شعبية الى جانب هذه الطوباويات حول الرأسمالية ثمة في المجتمع البرجوازي تصورات زائفة حول الاشتراكية كمجتمع مفلق ويزعم أنه لا توجد في الاشتراكية الحريات الديمقراطية الاساسية بل سيطرة شاملة للدولة وتصب هذه الطوباويات الرجعية على تحييد النفوذ الذي تمارسه افكار الاشتراكية على الجماهير وتحميل الرأسمالية واصطياد الشعب بأفكار وصور الوعي البرجوازي

تبذل الدعاية البرجوازية جهودا كبيرة لنشر طوباوياتها الرجعية في اوساط الشعب بيد ان هذه الطوباويات لن تمكن الرأسمالية من تجاوز الوضع المتأزم لوعيها البرجوازي وفي البلدان الرأسمالية هناك شعور قوي بنقص الافكار العظيمة البناء والنظرة الشاملة الى العالم ، والمثل الاجتماعية التي تمكن الطبقة البرجوازية السائدة من السيطرة على المجتمع، وكسب تأييد الجماهير

في ميل هذه الظروف يلجأ الايديولوجيون البرجوازيون الى التقاط مبادئ غريبة عنهم فينسبونهم لانفسهم كما فعلوا بشعار المجتمع

العظيم ومن جهة أخرى يحاول ايدولوجيو البرجوازية لتفطية عجزهم في المعركة التي يخوضونها حول عقول البشر الحط من قدر الفهم والذكاء ويركزون اطراءهم على الفريزة و الرغبة والايمان الاعمى وتنشتر في الوعي البرجوازي نزعة اللاعقلانية والعداء للثقافة التي تنكر الادوار الايجابية للافكار التقدمية والعلم في تاريخ الانسانية ان نشر مثل هذه الافكار هو برهان قاطع على الانحطاط الذي وصل اليه الوعي البرجوازي في عصر يجتث العلم فيه خيال البشر ويدلل على الطاقة الخلاقة للعقل البشري

احمالا ان وضع الوعي الرجوازي الراهن لا يمكن ان يفهم الا في المحال الايدولوجي ويظهر وضع هذا المحال وبصورة مشخصة ، الوضع في السياسة والقانون والفن الخ هكذا تعتبر اللااخلاقية السمة المميزة للاخلاق الرجوازية وتتم مراعاة المعايير السلوكية المعترف بها عموما في الكلمات في حين يداس عليها بالافعال في الحياة الواقعية، وتفقد المفاهيم الاخلاقية الاساسية كالواجب والشرف والضمير معانيها وتنكر المقاييس الموضوعية لتقييم سلوك البشر الخ هذا الوضع الذي يميز الوعي الاخلاقي يعر عن نفسه في انتشار الجريمة والنفاق والقسوة في المجتمع الرجوازي ومن البدهي ان وضع الاخلاق الفعلية يعكس النظرية الاخلاقية الرجوازية التي لم تعد مدارسها المتنوعة تختلف حول المعايير التي ترشد الانسان في خياراته الاخلاقية بل حول وجود مثل هذه المعايير في مجال الاخلاق ويقف نظريو اخلاق برجوازيون كثيرون موقفا عدميا من مسائل جوهر الاخلاق والطبيعة التاريخية لمعاييرهم والمسؤولية الاخلاقية وسواها من المسائل الرئيسية لنظرية الاخلاق انهم يعترضون هذه القضايا نوعا من المتافيزيك الذي لا يستحق الاهتمام

من الدلائل على الوضع المتأزم للوعي الرجوازي في مجال السيكولوجيا الاجتماعية ذلك الشعور بالخوف والوحدة والقلق وتنمعت هذه المشاعر بفعل القوى العنوية الراسمالية وسياستها وقد صار الخوف هو العامل الذي يحدد بصورة عامة سيكولوجية فئات اجتماعية كبيرة ويدعي ايدولوجيو البرجوازية ان هذا الوضع هو السبب الرئيسي للتوتر الدولي. فليست سياسة القوة للدول الامريالية مسؤولة عن الخوف في رأيهم بل يكمن جذر هذه السياسة في السيكولوجيا الاجتماعية لشعوب

البلدان الرأسمالية يقول لينابرجر أحد اخصائي اميركا في الحرب النفسية ان مصاعب الحياة الحديثة تجلب القلق والخوف للفرد وهذا ان يتحولان الى فرع لا يلبث ان يصبح حقدا يتخذ بدوره اشكالا سياسية. والحقيد السياسي يساعد في نشوء الاخطار الفعلية» (١٢)

ان تلاعب العالم الرأسمالي بالخوف وسواه من العواطف البشرية قد وصل الى حد وضع نظريات تبرر التوتر الدولي به من جهة وتعتبره عاملا في حفظ السلام من جهة أخرى ومثال مفهوم توازن الرعب معروف جدا وهو يقوم على ان تخزين الاسلحة النووية سيكون عامل اعتدال حين يتوازن الرعب في الشرق والغرب

ويتشكل في محال السيكلوجيا الاجتماعية وضع يتطابق مع هذا الوضع السائد في الايديولوجيا فالعودة عن افكار التقدم الاجتماعي قد ادت الى اشباع الوعي الجماهيري أيضا باليأس من المستقبل بكلمات أخرى ان البرجوازية الراهنة تحط في نظرياتها من قيمة العقل فتنتشر في الوعي الجماهيري النزعة اللاعقلانية والاتجاهات الصوفية والشعور بالوحدة والقلق المستديم ان وضع الوعي البرجوازي في المجال الايديولوجي ووضعه في مجال السيكلوجيا الاجتماعية يشكلان كلا لا ينفصل

يمثل شعور الخوف الذي وصفناه سمة اساسية للوعي البرجوازي المعاصر وقد نتج عن ان الطبقة البرجوازية نفسها مرشحة للاندثار ولكنه يمسك أيضا بفئات معينة من طبقات أخرى نتيجة لتداخل انواع الوعي المختلفة وهذا امر يمكن ملاحظته في اوضاع أخرى للوعي ولهذا يجب لدى دراسة مسألة كلية اوضاع الوعي الاجتماعي مراعاة التقيد الكامل للروابط المتبادلة في وعي الطبقات المختلفة

ويسمح الوعي التاريخي - العياني بتحليل تطور وعي المجتمع الاشتراكي واوضاعه المختلفة وهي تعبير عن الوجود الاجتماعي يتجسد في افكار ونظريات ومشاعر وامزجة وسواها من التكوينات الفكرية التي تصنعها طبقات وفئات اجتماعية كاملة

ويغير وعي المجتمع الاشتراكي شأنه في ذلك شأن وعي المجتمع البرجوازي ففي المجتمع نفسه خلال تطوره سلسلة من المراحل .

وتعتبر الصفة النوعية لكل مرحلة وضعا نوعيا معينا للوعي وبالطبع يجتاز الوعي في كل مرحلة من تطوره اوضاعا كثيرة مختلفة وفي هذا النوع تبرز اكثر الاوضاع استمرارية والتي تسمح بسمير مرحلة سواها وفهم الدور الفعال للوعي في حياة المجتمع بصورة اكثر عمقا

في المرحلة الانتقالية بين الرأسمالية والاسراكية تبين الافكار السياسية داخل الوعي الاجتماعي ويعود ذلك الى ان بناء الاشتراكية يتطلب وعيا سياسيا رفيعا لدى الجماهير الشعبية ان الكادحين يأخذون ولاول مرة في تاريخ المجتمعات الطبقة زمام الدولة بأيديهم ويبررون كمنظمين للعمل الاجتماعي فيحققون الوظائف التي كانت الطبقات المستغلة تمارسها في السابق والواقع ان الجماهير الكادحة ما كانت تملك في بدء التجربة لا المهارات ولا الخبرة الضرورية لحل هذه المهمات فمن المعروف ان الطبقات المستغلة حاولت خلال آلاف السنين حمن الشغل بفكرة ان القيادة هي امر من اختصاص الصفوة المختارة وقد تطلبت الشروع في بناء المجتمع الحدد رفع سوية الوعي السياسي لدى الجماهير

ويعبر لينين عن هذه الحاجة في الكلمات التالية ان الجماهير الكادحة تأخذ خلال الثورة زمام السياسة اي عملية بناء المجتمع الجديد بأيديها (١٣) وقد أدى اشاع هذه الحاجة الى ان الافكار السياسية التي تشكل ماهية الدولة الجديدة وسياستها الاقتصادية وتحالف عمالها مع فلاحها وروابطها القومية تلعب الدور القائد في وعي المجتمع

ولا يحول الوضع المهيمن للوعي السياسي دون وجود افكار ونظريات اخرى بيد ان هذه وهي تعبر أيضا عن الوجود الاجتماعي تمر أيضا والى حد ما بموشور الوعي السياسي وهذا ما يمح الوعي الاجتماعي صفته النوعية المميزة

الى جانب الاوضاع المستمرة الموجودة في سائر مراحل تطور الوعي الاشتراكي هناك أيضا اوضاع قصيرة الحياة على سبيل المثال صبغت عبادة الفرد الى درجة ما وبقدر معين وضع الوعي الاجتماعي ومع التغلب عليها حدثت عملية اعادة تقييم لبعض ظواهر الواقع في الوعي الاجتماعي وتحرر وعي الشر شيئا فشيئا من ترسبات زمن عبادة الفرد وتغير وضعه

هذا الوصف الموجز لوضع الوعي الاجتماعي في المجتمع البرجوازي

والاشراكي دلال على تنوعه وتعقيده وعلى فروقه النوعية قبل كل شيء وكما اتضح لنا فان اوضاع الوعي تتعين قبل كل شيء وفق الافكار والآراء المهيمنة لطبقة ما أو للمجتمع بأسره

وتعبر اوضاع الوعي عن نفسها دوماً في سلوك ونشاط البشر وعلى كل حال فان الوضع وتعيره الخارجي ليسا دوماً متطابقين ومن الممكن مثلاً ان تتأخر التعبيرات عن وضع ما للوعي تحدث لينين في حالات كهذه - وبخصوص الامزجة والاجواء - عن جواء مرتقنة ويمكن لاوضاع الوعي أيضاً ان تعبر عن نفسها بصورة ناقصة في سلوك البشر هذا الاختلال في التطابق بين محتوى اوضاع الوعي والتعبير الذي يتخذه في سلوك البشر يجب ان يؤخذ بالاعتبار عندما يحلل هذا أو ذاك من التكوينات الفكرية

وتشكل اوضاع زعمي الطبقات وسواها من الهيئات الاجتماعية صلة الوصل بين الوعي كعملية انعكاس للواقع وبين النشاط الواقعي الذي يستهدف تغيير هذا الواقع وبهذا المعنى تشكل اوضاع الوعي البنية النوعية الدينامية للوعي الاجتماعي

مراجع الفصل الخامس

- بليخانوف حول المفهوم المادي للتاريخ برلين ١٩٤٦ ، ص ١٨
- انجلز حرب الفلاحين الالمانية المؤلفات ، الجزء ٧ ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٣٤٣
- ٢ - ماركس - انجلز الايديولوجية الالمانية ص ٤٦
- ماركس ١٨ برومير ص ١٧٣
- ٥ - لينين رسالة الى الرفاق ، الاعمال ، جزء ٢٦ ، برلين ١٩٦١ ، ص ١٩٧ وما يليها
- بليخانوف حول المفهوم المادي للتاريخ ص ٣٢
- ٧ - كوفالسون النظرة الى العالم والاخلاق ص ٢٦
- ٨ - نفس المرجع
- ٩ - جروشيف الادمس الرئيسية لمطور الادراك الاجتماعي ص ١٦٣
- لينين رساله الى الرفاق ص ١٩٦
- جوركو أزمة الاخلاق الاميركية موسكو ١٩٥٨ ، ص ٢٧٦
- لينابرج معارك دون فملى فرانكفورت على الماين ١٩٦٠ ، ص ٣٠٦
- لينين يوم المرأة العالمي المؤلفات ، الجزء ٣٢ ، برلين ١٩٦١ ، ص ١٥٩

الفصل السادس

الروابط المتبادلة للوعي الاجتماعي

تشرط معرفة بنية الوعي الاجتماعي الى جانب شرح العناصر المكونة له وتحليل روابطها المتبادلة دراسة قوانين تطوره أي بنيته الإجمالية في الأدبيات الفلسفية عولجت بصورة مفصلة قضايا الدور المعين للوجود الاجتماعي بالقياس الى الوعي الاجتماعي ومسائل الاستقلالية النسبية للايديولوجيا واستمرارية تطور الظواهر الفكرية. وسواها من القضايا وفي نفس الوقت ليس هناك من وضوح منهجي بخصوص مسألة تصنيف الارتباطات المختلفة للوعي الاجتماعي وروابطها المتبادلة. وهذا عائق لا سبيلان به لدى الحصول على صورة متماسكة لـ الوعي الاجتماعي فضلا عن ذلك يؤثر النقص في تأسيس مبدأ التصنيف المنهجي لهذه الارتباطات على فهم الاشكالية العامة للوعي الاجتماعي ان مفاهيم القانون و النسق القانوني لا تستخدم بدقة كافية عند تطبيقها على الظواهر الفكرية ولهذا يعتبر كل واحد من الارتباطات القائمة. وبصوره دائمة تقريبا معبرا النسق القانوني لتطور الوعي الاجتماعي

تملك الوعي الاجتماعي ارتباطات وروابط متنوعة وعلى المرء ان تعامل مع هذه الارتباطات المختلفة بحثا وتحليلا وفي رأينا ان هناك حاجة لتأسيس مبدأ التصنيف المنهجي لمختلف أنواع الارتباطات وروابطها المتبادلة اذا كنا نريد حقا دراسة الوعي الاجتماعي

١ - الارتباطات القانونية للوعي والوجود الاجتماعيين

توصف القانونيه القائلة بألولويه دور الوجود حيال الوعي الاجتماعي وبلاستقلال النسبي للأيديولوجيا وباستمرارية تطور الافكار على انها قوانين سوسيولوجية عامة لتطور الوعي الاجتماعي ويبدو لنا ان تطبيق هذا المصطلح على القانونية المذكورة ليس كافيا لسببين اولاً لان صفة السوسيولوجي العام تطلق على تلك القوانين التي تنطبق على تطور المجمع بوصفه عضوية اجتماعية كاملة وليس على جوانب متفرعة منه ومع ذلك فان قوانين تطور الوعي الاجتماعي توصف هنا كقوانين سوسيولوجية عامة ثانياً ليس هذا المصطلح مناسباً لانه يحمل قوانين من انواع مختلفة فهناك حقاً قوانين لتطور الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي كذلك مثل قانون اولوية الوجود الاجتماعي ودوره المعين بالقياس الى الوعي الاجتماعي وهذا النوع من القوانين يصعب اعتباره قوانين تطور للوعي الاجتماعي

ثمة محاولات في الادبيات السوسيولوجية تنصبّ على ايضاح مسألة تصنيف قوانين الوعي الاجتماعي من خلال تقسيم القوانين السوسيولوجية العامة لتطور الوعي الاجتماعي الى نوعين وتعتبر من النوع الاول تلك القوانين التي تنظم (تحكم) تطور الوعي ، ومن النوع الثاني قوانين التطور النوعية المميزة لتطور الوعي الاجتماعي بوصفه ظاهرة فكرية هذا التقسيم يسمح لنا بالتمييز بين قوانين نوعية مميزة لتطور الوعي بوصفه ظاهرة فكرية وبين القوانين التي تتحكم بتطور الوعي وعلى كل حال فانه لا يوضح بصورة كافية تصنيف القوانين ، لان مصطلح القوانين النوعية المميزة « يستخدم هنا بمعنى مختلف عما هو شائع فمن المعروف ان صفة « نوعي مميز » تطلق على تلك القوانين الخاصة بأنماط متفرقة للوعي الاجتماعي وقد استخدم شيرشونوف هذا المفهوم لوصف الارتباطات الجوهرية التي يملكها الوعي كظاهرة فكرية تميزها لها عن تلك القوانين التي تعبر عن الارتباطات الجوهرية بين الوجود والوعي

الاجتماعيين وهو يدرس الوعي الاجتماعي وقوانينه على صعيد معرفي ويصل من ذلك الى استنتاج مجرد يقول ان هذه الظاهرة يمكن ان تحلل على الاصعدة الاخرى ايضا ولهذا فهو يعطي لمصطلح القوانين النوعية المميزة لتطور الوعي معنى مختلفا وينظر اليها كقوانين تطور للوعي ذاته ان استخدام المفهوم بهذا المعنى المختلف لا يخدم العلم بل يصعب الاحاطة بالمشكلة المطروحة

يحتاج استخدام مصطلح القوانين النوعية المميزة بخصوص الارتباطات الجوهرية الخاصة بالوعي كظاهرة فكرية الى التحديد عندما يكتب شيرشوف ان بعض القوانين تحكم تطور الوعي اي انها ارتباطات خارجية بالقياس الى الوعي الاجتماعي فهذا يعني ان القوانين الاخرى التي تصلح فقط لتطور الوعي ليست قوانين نوعية مميزة بل ارتباطات داخلية فحسب

ويحتاج وصف القوانين التي تعبر عن الارتباط المتبادل بين الوجود والوعي الاجتماعيين الى التحديد ايضا فليس بوسع المرء ان يعتبرها قوانين تحكم تطور الوعي الاجتماعي كما يقترح شيرشوف انها لا تحكم فقط تطور الوعي بل هي تعبر ايضا عن جوانب جوهرية لهذا الوعي نفسه ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي ويكسب من خلال ذلك بالضبط محتواه ويحدد تغير الوجود الاجتماعي وتطوره في المحصلة النهائية تطور وتغير الوعي الاجتماعي هذه التبعية بين الوجود والوعي الاجتماعيين هي شيء اكثر من مجرد احكام للوعي بواسطة الوجود

وحين نصف الروابط المتبادلة القائمة بين الوعي والوجود الاجتماعيين كقوانين سوسيولوجية عامة لتطور الوعي الاجتماعي فاننا نتهم عن حق بعدم الدقة ، لان هذه القوانين تميز تطور الوعي والوجود ايضا ومن المعلوم ان الوجود لا يحدد الوعي فحسب ، بل ان هذا ينعكس بدوره عليه ان الوجود يتطور ايضا تحت نفوذ الوعي الاجتماعي

يجب علينا ان نميز بدقة اكبر الروابط المتبادلة بين الوجود والوعي الاجتماعيين بحسب المجال الذي يظهران به فمنها ما يظهر في سائر التشكيلات الاجتماعية في حين يقتصر ظهور بعضها على تشكيلة واحدة فقط لذا فان النوع الاول من الروابط ذو صفة عامة ، والثاني ذو صفة خاصة .

ومن الضروري قبل كل شيء لدى تحليل بنية الوعي الاجتماعي إبراز الروابط ذات السبق القانوني بين الوجود والوعي الاجتماعيين هذا هام لأن الوعي يملك كما هو معروف تاريخاً قائماً بذاته ويتعين محتواه بواسطة الوجود الاجتماعي هذه هي المسألة المركزية في أطروحة ماركس وانظر حول الدور المهيمن للوجود الاجتماعي حيال الوعي ويحلل سيرشونوف بالاسناد الى أطروحة ماركس وانظر أسس تنحية الوعي للوجود الاجتماعي ويؤكد ان هذا القانون يتصف بضرورة تحم على السر ان يفكروا بهذه الطريقة وليس بتلك وان درجة عمق الانعكاس يرتبط بوضوح العلاقات الاجتماعية والوجود الاجتماعي للبشر ان وعي السر هو نتيجته لباثير هذا القانون وجودهم الذي صار وعيه

بعبارة قانون الدور المهيمن للوجود الاجتماعي حيال الوعي عن رابطة الوجود بالوعي فقط في حين تتم الاطاحة بالرابطة المتبادلة بين الوعي والوجود عبر قانون التأثير العكسي للوعي على الوجود الاجتماعي ويبدو لنا ان هذين القانونين يجب ان بصاغا في قانون واحد لانه من الصعب تحليلهما كقانونين مستقلين

الى جانب القانون السابق هناك قانون الاستقلالية النسبية للايديولوجيا فما هو محتوى هذا القانون عندما نلقي نظرة على الادبيات التي تدرسه سيتضح لنا انه يشمل سائر الروابط القائمة بين الوجود والوعي الاجتماعيين وروابط داخلية كثيرة للوعي الاجتماعي مثل استمرارية تطور الافكار او الروابط المتبادلة لانواع الوعي يقول ستيبانين

« ان مفهوم الاستقلالية النسبية للوعي بعبارة قبل كل شيء عن تبعية العيشة الفكرية للبشر لحياتهم المادية » (٢) « ويعبر المفهوم أيضا عن خصوصية تطور وتكون الاشكال الايديولوجية بالقياس الى تطور وتكون الظروف الاقتصادية للمجتمع » (٢)

ويحلل المؤلف هذه الخصوصية ، ويلفت الاهتمام الى التأثير المتبادل لاشكال الايديولوجية واستمرارية الارتباط في تطور هذه الاشكال وبقاء وعي البشر خلف وجودهم الاجتماعي وقدره الوعي الاجتماعي على استباق مجرى تطور الواقع تم يضيف

« ان مفهوم » الاستقلالية النسبية للايديولوجية يعكس في الغتام قدرة الوعي الاجتماعي على التأثير العكسي على الوجود الاجتماعي ، وعلى تطور الحياة المادية للمجتمع وسير العملية التاريخية » (٢)

كما يطرح نفسه السؤال سالي اذا كان التأثير العكسي لموعي على الحيز المادي للمجتمع والارتباط المستمر في تطور شكل الايديولوجيا وتختلف وعي البشر عن الوجود الاجتماعي وسواها تعبيرات عن الاستقلالية النسبية للايديولوجيا وقوانين لتطورها الا تصبح الاستقلالية النسبية للايديولوجيا قانونا خاصا الى جانب القوانين المذكوره

في رأينا الاستقلالية لنسبية للايديولوجيا ليست قانونا على الاقل حين نطبق مفهوم القانون بدقة بل هي تعبر عن خصائص المظاهر الفكرية فيما يخص سوءها وتعيرها وطراز عملها

عندما عارض كلاسكا الماركسيه نظراتهم حول انحسار تفكر المجتمع نظرات المثالية فانما ظللوا الفكر التي تقول بأولوية الوجود الاجتماعي على الوعي الاجتماعي وتشتبه بالنالي منه أي انها بررا امتلاك الوعي الاجتماعي لاستقلالية نسبية رغير كامسلة حبال الوجود الاجتماعي وفي نفس الوقت اكدا - في مواحهة تناول مادي سوقي لمسالة العلاقة المتبادله بين الوجود والوعي الاجتماعيين - فكرة الاستقلالية نسبية للظواهر الفكرية وقد اعاد على ان الوعي يسع فعلا للوجود الاجتماعي غير انه يتطور وسعير نوابيه الداخلية واكدا على الدور الفعال الذي تلعبه بالنالي التكوينات الفكرية في حياة البشر اذ الكشف عن استقلالية الايديولوجية النسبية يعني ايضاح خصائص هذه الظاهره نما في ذلك موانين تطورها الداخلي ومن غير المرور اعصار الاستقلالية النسبية للايديولوجية قانونا لتطور الوعي الاجتماعي

تتطلب الاستقلالية النسبية الخاصه بالوعي الاجتماعي كشف الروابط القانونية القائمة بين الوجود والوعي الاجتماعيين أي تلك القوانين التي تسمح لنا بصياغة مفاهيم حول نشوء الوعي والتاثير المتبادل بين الوجود والوعي ونتائج المتجلية في تطورهما والامر الرئيسي في هذا السياق هو اكتشاف قوانين تطابق الوجود والوعي الاجتماعيين . هذه القوانين

لا تذكر في العادة لأنها تطمس بالقانون العام الذي يقول بالاستقلالية النسبية للأيديولوجيا بيد أنها توجد في الواقع العملي ويعود طموح الوعي نحو التواءم مع الوجود الاجتماعي الى فعلها

ويرتبط فعل قانون التطابق بين الوعي والوجود الاجتماعيين بفعل تلك الاتجاهات من مثل تخلف وعي البشر وراء وجودهم تفاوت تطور هذا الجانب أو ذاك من جوانب الوعي و السبق الذي يحزره الوعي النظري المتقدم حيال سير تطور الواقع

في سائر التشكيلات الاجتماعية ما قبل الاشتراكية كان وعي البشر لا يعبر تماما عن وجودهم بل كان يحتوي دائما على كمية من الاوهام والاختفاء ذلك كان يعود الى ان وعي الطبقة السائدة كان يفرض على المجتمع بأسره مثل هذا الوعي الذي ظهر كوعي للمجتمع اجمالا لم يكن قادرا على تمثيل الروابط الواقعية بين البشر بصورة صحيحة وبقي بهذا المعنى وراء الوجود الاجتماعي

لقد عززت الطبقات السائدة اذن تخلف الوعي عن الوجود الاجتماعي. بان حالب دون الوصول الى معرفة حقيقية للعلاقات الاجتماعية الواقعية. وفي ظروف التشكيلات الاجتماعية السابقة للاشتراكية لا يتطابق الوعي بأي حال مع العلاقات المادية وقد أضفى ممثلو مصالح المجتمع البرجوازي مسحة من المثالية على هذا النظام الجديد في فترة نشوئه وازدهاره

ويبدو تحلف الوعي عن الوجود الاجتماعي في وعي بعض افراد المجتمع الاشتراكي ممن لا زالوا يحتفظون بتصورات وآراء تميز المجتمع القديم وفي الواقع فان الوعي الموروث عن الماضي لا يتوافق مع العلاقات الاجتماعية التي تشكلت في الاشتراكية

تضع الثورة الاشتراكية الاساس لتكون الوجود الاجتماعي الجديد وبالعكس سائر انماط الانتاج السابقة فان الانتاج الاشتراكي لا ينشأ عفويا، بل هو يتطلب النشاط الواعي للبشر واقامة علاقات انتاج تتوافق مع حاجات القوانين الاجتماعية الموضوعية ان اقامة الوجود الاجتماعي الجديد يعني بنفس الوقت تكون وعي اشتراكي لدى البشر

وتشكل مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مرحلة تكون الوجود والوعي الاجتماعي الجديدين ووجهة تطابقهما الضروري أيضا ،

الذي يملك وجهين فمن جهة تتحقق أفكار الاشتراكية العلمية في الوجود الواقعي للمجتمع أي أن العلاقات الاجتماعية تكون تحت تأثير سياسة مغللة علميا ومن جهة أخرى تتحدد التصورات النظرية حول الاشتراكية على أساس البناء الفعلي للمجتمع الجديد فيفني انتصار الاشتراكية في الاقتصاد والحياة السياسية والاجتماعية انتصارها أيضا في الحياة الفكرية وخلق التوافق الضروري بين الوجود الاجتماعي الاشتراكي والوعي الاشتراكي

تتطلب مسألة طبيعته ودرجه التوافق بين الوجود والوعي الاجتماعيين لهذه أو تلك من مراحل تطور المجتمع الاشتراكي دراسة عيانية وتدبر الأبحاث على أن هذا التوافق لا يكون تاما في كل الأحوال ومن المعروف مثلا أن بعض العلماء كانوا ينكرون وجود الانتساج السلمي وتأثير قانون القيمة مع انهما موحودان في الواقع العملي كما كانت نظرية انعدام الصراعات منشرة في الأدب والفن مع أن الواقع كان غنيا بالتناقضات. هذا يدل على أن ثمة حالات تنتشر فيها تصورات كثيرة حول اشتراكية من صنع الفكر وليست من فعل الواقع هنا كان التوافق بين الوجود والوعي الاجتماعيين مختلفا

وفي رأينا أنه توجد حالات لا يتخلف فيها وعي القسم المتقدم من المجتمع عن الوجود الاجتماعي بل تتخلف فيها العلاقات الواقعية فسي الانتاج وسواه من مجالات الحياة عن مستوى متقدم للوعي من الممكن إذن أن يحدث في الاشتراكية أيضا تخلف الوعي بالوجود والعلاقات الاجتماعية عن الوعي الجماهيري أن بناء الاشتراكية هو عملية معقدة تستهدف إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية ووعي الروابط المتبادلة بين الوجود والوعي الاجتماعيين هي بالضرورة معقدة ومتناقضة. ويؤدي اضمحاض طابع مثالي على التوافق بينهما إلى احتقار أهمية الدور الذي يلعبه العمل الأيدولوجي والتنظيمي بين الجماهير

تطرح قضية تخلف الوعي الاجتماعي عن الوجود الاجتماعي عادة بـلا ارتباط مع تحليل أسباب استمرارية مخلفات الماضي في وعي بعض أفراد المجتمع الاشتراكي وينطلق الباحثون الذين يدرسون آثار الماضي من أن الوجود الاجتماعي ذو طبيعة اشتراكية بينما لا تزال توجد فسي وعي البشر تصورات وآراء سابقة للاشتراكية . ويستنتجون عادة أن

بمآء هذه المآلفات هو تعبير عن تخلف الوعي وراء الوجود الاجتماعي الاشراكي وان السبيل الوحيد للخلاص منها هو طريق التنوير والتربية.

والحال ان تصورات وآراء البشر لا تستمر بفعل النزعة المحافظة للتقاليد والعادات بل هي تملك أساسا في مجال الاقتصاد وفي نمط الحياة اللذين تركهما الرأسمالية للاشتركية ويجب على عملية التغلب على مخلفات الماضي في وعي البشر بواسطة العمل التربوي الكثيف ، ان تفرن أيضا بازالة مخلفات العلاقات الاجتماعية القديمة

ويضح مما قلناه حول الخصائص التي يظهر تخلف الوعي عن الوجود الاجتماعي في ظلها ان الاتجاه نحو تخلف الوعي السائد في التشكيلات الاجتماعية قبل الاشراكية ليس مهيمنا في النظام الاشتراكي ان التوافق بين الوجود والوعي الاجتماعيين هو هنا وبالمقارنة مع التشكيلات الاجتماعية السابقة ذو طبيعة مستقرة

في سائر التشكيلات الاجتماعية السابقة للاشتركية يمكن ملاحظة تطور غير متسق لحوانب الوعي الاجتماعي المختلفة ويتحدد تأثير هذا الاتحاد بالارتباط غير المتساوي للعناصر التي تكون الوعي الاجتماعي مع الوجود الاجتماعي وتوجد بعض هذه العناصر في ارتباط مباشر مع الوجود الاجتماعي وهي تعكسه بالتالي ، في حين تتعين العناصر الأخرى، وفي السياق النهائي فقط بالوجود الاجتماعي

هكذا يمل الوعي السياسي - والسياسة اجمالا - التعبير الأكثر تركيزا عن الاقتصاد ومن الجلي ان هذا النوع من الوعي يعكس بسرعة كبيرة التبدلات التي تصيب الوجود الاجتماعي ويبدأ الثهوض الجذري في وعي البشر اللذين يعيشون في مجتمع طبقي دوما بتغيرات في وعيهم السياسي

تمتاز سائر أنماط الوعي الاجتماعي بتفاوت تطورها ويشمل ذلك الوعي الاشتراكي أيضا الى جانب الأساس المعرفية توجد أيضا أساس اجتماعية منها التفاوت في عملية نضج أنواع معينة من العلاقات الاجتماعية التي ترتبط بها أنواع مطابقة من الوعي وتؤكد مقارنة الاخلاق والحقوق في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية هذه التبعية بصورة مقنعة . ففي مرحلة الانتقال ترسخ علاقات الإنتاج الجديدة قبل

كل شيء بواسطة القوانين بعد ذلك تتكوّن المعايير الاخلاقية المطلوبة بقدر ما يزداد البضج الفكري والاقتصادي المجتمع الجديد ومع انتصار الاشتراكية تبدل العلاقة المتبادلة بين الحقوق والاخلاق فيبقى الاتجاه المذكور لتخلف الاخلاق عن الحقوق بيد انه يظهر اتجاه جديد يتجلى في ان الحقوق نفسها تبدأ في التخلف حزياً عن مواكبة التغير الذي يصيب العلاقات الاجتماعية ، كما تتخلف عن المعايير الاخلاقية التي تأخذ بالتأصل. والتي تطرح متطلبات أعلى من المتطلبات الحقوقية على سلوك الافراد

ويرتبط التفاوت في تطور الوعي الاجتماعي بالسروط الذاتية أيضاً. فيؤدي اهمال هذا الجانب أو ذلك من الحياة الاجتماعية في العمل الايديولوجي والتنظيمي الى تخلف الوعي في التعبير عنها وانقطاعه بالمالى عن التطابق مع مستوى التطور الذي بلغته العلاقات الاجتماعية

وعبر التفاوت في تطور الوعي عن نفسه في امتلاك الفئات المختلفة. التفاوت لمكتسبات الوعي الاجتماعي فمن المعروف ان الافكار تعبر غالما بصوره متفاوتة من قبل البشر والفئات الاجتماعية المختلفة تملك عادات وتقاليد نوعية مميز الى جانب العادات والتقاليد المسركة الشعب سرده وهذا امر مطلق فالطبقات والفئات الاجتماعية تشكل تاريخاً والفروق القائمة بينها في مجال الوعي كما في سواء لا يمكن تختفي بضربة واحدة من المهم اذن دراسة هذه الفروق ومراعاتها في عملية التربية

هذا التفاوت في تطور الوعي يرتبط في الاشتراكية بعوامل ذاتية اكثر مما يرتبط بعوامل موضوعية ولا شك ان معرفة العناصر الموضوعية والذاتية التي تتسبب بهذا التفاوت تمكننا من تجاوزه بواسطة العمل التنظيمي والايديولوجي الخ

ويملك استباق الوعي للوحد الاجتماعي خصائصه المميزة في الاشتراكية أيضاً في السابق كان الوعي النظري للطبقات التقدمية فقط قادراً على التحاور الفكري للنظام الاجتماعي القائم وبمقدار ما كانت مصالح هذه الطبقات تتناقض مع المصالح الاجتماعية أي مع الضرورات الموضوعية بقدر ما كانت عملية الاستباق تفقد تأثيرها وتنقطع مثل هذا العائق سقط في الاشتراكية لان المصالح الطبقية الاشتراكية تتطابق مع المصالح الاجتماعية وتعتبر حاصية الاساق عن نفسها في

ظروف الاشتراكية من خلال الفنى والعمق اللذين تكتسبهما ، فتحتل
الايدولوجية العلمية والعلم المكان الرئيسي ضمن الوعي الاجتماعي
ويصبح الاستباق الفكري للتطور الاجتماعي ممكنا ، وتصاغ فعالية البشر
بالتوافق مع خطط معللة نظريا ، لتوجيه التطور الاجتماعي اقتصاديا
 واجتماعيا وثقافيا وهذا الاستشراف يكون ماهية « الاستباق » العقلاني
الذي يقوم به الوعي حيال الوجود الاجتماعي

٢ - الروابط القانونية الداخلية للوعي الاجتماعي

ثمة وجهة نظر تعتبر الاستقلالية النسبية للابديولوجيا قانونا داخليا لتطور الوعي وهناك من لا ينظر الى هذه « الاستقلالية النسبية » بوصفها قانونا داخليا ان شورافلوف ، على سبيل المثال ، يعتبرها واحدا من اهم القوانين السوسيولوجية العامة لتطور الوعي الاجتماعي وهو يقسم سائر القوانين السوسيولوجية العامة الى فئتين يجمع في الاولى القوانين التي تؤثر مباشرة على الوعي وفي الثانية قوانين تطوّر الاساس المادي للمجتمع كقانون وحدة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج وغيره من القوانين التي تحتاج الى واسطة لكي تؤثر على الوعي الاجتماعي اما بخصوص القوانين الداخلية الخاصة فانها قوانين تعكس الوجود قوانين وعي المحتوى المشيئ للعالم الموضوعي وايضا قوانين تمثل التطور الداخلي لاشكال الوعي قوانين صياغة السواقع المنعكس (٣) السؤال الآن لماذا سمي شورافلوف هذه القوانين «داخلية» و «خاصة» ؟ اذا كان نقيسها بالقوانين السوسيولوجية العامة فمن البدهي انها داخلية وعدئذ نساءل عن القوانين التي تعتبر هذه خاصة بالمقاربة معنا فضلا عن ذلك تمثل القوانين الداخلية الخاصة حسب التعريف قوانين انعكاس الواقع هل ترى لا تمثل فواصل الروابط المتبادل بين الوجود والوعي الاجتماعيين مثل هذا الانعكاس الوجود واين تكمن خاصية النوع الاول من القوانين بالقياس الى هذه

ثمة اسئلة اخرى كثره تطرح نفسها حين نأمل شورافلوف آلية التأثير المتبادل بين القوانين السوسيولوجية العامة قوانين التطور الداخلي للوعي الاجتماعي وهو يقول ان سائر القوانين السوسيولوجية العامة تؤثر على الوعي الاجتماعي من خلال فوائده الداخلية الخاصة (٣) في حين تحرر القوانين الداخلية بدورها تأثيرها على ارضية القوانين السوسيولوجية العامة ههنا سؤال كيف تؤثر بعض القوانين من خلال بعضها الآخر ؟ اذا كان الامر على هذه

الصورة فان القوانين الداخلية لن تكون سوى الشكل الظاهري للقوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية لا يمكن أن تكون مثل هذا الشكل الخارجي لانها تنسحب فقط على مجال الوعي بينما تشمل القوانين السوسيولوجية العامة سائر جوانب الحياة الاجتماعية

ترتبط المصاعب الناشئة لدى فهم التأثير المتبادل بين القوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية للوعي الاجتماعي بتفسير شورا فلوب للقوانين الداخلية بوصفها قوانين انعكاس الوجود انه يزعم ان القوانين الداخلية تندرج فقط على خصائص انعكاس الوجود عبر الوعي ويحاول بمساعدة هذه الخصائص أن يكشف النوعية المميزة للتأثير المتبادل بين القوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية وهو يعتقد ان نمط الانعكاس اللصيق بهذا أو ذاك من أشكال الانعكاس هو أمر الاساسي والحاسم ان أشكال الوعي الاجتماعي تعكس الوجود الاجتماعي وتتعين في السياق النهائي بفعل قوانينه ومع ذلك فان لتبعية محتوى أشكال الوعي المختلفة للعمليات الاجتماعية الموضوعية وفي طليعتها التطور الاقتصادي حدودها التي ليست فيما يخص كل شكل من أشكال الوعي مجرد شيء ظاهري بل تتعين من خلال النسوع والطرز المميز لكل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي الذي تعكس به الواقع (٣) نتج عن ذلك ان محتوى أشكال الوعي تابع في حدود ما لطرز الانعكاس أليس ذلك مبالغة ؟ يبدو لنا ان محتوى كل شكل من أشكال الوعي (نوع الوعي) يتعين تماما من قبل الواقع نفسه حتى لو كان اكتمال وعمق الانعكاس مختلفا في الاشكال المختلفة للمعرفة

والصفة النوعية المميزة للانعكاس كما تظهر لدى تحليل أشكال المعرفة يجب أن تراعى أيضا لدى شرح التأثير المتبادل بين الانواع المختلفة للانساق القانونية غير انه من الصعب ايضاح الخصائص المميزة للقوانين الداخلية عبر وجود أنماط انعكاس مختلفة دون مراعاة ان الوعي الاجتماعي يلعب دورا فعالا وان سائر أنواعه ومجالاته تحقق وظائف مختلفة ان كل محاولة لدراسة القوانين الداخلية دون اعتبار لهذه الحقائق تؤدي الى مفهوم يعتبرها اشكالا ظاهرية فقط للقوانين « السوسيولوجية العامة بصفتها القوانين الوحيدة الفعالة والمؤثرة .

نحسب ان يكون الارتباط بين القوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية موضوعا لدراسة مستقلة ويمكننا القول في هذه العجالة ان تأثير لقوانين السوسيولوجية لا يمكن ان يسمح الى مجرد تأثير من خلال القوانين الداخلية كما ان هذه ليست مجرد اشكال ظاهرية لتلك ونحن نعامل ههنا مع نوعين من القوانين ننسب نوعها الاول على دراسة التأثير المتبادل للوجود والوعي الاجتماعيين ويركز نوعها الثاني على دراسة الوجود المخلفة للوعي الاجتماعي نفسه ولا يجوز بنا ان نربط هذين النوعين من القوانين ربطا حامدا فيما يملكان استقلاليه سسبه عن بعضهما فضلا عن ذلك فاننا لسنا مام نوعين بل امام ثلاثة انواع من ساق القانونيه ذات الدرر المتبادل فهناك الى جانب القوانين العامة للرباط المتبادل الوجود والوعي الاجتماعيين والقوانين الداخلية العامة التي تعبر عن روابط الجوهرية بين جوانب الوعي الاجتماعي خاصة بالانماط التاريخية للوعي هذا يعني انه وحده ههنا حظ واحد تربط القوانين السوسيولوجية العامة بالقوانين الداخلية بل خطوط متعددة القوانين العامة للروابط المتبادلة بين الوجود والوعي من جهة والقوانين لداخلية العامة من جهة ثانية وبالقوانين العامة للوجود والوعي والقوانين النوعية المميزة المطابقة لهذه الروابط في تشكيلة اجتماعية معطاة وبين القوانين الداخلية العامة والقوانين الداخلية الخاصة وههناك روابط كثيرة من هذا نوع نحسب على الساحب ان لا نضع في محذ تسيتها

تعرض قوانين التطور الداخلي للوعي الاجتماعي الارتباطات والروابط الجوهرية بين عناصره ونحن نصنفها كقوانين داخلية لان تأثيرها يقتصر على مجال الوعي دون سواه

وتكمن الصفة النوعية المميزة لقوانين الوعي الداخلية في انها تعبر حديا عن الروابط بين انواع نشاط الشر وأنواع علاقاتهم وبشكل عام يمكن تمييز ثلاث فئات من هذه القوانين أولا قوانين الروابط المتبادلة بين نواع الوعي الاجتماعي وتبدو بشكل خاص في عملية تشكل اوضاع الوعي ثانيا قوانين الروابط المتبادلة بين محالات الوعي وتظهر في التمازج المتبادل لمحتواها والتكامل المتبادل لوظائفها ثالثا الروابط المتبادلة بين الانماط التاريخية للوعي الاجتماعي وتعبر عن نفسها في استمرارية الافكار والآراء وسواها من المكونات الفكرية لقد أبرزنا

لدى معالجة اوضاع الوعي ونشوتها خصائص الروابط المتبادلة لانواع الوعي ومرربا على الروابط المتبادلة لمجالات الوعي الاجتماعي وهنا نود فقط أن نشير الى قانون داخلي يتجلى في قابلية وظائف محالات - وانواع - الوعي الاجتماعي للنادل فمن المعروف أن وظيفة العلم هي معرفة العالم. ولكن بعض الانواع الاخرى للايديولوجيا تملك ايضا هذه الوظيفة هذا يعني انه تصاغ في الايديونوفا ايضا معارف حقيقة حول الواقع وبالاصل فان الايديولوجيا تعبر بهذا القدر او ذاك تعبيراً صادقاً عن المصالح الطبقية والا لما كان بوسعها أن تخدم الطبقات ولما قلتها هذه كوعي خاص بها ومميز لها

وتصلح مقاييس الحقيقة التي تعتبر أساسية بالنسبة للعلم للتطبيق على المبادئ النظرية التي تشكل جزءاً من كيان الايديولوجيا غير أن الايديولوجيا تشتمل ايضا على مبادئ معينة ونظام للقيم المعمول بها وشروط تحققها وتعليل برامج العمل الح

أن الايديولوجيا والعلم هما مجالان مختلفان للوعي الاجتماعي ذلك لا يعني انهما لا يترابطان مع بعضهما فالعالم يتخذ دوما نظرة الى العالم هي نظرة طبقية معينة وتفتح النظرة الماركسية الى العالم آفاقاً غير محدودة لامكانية المعرفة وفي نفس الوقت تمثل المبادئ العلمية بدورها المكون الجوهرى للايديولوجية الماركسية

أن العلمية هي العلامة الجوهرية وأن لم تكن العلامة الوحيدة للايديولوجيا أي أن الدور التقدمي أو الرجعي للايديولوجيا لا يرتبط فقط بمدى الفائدة التي قدمها واضعوها للعلم وتحدد درجة استخدام العلم في بناء ايديولوجية ما بمدى تقدمية أو رجعية المصالح الطبقية الموضوعية التي تعكسها

يمكن للعلم ومبادئه المتفرقة أن يمارسا اذن وظيفة ايديولوجية وهما يمارسان هذه الوظيفة فعلاً ولكنهما لا يفعلان ذلك بما هما علم بل فقط عندما يندمجان في نظام ايديولوجي معين أي حين يستخدم العلم من طبقات معينة ولمصلحتها

لا يمكن لنا أن نوافق على ما يذهب اليه بعض العلماء من أن كل ايديولوجية تمثل وعياً زائفاً أن عالم الاجتماع اليوغوسلافي لوكيك يفهم الايديولوجيا على هذا النحو وهو يعتقد أن البرجوازية لا تنفرد في امتلاك

وعى رائف بل ان البروليتاريا مل هذا الوعي البروليتاريا في صيغته الاشتراكية الطوباوية ويضيف ان الاسرائكية العلمية تمثل تحرير البروليتاريا من قيود أي تفكير ايديولوجي ان الايديولوجيا تبدأ بالتلاشي مع تلاشي الطبقات وقد انعقد تصور لوكيك كاتوبيا لانه يفترض ان سائر التناقضات ستختفي من المجتمع سيبا فشيئا وعلى كل حال فان آراء لوكيك تعيد احياء التصورات الرجوارية حور الايديولوجيا كما سق لكارر مانهايم ان صاغيا في حيه فقد كان يعتقد ان الايديولوجيا هي النظر الضيقة والمحدودة الى العالم لطقة ما وهي عازرة عن ان تعكس موضوعيا الواقع

لدى النصدي لعد مانهايم حب التاكيد على ان الماركسية هي ايدولوجية علمية وانها بعكس الايديولوجيات الرجوارية غير العلمية انعكاس حقيقي للواقع وعلى المرء ان يؤكد ايضا ان الايديولوجيا تمارس كظاهرة فكرية وظائف نوعية مميزة يمكننا تحليلها من فيه وتقييم هذه الظاهرة بصورة صحيحة ان مانهايم يفترض في أطروحاته حول النظرة الضيقة والمحدودة الى العالم ان المصالح الطبقية معزولة وانها لا ترتبط مع المصلحة الاجتماعية الخ وان المصلحة الاجتماعية لا توجد بالاساس على الاطلاق ولكنه يوجد في الواقع ترابط بين هذه الانواع من المصالح وتتعين المصلحة الاجتماعية قل كل شيء ضرورة تطوير القوى المنتجة وتتطابق مصلحة الرجوارية في مرحلة صعودها تطابقا حزيا مع مصلحة المجتمع هذه غير انها في مرحلة لاحقة تعارضت معها أما مصلحة البروليتاريا فيى منذ البداية مطابقة مع مصلحة الاغلبه لار البروليتاريا لا تحرر نفسها كطعة فقط من الاسفلار بل تحرر معها المجتمع ايضا وهي تسيطر على سلطة السياسية ليس من أجل اضطهاد الطبقات الاخرى بل من حل الغاء السطرة الطبقية برميا

وتس ايدولوجية البروليتاريا كنظره علميه او كتعبير نظري عن الحركة البروليتارنية الموحدة عن الصراع الطبقي للبروليتاريا ويسع الطابع العلمي للماركسية من ان علاقات الاساج الاشتراكية لا يمكن ان تنش عفويا داخل المجتمع الرجوازي بل بحب عرضيا نظريا واكشاف قوانين التطور الموضوعي للمجتمع وتحديد الاتجاه الذي تتحرك الراسمالية فيه موضوعيا

وتعارض ايدولوجية البروليتاريا سحتواها مع سائر ايدولوجيات

الطبقات المستغلة التي كان هدفها تخليد الاستغلال والسيطرة الطبقة
انها السلاح النظري في النضال ضد الرجوازية والردات الفكرية لتنظيم
البناء الاشتراكي وتوحيد الكادحين هذه هي وظائفها في المجتمع
الاشتراكي وهي تحققها بقدر ما تستند الى العلم

لدى دراسة مسألة التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا
الاجتماعية اكدنا على انه اوسع من مجرد النفوذ المتبادل للأفكار والمشاعر
وانه يمتد الى تكامل وظائف الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية الذي
تجلى في تأثيرها المتبادل مع الوجود الاجتماعي هذه الاطروحة جوهرية.
ولهذا فاننا سنقدم بعض الشروح لها

تنتشر الايديولوجيا بين الجماهير ويمثل امتلاك هذه الطبقة أو تلك
لتصورات وأفكار ايديولوجية وقولها لها كبرنامج عمل وتحسيد
وتحقيق هذا البرنامج عملية موضوعة للايديولوجية عملية فحص
تاريخي لمدى تطابقها مع التطور الاجتماعي

وتبنى طبقة أو فئة اجتماعية ما ايديولوجية ما حين تتوافق هذه
بدرجة معينة مع تجربتها التاريخية ومشاعرها الاجتماعية ويرافق
امتلاك الايديولوجية مع تجسيدها وفق الظروف المعطاة وحسب الخصائص
السيكولوجية للمجموعة الاجتماعية المعنية حيث يحدث تمازج متبادل
للعناصر الايديولوجية والسيكولوجية تتحول على أساسه المواقف والمثل
والمبادئ والشعارات العامة الى دليل عمل للمجموعة الاجتماعية المعنية

ويتجلى الترابط بين الايديولوجية والسيكولوجية الاجتماعية منذ
نشوء الايديولوجيا فضمن كأحد عناصرها المكونة تعبيرا أكثر
وضوحا عن ذلك التقييم للواقع وعن تلك التجربة التاريخية للصراع
الطبقي اللذين يكون قد سبق لهما أن تكونا في الواقع بصورة عفوية
الاحتجاج مفهوم العدالة الطموح نحو مستقبل أفضل

وفي سياق التأثير المتبادل لمحالي الوعي هذين يحدث اختيار نوعي
تأخذ الايديولوجيا في مجراه ما هو جوهري بالنسبة للطبقة المعنية ونضالها
الاجتماعي من بين القضايا الكثيرة التي تكون محتوى السيكولوجيا
الاجتماعية وعلى سبيل المثال تتجاوز الايديولوجيا الثورية للطبقة العاملة
العناصر التريدينونية في سيكولوجية الرولنتاريا . أخذة في نفس

الوقت أفضل سماتها كالسلوك الثوري والتماسك والتنظيم
والحسم في الصراع وتعر عنها

ويعبر الترابط بين مجالي الوعي هذين عن نفسه في تغير الايدولوجيا
تحب نفوذ السيكلوجية الاجتماعية هذا يمكن أن يكون ناتجا للتغير
الذي يصيب الظروف الاجتماعية وبنية المجتمع والذي يتجلى أولا في
السيكلوجية الاجتماعية وهذا التغير يتوضع في أوضاع الوعي
الاجتماعي مثل الامزجة الشعبية والرأي الاجتماعي

ويتحقق التأثير المتبادل بين الايدولوجية والسيكلوجية الاجتماعية
في الانواع المختلفة للوعي الاجتماعي التي تمارس وظائف ايدولوجية
وسيكولوجية ويملك كل نوع من الوعي الاجتماعي على كل حال
انماط نوعية مميزة للارتباط مع الواقع أدوات ذهنية مؤسسات
وتنظيمات يرتبط النوع المعين من الوعي بها يحقق وظائفه بمساعدتها
من هذه الادوات الفكرية يمكن أن نذكر السلطة العرف التقاليد
المعايير الاخلاقية الرأي الاجتماعي الخ

وتملك السلطة داخل الوعي الاجتماعي استقلالية نسبية وخاصة
ابان عملية تشكل الرأي الاجتماعي ومن المؤكد مثلا ان السلطة تلعب دورا
معينا في عملية نشر الاخبار عبر وسائل الاعلام الجماهيري وتغدو مادة
الاعلام غالبا موضوعا للمناقشة حين تطرحها سلطة ما التداول الشفوي.
ان الظواهر المسماة للوعي الاجتماعي يمكن أن تعبر عوامل فكرية
نتحقق بمساعدتها التأثير المتبادل بين الايدولوجيا والسيكلوجيا
الاجتماعية كما تعتبر في نفس الوقت ناتجا ويمكن اعتبار وسائل
الاعلام المعروفة جزءا من الادوات التي يتحقق بمساعدتها التأثير المتبادل
للظواهر التي ذكرناها

مما قلناه حول قابلية تبادل أدوار التكوينات الفكرية وتكاملها كسمة
جوهرية لتأثيرها المتبادل نستنتج ان الوعي الاجتماعي ربما انقسم الى
مجالات وأنواع مختلفة الا انه يحقق وظائفه في العادة كوحدة واحدة

ويمكن الارتباط الاستمراري للأفكار والنظرات في تطور الانماط
التاريخية للوعي الاجتماعي في ان الثقافة الفكرية لاي مجتمع جديد
لا تتطور في فراغ بل تقتبس من الماضي كل ما يوافق ومصالح الطبقات
السائدة في هذا المجتمع . خلال ذلك تحدث عملية « اعادة تقييم للقيم

يكون سيحها التناول الففءى لكثير مما حللته العصور الماصية ومواءمه مع الوضع الجفءى

وتسمح اسمراريه نظور الانمياط التاريخية للوعي بههم صحيح لكثير من ظواهر الحياء الفكرية التي ما كان ايضاحها بالامر السهل عند الانطلاق من المقولة الخام حول عكس الوعي للوجود وعلى سبيل المثال فانه لا يكفي لايضاح وقائع تاريخية كتطور الفلسفة الالمانية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في هذه السلاء المتأخرة اقتصاديا وسياسيا فهم سباب الازدهار الفكري لروسيا المتأخرة في القرن التاسع عشر معرفة الظروف الداخلية لهذين البلدين فهي لوحدها لا توضح الوقائع المذكورة في أعمال ماركس وانجلز وليسين ثمه براهين دامعة على ان بلدانا متأخر اقتصاديا تستطيع بتأثير التواصل الاستمرارية لمارخي للافكار تلعب في مراحل تاريخية معينة دورا طليعيا في تطور التفكير الاحماعي

ان الاسمراريه التواصل لماريخيه في تطور الثقافة الفكرية تملك حصائص تجعلها تتحلل في سائر التشكيلات الاجتماعية هكذا تتذبذب تطور التشكيلات الاجتماعية ذات الطبيعة التناحرية بين صعود وهبوط وهو امر يعكس على أشكال تطور اسمرارية الثقافة الفكرية خلال فترات الصعود تطمح الطبقات السائدة الى الاساء على ما هو تقديمي ومتقدم في ثقافة الماضي في حين تتسلح نكل ما هو رجعي في الماضي عندما ينهار مجتمعا ان المحتمع الرجوازي لراهن يظهر هذا الميل في الفلسفة والفن والاخلاق وسواها من محالات الحياة الفكرية

٣ - الروابط القانونية النوعية للانماط التاريخية لنوعي الاجتماعي

كل نمط تاريخي للنوعي الاجتماعي يخضع لتأثير فواين عامه وصفات
نوعيه مميزه وتحدد القوانين النوعية من خلال نمط الانتاج السائد
والعلاقات الاجتماعية السائدة المعطاة وترر كقوانين نوعية مميزة
الروابط بين الوجود والنوعي الاجتماعيين والقوانين الداخلية التي تعبر
عن الروابط المتبادلة عناصر الوعي الاجتماعي في كلا الحالتين تعتبر
القوانين النوعية ومميزه بالمقارنة مع الروابط القانونية العامة الوجود
والوعي وفيما يخص الروابط القانونية العامة لعناصر الوعي الموجوده
في كل انماط الوعي الاجتماعي

ما هي القوانين النوعية المميز لنمط الوعي الاسرائي في كتاب
مناخا تطور الوعي الاسرائي سم المميز بين ثلاثة قوانين قانون
الطور الهادف والمخطط للوعي الاسرائي وقانون التعارب بن الوعي
المظري واليومي وقانون وحد اشكال الوعي الاجتماعي (١) وفي كتاب
ناريج الفلسفة تذكر قوانين التطور النوعية المميزة التالية قانون
مورد الاسرائية في مجال الايديولوجيا والثقافة اخلق وعي
المجتمع المحدد وقانون انعكاس الوجود السياسية - الاجتماعية والفكرية
للمجتمع المحدد في الوعي وقانون نمو الدور الحلاق للحماهير السعبيه.
وممارسته في الحياة الفكرية للمجتمع وقانون تقارب مخلف اشكال
الوعي الاجتماعي العلم الفلسفة الفن الح من حياة الشعب
والدور المتعاضد للعلم في الوعي الاجتماعي وتقارب الامم الاشتراكية
وحياتها الفكرية الذي يؤدي الى صنع الوعي الاجتماعي وسائر اشكال
الحياة الفكرية بصفة أمية وانسانية مزانه

تنصب القوانين المذكوره كما يرى المرء على شروط خلق الوعي
الاسرائي من جهة وعلى الموضوع الذي يعكسه من جهة أخرى وعلى

دور الجماهير الشعبية في تطور الحياة الفكرية للمجتمع والخصائص النوعية للوعي الاجتماعي الذي أصبح أكثر فأكثر أمميا وانسانيا شاملا.

يبدو لنا انه من غير المبرر النظر الى سائر القوانين المذكورة بوصفها قوانين نوعية مميزة للنمط الاشتراكي من الوعي والا فانه يجب علينا أن نعتبر سائر الروابط والعلاقات المباشرة وغير المباشرة للوعي الاجتماعي وسواها من الظواهر الفكرية للحياة الاجتماعية جزءا من هذه القوانين ان المرء يحتاج الى مقاييس يفرز على أساسها الظواهر ويبدو لنا ان المقياس المطلوب ليس سوى الروابط والعلاقات الجوهرية والضرورية المتبادلة بين الوجود والوعي الاجتماعيين والروابط الداخلية بين عناصر الوعي الاجتماعي التي تنتج عن طبيعة النظام الاجتماعي الجديد وتعتبر عن ماهية الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي الجديدين وفي الاشتراكية تخلق بين الوجود والوعي وبين الجوانب والانواع والمجالات المختلفة للوعي روابط متبادلة أوثق تملك خصائصها النوعية المميزة التي تنتج بدورها تلك الفئة من القوانين النوعية المميزة التي نعتبرها قوانين التطور الداخلي للوعي

تكن خاصية الوعي في المجتمع الاشتراكي كما أكدنا سابقا في انه تعبير عن الوجود الاجتماعي الاشتراكي في أفكار ونظريات ومشاعر وامتزجة وسواها من التكوينات الفكرية التي تشترك فيها سائر طبقات المجتمع وفئاته هذا الوعي هو تكوين فكري موحد يميز المجتمع الاشتراكي دون سواه

وتكتسب الروابط المتبادلة بين عناصر الوعي الاجتماعي طبيعة أخرى أيضا في الاشتراكية ، لان قانون تطور الوعي في المجتمع لم يعد محكوما بالصراع بين أشكال الوعي الطبقي نفي أحدها سواه بل بالاعتناء المتبادل بين سائر أنواع ومجالات وجوانب وأصعدة الوعي ككل موحد هذا لا يعني طبعاً ان الحياة الفكرية لا تعرف الخلافات في الرأي والصراع بين الأفكار والآراء الجديدة ومخلفات الماضي في الوعي والنضال الذي لا يلين ضد الايديولوجية البرجوازية

ان معرفة قوانين التطور النوعية المميزة للوعي الاجتماعي ترتبط من وجوه مختلفة بإجراء دراسات نظرية واسعة حول الوجود الاجتماعي الاشتراكي ونشاط الجماهير الشعبية وطبيعة الوعي الاجتماعي ،

وفهم خصائص وبنية وأدوار الوعي الاجتماعي نفسه بهذا الأسلوب فقط
يصبح بالإمكان تحليل التبعية بين التكوينات البنيوية المختلفة للوعي
والوجود الاجتماعيين بكلمات أخرى أن الانتقال من معرفة القوانين
العامة لتطور الوعي ، إلى معرفة القوانين النوعية المميزة المرتبطة بالوجود
الاجتماعي الاشتراكي وخصائص الوعي الاجتماعي ككل موحد يصبح
قيد الإمكان

٤ - جدلية الوعي الاجتماعي والفردى

من أشكال الروابط الهامة للوعي الاجتماعى رباطه مع الوعى الفردى . وقد غدا هذا الرباط فى السنوات الاخيرة موضوعا لبحث خاص يدرس العلاقات العامة للوعيين الاجتماعى والفردى وخصائهما وتأثيرهما ببعضهما وطرقه . ومع ذلك فان هناك قضايا كثيرة لم تحل حتى الآن وان كانت قد طرحت المرة الاولى ومن القضايا التى لم تحل بعد مسألة الميكانيزم (الآلية) التى تنوغل بها الوعى الاجتماعى الى الوعى الفردى ان الكشف عن هذا الميكانيزم سيساعد كثيرا فى تحسين مجمل نظام تربية الشخصية ، كما هو معروف

ولا تتعين الخصائص الفردية لامتلاك محتوى الوعى الاجتماعى ، فى الغالب ، بواسطة هذا المحتوى نفسه ، ولا بأهميته الموضوعية ، بل بظروف حياة الانسان الفرد ، اى بالمكان الذى يحتله الفرد فى نظام العلاقات الاجتماعية ، وبتجربته الحياتية وثقافته وتربيته الخ ويرتبط بظروف حياة الانسان وخصائص طريقه فيها عملية الامتلاك الفردى للوعى الاجتماعى وتحويل محتوى الوعى الاجتماعى الى ملكية لوعى الفرد وهى (ظروف الحياة) تحدد ايضا روابط الفرد بالتكوينات الفكرية المختلفة السائدة فى المجتمع والطبيعة الانتقائية لروابط الوعى الفردى مع الوعى الاجتماعى

يملك الوعى الفردى رابطة فعالة مع الوعى الاجتماعى ويفتش الانسان فى الوعى الاجتماعى عن اجوبة هادفة للأسئلة التى تهمة هذه الطبيعة المميزة لرابطة الوعى ترتبط بالعلاقة النشطة للانسان مع عالمه المحيط به . وبحسب ماهيتها ، فان علاقة الوعى الاجتماعى بالفردى هى بدورها ايضا علاقة فعالة وانتقائية ويدل تاريخ تطور العلم والتفكير الاجتماعى على ان بعض الافكار المعينة التى نشأت فى وعى بعض الافراد لم تتحول مرة واحدة الى وعى جماعى وحتى عندما تكون للاكتشافات

أهمية اجتماعيه كبيرد فانها لا تعدو ملكية عامه الا بعد انقضاء وقت طويل ويكمن سبب ذلك في شروط الحياة الاجتماعية للمجتمع

ويحتل الوعي الاجتماعي المكان المسيطر في عملية التأثير المتبادل التي تربطه بالوعي الفردي فهو يتوغل اليه بصورة مباشرة وغير مباشرة ويحدث في سياق عملية التعليم والتربية وخاصة عبر وسائل الاعلام الجماهيري تأثير مباشر اذ نقام احتكاك مباشر بين الاطراف المختلفة الداخلة هنا في تأثير متبادل وثمة طريق آخر لخلق هذا الاحتكاك هو طريق ارتباطها عبر صلات وصل فكرية مل وعي الفئات الاجتماعية والجماعات المختلفة ويملك وعي الجماعات الاشتراكية أهمية كبيرة بالنسبة للمجتمع الاشتراكي فهي تمثل صلة الوصل بين المجتمع والفرد وتكون من سائر فئات المجتمع

ويتعين العالم الفكري للجماعة بشروط الحياة العامة للمجتمع لذا يجد الوعي الاجتماعي تعبيره فيها ويبدو هذا في كل جماعة من خلال محصلة الشروط النوعية المميزة التي تعيش في ظلها فيتلقى وعيها سمات نوعية خاصة تميزه عن الوعي الفردي والجماعي

ويتكون الوعي الفردي أساسا تحت تأثير الوعي الجماعي وهذا تحدد من خلال خصائص النشاط الحياتي للجماعة التي يجد أفرادها أنفسهم في احتكاك مستمر مع بعضهم فتتشكل فيما بينهم روابط بالغة التنوع تقوم على المشاعر فتعبر علاقاتهم ببعضهم وتقييمهم للحقائق والاحداث الاجتماعية عن نفسها بالضرورة في شكل شعوري ان الجماعة تدين أو تؤيد تسر أو تغضب ولهذا تشكل الامزجة والآراء المشتركة العناصر الفكرية الرئيسية لوعيها وتنقل الامزجة والآراء السائدة في الجماعة الى سائر أفرادها بصور حتمية

وقد دلت دراسه الوعي الجماعي بساليب البحث الاحصائي النفسي ان فيه نظاما ثابتا وواضح التعيين من الطامح والقيم والمعايير والاحكام النمطية يعكس وجود الجماعة المعنية وينسحب عليه كل ما لمس مصالحها ويرتبط بتحقيقها لوظائفها الاساسية (٥)

وتوجه العناصر المكونة للوعي الجماعي سلوك الفرد الذي يعقل تصرفاته بها ويرتبط دور هذه العناصر في حياة الانسان الفرد بما تمثله الجماعة نفسها . ففي الجماعة المتناسكة ذات الاهداف والمهمات وآفاق التطور

الموحده سكون عاده راي مشترك تتجسد فيه المطالب الاجتماعية الضرورية المطلوبة من سلوك الفرد فيرى في سلطة الراي العام ما يسند اليه في اعماله ويفدو الراي المشترك بالنسبة للفرد عاملا من عوامل حياته بحس بحاجة داخلية اليه ويسمح الراي المشترك للفرد بوصفه تقييما للعمل والسلوك بان يعرف على نفسه فيعي خصاله ونواقصه ويؤكد ذاته كشخصية معروفة الابعاد

يختلف تصرف الافراد حيال رأي الجماعة ويملك الراي الذي تسناه الجماعة اكر الاثر حين يراعي مصالحها المشتركة والمصالح الشخصية اكل فرد فيها ويتجلى نفوذ رأي الجماعة على الفرد في انه يدفعه الى الاعراف بأولوية وقانونية احكام الجماعة ويوقظ لديه الشعور والرغبة بان يكون عضوا جديرا بها

ويمثل رأي الجماعة صيلة الوصل بين رأي المجتمع والشخصية الفردية ولا بدو رأي الجماعة بالنسبة للفرد كراي لهذه أو تلك من الجماعات بل كراي اجتماعي والحال انه يكون اجتماعيا فعلا بعدد تتماثل مصالح الجماعة والمجتمع ان وحدة المصالح تؤدي الى أن يكون الراي الاجتماعي من عملية التأثير المتبادل لآراء الجماعات. في حين سكل محوى الراي الاجتماعي قوامها

يحدث تحب نفوذ الموافقة و الادانة التي يتضمنها الراي الاجتماعي تسكل وتعبير التوجه أو التصرف الحياتي للفرد وهو ما يصفه علماء النفس عادة بالاستعداد لتلقي ظواهر ووقائع العالم بطريقة معينة

وعبر نفوذ الراي الاجتماعي على موقف الفرد عن نفسه بواسطة الاهداف والمثل الاجتماعية التي تتجلى فيه وبروابطه المباشرة بهذا ذاك من الاشخاص الذين يتورطون في صراع مع مصالح الجماعة والمجتمع احمالا ان المرء الذي يخرق المعايير الاجتماعية التي يسندها الراي الاجتماعي بدان من الجماعة والمجتمع وتحدث الادانة الاجتماعية تغيرا لا شك فيه لموقف الفرد

وتدل الدراسات النفسية - الاجتماعية انه لا يحدث في كل حالات الادانة العامة لسلوك انسان ما من قبل الراي الاجتماعي تحول سريع في وعيه وفي بعض الحالات تحدث الادانة غضبا لا يتحول الى شعور بالخجل ولا يؤدي في نفس الوقت الى الدم ومع ذلك فان استهجان

الرأي الاجتماعي لمن يخرق المعايير الاخلاقية يؤدي في معظم الحالات الى اخضاعه لمتطلبات الجماعة وهذا قد يكون في البدء ظاهريا فحسب ولكنه يبقى خطوة على طريق التصحيح ان القول بالمطالب الجماعة التي تتحقق فقط تحرق رابة الرأي العام يؤدي الى جميع التحارب الاخلاقية التي تقود عاجلا او آجلا الى وعي داخلي لدى الفرد لمطالب الجماعة

وبدل تحليل نفوذ الرأي الاجتماعي على وعي الفرد ان الشخص الفرد يرى العالم في العادة بصورة الجماعة وقيم الوقائع والاحداث من منظوراتها سواء كان يعني ذلك أم لا بعه وتترك طبيعة ومسوى الوعي الجماعي آثارا عميقة في الوعي الفردي

وتعتبر عملية تغفل محتوى الوعي الاجتماعي في الوعي الفردي عملية موجهة عن وعي من جهة (ما دامت تحدث من خلال التربية والتعليم والنشاط الابدولوجي وعفوية من جهة أخرى ومن وجود مختلفة بعسر نفوذ الوسط المحيط بالانسان غير قابل للرقابة ولكن البيئة الاجتماعية والوسط وظروف الحياة تصنع الانسان كما يصنعها الانسان

يتحقق تكون وتطور الوعي الاجتماعي على أساس ترسيخ الروابط داخل الجماعة وبقدر ما تكون الروابط غنية ومتنوعة بقدر ما تكون الوعي الفردي بسرعة أكبر ويكون بدوره أكثر غنى وتنوعا في الجماعة يكمن اذن منبع غنى الشخصية الإنسانية وفيه أيضا توجد من جهة أخرى أسباب قصور الوعي الفردي الذي نشأ عن تخف الروابط التي تشد الجماعة الى بعضها

يتملك البشر محتوى الوعي الاجتماعي بطرق مختلفة وبين الوعي الاجتماعي والفردي يمكن أن تنشأ تناقضات تتخذ اشكالا ومظاهر حد متنوعة بقدر ما هي متنوعة الأسباب التي تنجها لذا يجب على المرء لدى تربية الانسان الجديد ايفاح الاشكال التي تعمر بها هذه التناقضات بين أنواع الوعي المعطاد عن نفسها بيد أن الامر الرئيسي هو كشف أسباب التناقضات القائمة من أجل التغلب عليها

مراجع الفصل السادس

- شيرشونوف المرجع السابق
- ٢ - سيبيان المرجع السابق
- ٣ - شورافلوف المرجع السابق
- ٤ - فضايا تطور الوعي الاشتراكي ص ٩ وما يليها
- ٥ - اولمانسكي علم الاجتماع في الاتحاد السوفياتي الجزء ٩ ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٥١١

فهرست

صفحة

الفصل الاول

منهج دراسة الوعي الاجتماعي وبنية

٥

٧ المبدأ الرئيسي في دراسة الوعي الاجتماعي
المنظوران المعرفي والسوسيولوجي لدراسه الوعي الاجتماعي
تعية بنية الوعي الاجتماعي لانواع فعالية وعلاقات الشر الاحماعه

الفصل الثاني

انواع الوعي الاجتماعي

٤٩

٥١ مفاهيم شكل و نوع الوعي الاجتماعي
٥٩ العلاقات الاجتماعية وأنواع الوعي
الوعي الاخلاقي
٧٣ الوعي السياسي
٨٠ الوعي الحقوقي
٨٧ الوعي الديني
٩٥ الوعي الحمالي
الوعي الفلسفي

الفصل الثالث

مجالات الوعي الاجتماعي

١٢٢

١٢٥ النشاط الفكري العملي للسر ومجالات الوعي الاجتماعي
١٣٥ السيكلوجية الاجتماعية كوعي حماهيري
١٥٣ الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع

صفحة

١٦٥

العلم كنتاج فكري عام للتطور الاجتماعي
تداخل وتكامل مجالات الوعي الاجتماعي

١٧١

الفصل الرابع

١٨٣

انماط الوعي الاجتماعي

١٨٥

التناول التاريخي العياني وأنماط الوعي الاجتماعي

١٩٣

الوعي الاشتراكي كنمط خاص من الوعي الاجتماعي

١٩٧

بنية الوعي في المجتمع الاشتراكي

الفصل الخامس

٢٠٣

اوضاع الوعي الاجتماعي

٢٠٧

مفهوم اوضاع الوعي الاجتماعي

٢١٢

اوضاع وبنية الوعي الاجتماعي - سبل معرفتها

الفصل السادس

٢٢٧

الروابط المتبادلة للوعي الاجتماعي

٢٣٠

الارتباطات القانونية للوعي والوجود الاجتماعيين

٢٣٩

الروابط القانونية الداخلية للوعي الاجتماعي

٢٤٧

الروابط القانونية النوعية للأنماط التاريخية للوعي الاجتماعي

٢٥٠

جدلية الوعي الاجتماعي والفردية

★ طبعت على مطابع المستقبل

بيروت - لبنان تلفون : ٨٣٢٦١٨

الشمس آل.ل.ل. او ما يعادلها